معارك
إسلامية خالدة
من غزوة بدر إلى نصر أكتوبر ١٩٧٣

إعداد

ربيع إبراهيم سكر

باحث وكاتب صحفي



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب: معارك إسلامية خالدة

اسم المؤلف: ربيع ابراهيم سكر

رقم الإيداع: ٢٠١٤/١١٢١٩

الطبعة الأولى ٢٠١٤



مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت: ٠١٠٠٠٠٤٠٤٩١ _ ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

إهداء

إلى كل من علمني حرفًا منذ نعومة أظافري وحتى خط الشيب رأسي ..

إلى كل من منحني الأمل حينما عصفت بي أعاصير اليأس..

إلى زوجتي وأولادي

إلى أخوتي

إلى أصدقائي

إلى أساتذتي في جميع مراحل التعليم ..

أهدي إليهم جميعا هذا الكتاب تقديرا وعرفانا لهم.

المؤلف

ربيع إبراهيم سكر

شكر واجب

أتوجه بالشكر بعد الله عز وجل إلى كل من يسر لي نشر تلك المعارك الإسلامية الخالدة أولا في جريدة الوسط الكويتية قبل جمعها للنشر في كتاب مستقل.

وأخص بالشكر الأستاذ عدنان الوزان أبو قتيبة رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير جريدة الوسط الكويتية والأستاذ تركي الأنبعي أبو عبد الله نائب رئيس التحرير.

المقدمة:

شهد التاريخ الإسلامي منذ عهد النبي ﷺ وحتى العصر الحديث العديد من الغزوات والمعارك الحربية الفاصلة التي غيرت وجه العالم ، وخاض المسلمون تلك المعارك دفاعا عن النفس ولمواجهة الغزاة الذين جاؤوا من كل حدب وصوب إلى بلادهم في المشرق والمغرب طمعًا في ثرواتها الطبيعية الوفيرة، وسعيًا دؤوبًا منهم لبلوغ هدفهم القديم لاحتلال أراضي بلاد المسلمين والسيطرة على موقعها الفريد ذي الأهمية البالغة على خريطة العالم.

ومن خلال القراءة المتأنية لمقدمات وأحداث تلك المعارك الإسلامية وظروفها التاريخية يتضح لنا عدم صحة ما ذهب إليه المستشرقون الحاقدون على الإسلام عندما زعموا أن الإسلام انتشر بحد السيف ، فالحقيقة التي تعمد المستشرقون تجاهلها هي أن الإسلام انتشر في الشرق والغرب من دون إراقة دماء الأبرياء ، ودخلت معظم شعوب العالم في الإسلام بسبب تسامح العقيدة الإسلامية وعدل الإسلام وحسن الأخلاق التي يدعو إليها ، وأمام حرص المسلمين في عصور الإسلام الأولى على التخلق بأخلاق الإسلام فقد حبب غير المسلمين في الدخول في الدين الإسلامي أفواجا طواعية من دون كره أو حرب.

كما أن الحروب التي خاضها المسلمون كانوا مجبرين على خوضها كرها للدفاع عن أنفسهم ودينهم الحنيف وحريتهم، وحماية لأوطانهم وحضارتهم من أولئك الغزاة. مصداقًا لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾(البقرة : ١٩٠).

وتعد تلك المعارك صفحات مضيئة من التاريخ الإسلامي تستفيد الأجيال المتعاقبة من تجاربها ، وتستخلص منها الدروس التي تبين عوامل النصر وأسباب الهزيمة ، كما أنها تعتبر منبعًا خصبًا لدروس العسكرية الإسلامية من خلال القيم والمبادئ الأخلاقية التي أقرها الإسلام في الحروب ، ومنها : حسن معاملة الأسرى وعدم التعرض لدور العبادة والنساء والأطفال وكبار السن والشجر.

وفي هذا الكتاب نستعرض عددًا من أبرز وأهم الغزوات و المعارك الشهيرة في التاريخ

الإسلامي من غزوة بدر في العام الثاني من الهجرة النبوية إلى نصر أكتوبر في المعركة التي خاضها الجيش المصري ضد العدو الصهيوني في عام ١٩٧٣ ، وهي سلسلة من الانتصارات الإسلامية الرائعة التي بدأت بمعركة بدر الكبرى ، مرورا بمعارك كثيرة أشهرها فتح مكة وفتح الأندلس وحطين وعين جالوت حتى جاء نصر الله وتم العبور في شهر رمضان في السادس من أكتوبر ١٩٧٣م، لذلك كان هذا الشهر يحفل على مر العصور بكبريات الوقائع الحربية الحاسمة في تاريخ الإسلام ، ومن يتصفح كتب التاريخ، أو يقلب أوراقه تبرز أمامه صورة مشرقة لهذا الشهر العظيم.

وقد اعتمدنا في المادة العلمية لهذا الكتاب على الحلقات التي قمت بنشرها في جريدة الوسط الكويتية خلال شهر رمضان من عام ١٤٣٤ هجرية ، وكانت المادة العلمية مقتبسة ومستقاة من عدد من الدراسات والبحوث التاريخية خاصة ما كتبه المؤرخ الإسلامي المصري الدكتور راغب السرجاني ومما نشر في موقعه الفريد على الانترنت "قصة الإسلام (www.islamstory.com) " ، فضلا عن الاستفادة من الدراسات التاريخية بالمواقع الالكترونية الإسلامية الشهيرة ، ومنها مفكرة الإسلام وإسلام أون لاين والألوكة .

وقد زدنا في هذا الكتاب فصولا جديدة لم تكن في الحلقات المنشورة في جريدة الوسط الكويتية رأيت من الأهمية بمكان تضمينها أبواب وفصول الكتاب ومنها العقيدة العسكرية الإسلامية ، و نبذة عن حرب العاشر من رمضان السادس من أكتوبر ١٩٧٣، وخصصنا بابًا من أبواب الكتاب عن الأسلحة العربية القديمة ، وقد استفدت مما جاء في كتاب " العسكرية العربية الإسلامية " للمؤرخ العسكري العراقي المرحوم بإذن الله اللواء محمود شيت خطاب.

وجاء كتابنا عن المعارك الإسلامية الخالدة في ثلاثة أبواب .

الباب الأول: العسكرية الإسلامية و أخلاقيات الحرب في الإسلام ، وتضمن أربعة فصول .

الفصل الأول: الرد على أكذوبة انتشار الإسلام بالسيف.

الفصل الثاني: القيود الأخلاقية التي وضعها الإسلام في الحروب .

الفصل الثالث: مميزات العسكرية الإسلامية عن غيرها من المدارس القتالية .

الفصل الرابع : العقيدة العسكرية الإسلامية.

و الباب الثاني عن المعارك الإسلامية الخالدة في التاريخ الإسلامي منذ صدر الإسلام وحتى عصر المماليك وتضمن :

الفصل الأول : الغزوات في عهد الرسول ﷺ .

الفصل الثاني : المعارك الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين وهي : القادسية ، اليرموك ، ذات الصواري .

الفصل الثالث : المعارك الإسلامية الكبرى التي غيرت خريطة العالم ومنها: ملاذكرد ، القسطنطينية ، الزلاقة ، حطين ، عين جالوت.

الفصل الرابع : حرب العاشر من رمضان السادس من أكتوبر ١٩٧٣ والتي انتصر فيها الجيش المصري على العدو الصهيوني.

وفي الباب الثالث : تحدثنا عن الأسلحة القديمة التي استخدمها المسلمون الأوائل في معاركهم وحروبهم ليكون الجيل المعاصر على علم بها لنعلم كيف أن المسلمين كانوا يبتكرون أسلحتهم ويحصلون على كل ما هو جديد في مجال التسليح العسكري في كل عصر من العصور.

وكما قلنا فان المعارك الحربية التي خاضها المسلمون تعد بحق صفحات مضيئة من التاريخ الإسلامي تستفيد الأجيال المتعاقبة من تجاربها ، وتستخلص منها الدروس والعبر.

ربيع إبراهيم سكر

القاهرة – حدائق حلوان

أغسطس ٢٠١٣

الباب الأول

العسكرية الإسلامية
وأخلاقيات الحرب في الإسلام

الفصل الأول : الرد على أكذوبة انتشار الإسلام بالسيف

الفصل الثاني: القيود الأخلاقية التي وضعها الإسلام في الحروب

الفصل الثالث: مميزات العسكرية الإسلامية عن غيرها من المدارس القتالية

الفصل الرابع : العقيدة العسكرية الإسلامية

الفصل الأول

الرد على أكذوبة انتشار الإسلام بالسيف [1]

هناك أكذوبة كثيرًا ما يرددها أعداء الإسلام، ومفادها أن الرسول ﷺ -والمسلمون من بعده- نشروا الإسلام بحد السيف، وأن معتنقي الإسلام لم يدخلوا فيه طواعية ولا اختيارًا، وإنما دخلوا فيه بالقهر والإكراه.

والحقيقة أن جوهر الإسلام وخبر التاريخ ليكذبان هذه الفرية، ويستأصلونها من جذورها.. فمن أهم القواعد التي حرص عليها رسول الله ﷺ في حياته هي قاعدة: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فلم يأمر الرسول ﷺ - والمسلمون من بعده- أحدًا باعتناق الإسلام قسرا، كما لم يُلجؤوا الناس للتظاهر به هربًا من الموت أو العذاب؛ إذ كيف يصنعون ذلك وهم يعلمون أن إسلام المُكرَه لا قيمة له في أحكام الآخرة، وهي التي يسعى إليها كل مسلم؟!

وقد جعل الإسلام قضية الإيمان أو عدمه من الأمور المرتبطة بمشيئة الإنسان نفسه واقتناعه الداخلي، فقال سبحانه: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ﴾ [الكهف: ٢٩] ولفت القرآن نظر النبي ﷺ إلى هذه الحقيقة وبيَّن له أن عليه تبليغ الدعوة فقط، وأنه لا سلطان له على تحويل الناس إلى الإسلام فقال: ﴿ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩] وقال: ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾ [الشورى: ٤٨] ومن ذلك يتضح أن دستور المسلمين يرفض رفضا

---

(١) جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة ١ " شعوب الأرض دخلت الإسلام طواعية.. والأعداء رددوا أكذوبة انتشاره بالسيف" – عرض / ربيع سكر – ٩ يوليو ٢٠١٣ ... نقلا عن كتاب (أخلاق الحروب في السنة النبوية) للدكتور راغب السرجاني.

قاطعًا إكراه أحد على اعتناق الإسلام.

وتطبيقًا لهذه الحقيقة فقد ثبت أن المسلمين أسروا في سرية من السرايا سيد بني حنيفة: ثمامة بن أثال الحنفي، وهم لا يعرفونه، فأتوا به إلى رسول الله ﷺ فعرفه وأكرمه، وأبقاه عنده ثلاثة أيام، وكان في كل يوم يعرض عليه الإسلام عرضًا كريمًا فيأبى، فما كان من النبي ﷺ إلا أن أطلق سراحه. فانطلق ثمامة إلى نخل قريب من المسجد؛ فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. لقد تأثر ثمامة بأخلاق رسول الله ﷺ ورحمته فأسلم دون ضغط أو إكراه، وهكذا كان إسلام كل من أسلم في تاريخ الدعوة.

وعقلًا فإن من أُكرِه على شيء لا يلبث أن يتحلّل منه إذا وجد الفرصة سانحة لذلك، بل ويصبح حربًا على هذا الذي أُكره عليه، إلا أن التاريخ لم يُثبت مثل هذا، وإنما رأينا أن الذي يسلم لا يتوانى ولو للحظة واحدة - في الدفاع عن الإسلام بكل ما يملك.

ثم لينظر المتشككون وأرباب الشبهات إلى الإحصائيات الرسمية الحالية لأعداد الذين يعتنقون الإسلام، والتي تدل على أن عدد المسلمين في ازدياد مستمر، على الرغم من كل ما ينالهم من اضطهاد وما يتعرضون له من عوامل الإغراء!! فهل أكرهنا الأوربيين والأمريكيين واليابانيين وغيرهم على دخول الإسلام؟! إن ما حدث معهم هو الذي حدث مع كل من أسلم في تاريخ الإسلام. إن القوة الحقيقية للإسلام داخلية ذاتية. إنه دين الفطرة الذي يُقنع أي باحث صادق، ويعجب أي قارئ محايد.

وأيسر من أن نستقصي الحروب وأسبابها في صدر الإسلام لنعي تلك الحقيقة، أن نلقي نظرة عامة على خريطة العالم في الوقت الحاضر لنرى الشعوب التي دخلت في الإسلام دونما حرب أصلًا. إن السيوف لم تحمل بتاتًا في إندونيسيا وماليزيا والهند والصين، وسواحل القارة الإفريقية، وما يليها من سهول الصحاري الواسعة؛ ومع ذلك فأعداد المسلمين فيها هائلة!

ولو كان هناك إكراه على الإسلام فكيف نفسر بقاء المسيحيين واليهود والوثنيين وأشباه الوثنيين إلى الآن في داخل معظم بلاد العالم الإسلامي!!

أما تشريع الجهاد في الإسلام، فلم يكن لقهر الناس أو لإجبارهم على اعتناق الإسلام،

وإنما كان لتحرير الإنسان وتحييد القوى الظالمة التي قد تحول بينه وبين الإسلام.

فالإسلام -إذن- إنما غزا القلوب، وأسر النفوس.. وإن كان بإمكان السيف أن يفتح أرضًا.. فليس بإمكانه أبدًا أن يفتح قلبًا!!

إن الإسلام لا يحتاج -لتكثير أتباعه- إلى قسر الإرادات، وحملها على اعتناقه عُنوة، بل هو منهج واثق من نفسه، ومن نفاذه إلى القلوب الحية المتجردة للحق، التي متى زالت الحوائل بينه وبين النفاذ إليها وَقَرَ الإيمان في سويدائها، وخَرَّ أصحابها ساجدين لعظمة الإله الحق. قال تعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦، ١٠٧].

- تطبيقات نبوية:

مع حرص رسول الله ﷺ الشديد على الوصول برسالته إلى الناس، ومع حبه العميق لإيمانهم، إلا أنه ما فكَّر -ولو لمرة واحدة- في حياته على إكراههم على الإسلام. ظهر ذلك في كل مواقف حياته، وكذلك في كل مكاتباته وعهوده. لقد كتب رسول الله ﷺ إلى أهل الكتاب من أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام، ويبين لهم معالمه فيما رواه عروة بن الزبير- فكان في رسالته: «.. وأنه من أسلم من يهودي أو نصراني فإنه من المؤمنين: له ما لهم وعليه ما عليهم، ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يُفتَن عنها...». كذلك كتب ﷺ لأهل نجران عهدًا طويلًا جاء فيه: «.. ولنجران وحاشيتها جوار الله، وذمة محمد النبي على أنفسهم ومِلَّتِهِمْ وأراضيهم... وألا يُغَيِّرُوا مما كانوا عليه، ولا يُغَيَّرَ حقٌّ من حقوقهم ولا مِلَّتِهِمْ، ولا يُغَيَّرَ أسقف عن أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا وافه عن وافهيته.

إن هذا الأمر واضح تمام الوضوح لكل من درس السيرة من مصادرها الموثَّقة، ومراجعها الدقيقة. بل أعظم من ذلك أنه لم يكن يُكره أحدًا على الإسلام حتى بعد التمكن منه في حرب أو أسر أو غيرهما. وما أروع موقفه ﷺ مع أعرابي خطط لقتله! ﷺ فإن رسول لله ﷺ له مواقف تقترب من الخيال مع مَنْ قاتله وحاربه السنين الطوال!! إنه

المبدأ الأصيل الذي لا خروج عنه: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك موقفه مع صفوان بن أمية، الزعيم القرشي الشهير!

كان أبوه من أشد المعاندين للرسول ﷺ، ومن الذين قُتِلُوا في بدر، وورث صفوان بن أمية هذه الكراهية من أبيه للإسلام والمسلمين، وحارب الرسول ﷺ بكل طاقته، دبَّر محاولة لقتل الرسول ﷺ، وكانت هذه المحاولة بينه وبين ابن عمه عمير بن وهب، وكان وقتها لا يزال كافرًا.. وفيها تعهَّد صفوانُ بن أمية لعمير بن وهب أن يتحمل عنه نفقات عياله، وأن يسدِّد عنه دَيْنه، في نظير أن يقتل عميرٌ رسول الله ﷺ..!! إلا أن المحاولة فشلت، وذلك عندما أسلم عمير بن وهب ﷺ- في المدينة المنورة بعد أن أخبره الرسول ﷺ بما دار بينه وبين صفوان في حجر الكعبة!!

ومرَّت الأيام، وجاء فتح مكة، وهُزم المشركون، وفرَّ صفوان بن أمية، ولم يجد له مكانًا في مكة المكرمة، وعلم أنه لن يُسْتَقْبَلَ في أي مكان في الجزيرة العربية؛ فقد أصبح الإسلام في كل مكان، فقرر أن يُلْقي بنفسه في البحر ليموت! فخرج في اتجاه البحر الأحمر ومعه غلام اسمه يسار، حتى وصل إلى البحر، وهو في أشد حالات الهزيمة النفسية، ورأى صفوان من بعيد أحدَ الرجال يتبعه، فخاف، وقال لغلامه: ويحك انظر من ترى؟ قال الغلام: هذا عمير بن وهب. فقال صفوان: وماذا أصنع بعمير؟! والله ما جاء إلا يريد قتلي، فهو قد دخل في الإسلام وقد ظاهر محمدًا عليَّ.

ولحق عمير بن وهب ﷺ- بصفوان بن أمية، فقال له صفوان: يا عمير ما كفاك ما صنعتَ بي؟ حمَّلتني دَيْنك وعيالَكَ، ثم جئتَ تريد قتلي؟! فقال: أبا وهب، جُعِلْتُ فِدَاكَ! قد جِئتُكَ من عِنْدِ أَبَرِّ الناس، وأوصل الناس. لقد رأى عمير بن وهب ابن عمه وصديقه القديم صفوان يهرب من مكة فَرَقَّ له، وأشفق عليه، فأسرع إلى رسول الله ﷺ، وقال له: يا رسول الله، سيد قومي خرج هاربًا ليقذف نفسه في البحر، وخاف ألا تُؤَمِّنَهُ، فداك أبي وأمي. فقال الرسول ﷺ: «قَدْ أَمَّنْتُهُ»!! هكذا!! دون شرط ولا قيد!!

ولننظر إلى هذا العرض السخي من رسول الله ﷺ، فلو أسلم صفوان لانتهت القضية، وأصبح له ما للمسلمين، وعليه ما على المسلمين، وإن أراد أن يأخذ شهرين كاملين يفكر فيهما فهو في أمان! وتذكَّر أننا نتحدث عن رجل طالما حاول أن يستأصل المسلمين من جذورهم!

فرجع صفوان بن أمية مع عمير بن وهب إلى رسول الله ﷺ، ودخل الحرم، والرسول ﷺ يصلي بالناس صلاة العصر فوقفا سويًا، حتى ينتهي الرسول ﷺ من الصلاة، فقال صفوان لعمير بن وهب: كم تُصلون في اليوم والليلة؟ قال: خمس صلوات. قال: يصلي بهم محمد؟ قال: نعم.

فلما سلم الرسول ﷺ وانتهى من صلاته، صاح صفوان يخاطب النبي ﷺ من بعيد: يا محمد، إن عمير بن وهب جاءني بعمامتك، وزعم أنك دعوتني إلى القدوم عليك، فإن رضيتُ أمرًا وإلا سَيَّرْتَني شهرين. فقال ﷺ في رفق وسهولة: «انْزِلْ أَبَا وَهْبٍ».. (وانظر إليه يُكَنِّيهِ ويَتَلَطَّفُ إليه!).. فقال صفوان في خوف: لا - والله - حتى تُبَيِّنَ لي!! فقال الرسول ﷺ: «بَلْ تَسِيرُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ»!

وبالفعل أطلق الرسول ﷺ صفوان بن أمية أربعة أشهر كاملة ليفكر.. !! إنه لم يخطر على بال رسول الله ﷺ لا من قريب ولا من بعيد أن يُكرِه صفوان أو غيره على الإسلام، لا لشيء إلا لأن ذلك ليس من الإسلام. فليس ضعف صفوان ولا قوة الإسلام بمبرراتٍ تسمح بمزاولة الضغط على إنسان لتغيير عقيدته.

وبَعْدُ، فهذا غَيْضٌ من فيض أخلاق الرسول ﷺ في حروبه مع المشركين التي لا تُقارَن بأخلاق قادة العالم في كل مكان وزمان. إن أخلاقه ﷺ لا تُوصف إلا بأنها أخلاق أنبياء، فذلك أصدق وصفٍ لها، وكفى.

وصدق الله العظيم إذ يقول في وصفه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

- شهادة غربية :

يقول المؤرخ الفرنسي- جوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب): «إن القوة لم تكن عاملًا في نشر القرآن، وإن العرب تركوا المغلوبين أحرارًا في أديانهم، والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين رحماء متسامحين مثل العرب، ولا دينًا سمحًا مثل دينهم، وقد أثبت التاريخ أن الأديان لا تُفرض بالقوة، ولم ينتشر الإسلام - إذن بالسيف، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قَهَرت العرب مؤخرًا كالترك والمغول، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند - التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل - ما زاد

عدد المسلمين إلى خمسين مليون نفسٍ فيها.. ولم يكن الإسلام أقل انتشارًا في الصين التي لم يفتح العرب أي جزء منها قط..».

ويقول جورج سيل: «ومن قال إن الإسلام شاع بقوة السيف، فقوله تهمةٌ صرفة؛ لأن بلادًا كثيرة ما ذُكر فيها اسم السيف، وشاع الإسلام».

ويقول الكاتب الغربي الكبير توماس كارليل صاحب كتاب (الأبطال): «إن اتهامه -أي رسول الله ﷺ- بالتعويل على السيف في حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخفٌ غير مفهوم؛ إذ ليس مما يجوز في الفهم أن يشهر رجلٌ فردٌ سيفَه ليقتل به الناس، أو يستجيبوا له، فإذا آمن به من لا يقدرون على حرب خصومهم، فقد آمنوا به طائعين مصدقين، وتعرضوا للحرب من غيرهم قبل أن يقدروا عليها».

الفصل الثاني

القيود الأخلاقية التي وضعها الإسلام في الحروب [1]

١ـ حقيقة القتال في الإسلام:

السلم هو الأصل في الإسلام، وقد كان الرسول يُعَلِّمُ أصحابه ويوجِّهُهُم فيقول لهم مربيًا: «لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ...».

فالمسلم بطبيعة تربيته الأخلاقية التي يتربَّى عليها من خلال القرآن الكريم وسُنَّة النبي يَكْرَهُ القتل والدماء، ومن ثَمَّ فهو لا يبدأ أحدًا بقتال، بل إنه يسعى بِكُلِّ الطرق لتجنُّبِ القتال وسفك الدماء، وفي آيات القرآن الكريم ما يُؤَيِّد هذا المعنى جيِّدًا، فالإذن بالقتال لم يأتِ إلاَّ بعد أن بُدِئ المسلمون بالحرب، وحينئذٍ لا بُدَّ من الدفاع عن النفس والدين، وإلاَّ كان هذا جُبْنًا في الخُلُق، وخورًا في العزيمة، قال الله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]. وعلَّة القتال واضحة في الآية، وهي أن المسلمين ظُلِموا وأُخرِجوا من ديارهم بغير حقٍّ. ويقول الله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠]، يقول القرطبي: هذه الآية أوَّل آية نَزَلَتْ في الأمر بالقتال، ولا خلاف في أن القتال كان محظورًا قبل الهجرة بقوله: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[فصلت: ٣٤]، وقوله: ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ﴾[المائدة: ١٣]، وما كان مثله ممَّا نزل بمكة، فلمَّا هاجر إلى المدينة أُمِرَ بالقتال.

---

(١)جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة ٢ " الإسلام ضبط الحروب بالأخلاق وجعلها ضدَّ المعتدين فقط " – عرض / ربيع سكر – ١٠ يوليو ٢٠١٣ ... نقلا عن موقع المؤرخ الإسلامي الدكتور د. راغب السرجاني " قصة الإسلام".

والملاحَظُ أن الأمر بالقتال هنا إنما جاء لمحاربة مَنْ بدأ بالقتال فقط، دون المسالِم، وجاء التأكيد الشديد على ذلك المعنى بقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ﴾، ثم التحذير للمؤمنين: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾، فالله لا يُحِبُّ الاعتداء، ولو كان على غير المسلمين، وفي هذا تحجيم كبير لاستمرار القتال، وهذا فيه من الرحمة بالإنسانية جميعًا ما فيه. ويقول الله سبحانه: ﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾[التوبة: ٣٦]، فالقتال هنا مقيَّد، ويحسب قتالهم واجتماعهم لنا يكون فرضُ اجتماعِنا لهم، وعِلَّة قتال المشركين كَافَّةً أنهم يقاتلون المسلمين كافَّة، ومن هنا فإنه لا يجوز للمسلم أن يُقَاتِلَ مَنْ لم يقاتِلْه إلاَّ بِعِلَّة واضحة، كَسَلْبٍ أو نهبٍ أو اغتصابٍ لحقوقِ المسلمين أو بسبب ظلم أوقعوه بأحدٍ، والمسلمون يُرِيدونَ رفع هذا الظلم، أو بسبب منعهم للمسلمين من نَشر دينهم، أو إيصال هذا الدين للآخرين.

فهذه هي الأسباب والدوافع التي تدعو المسلمين إلى الحرب وواقع المسلمين في زمان الخلفاء الراشدين بعد وفاة الرسول يُصَدِّق ذلك؛ فالمسلمون في فتوحاتهم لم يُقَاتِلوا أو يَقْتُلُوا كل المشركين الذين قابلوهم في هذه الفتوحات بل على العكس لم يقاتلوا إلاَّ مَنْ قلتلهم من جيش البلاد المفتوحة وكانوا يتركون بقية المشركين على دينهم.

وهي -كما نرى- أسباب ودوافع لا يُنْكِرها منصف، ولا يعترض عليها محايد؛ فهي تشمل رَدَّ العدوان، والدفاع عن النفس والأهل والوطن والدين، وكذلك تأمين الدين والاعتقاد للمؤمنين الذين يحاول الكافرون أن يفتنوهم عن دينهم، وأيضًا حماية الدعوة حتى تُبَلَّغ للناس جميعًا، وأخيرًا تأديب ناكثي العهد، ومَنْ في العالم يُنْكِرُ مثل هذه الأسباب والأهداف للحرب؟!

٢- تفرد الإسلام في أخلاقيات الحروب:

ويضع التاريخ إكليل الخلود على قادة حضارتنا؛ عسكريين ومدنيين، فاتحين وحاكمين؛ إذ انفردوا من بين عظماء الحضارات كلها بالإنسانية الرحيمة العادلة في أشدِّ المعارك احتدامًا، وفي أحلك الأوقات التي تحمل على الانتقام والثأر وسفك الدماء، وأُقسِم لولا أن التاريخ يتحدَّث عن هذه المعجزة الفريدة في تاريخ الأخلاق الحربية بِصِدْقٍ لا مجال للشكِّ فيه لقلتُ إنها خرافة من الخرافات وأسطورة لا ظلَّ لها على الأرض!».

فإذا كان السلم هو الأصل في الإسلام، وإذا شرعَتِ الحرب في الإسلام للأسباب والأهداف التي ذكرناها سابقًا؛ فإن الإسلام كذلك لم يترك الحرب هكذا دون قيود أو قانون، وإنما وضع لها ضوابط تحدُّ ممَّا يُصَاحبها، وبهذا جعل الحروب مضبوطة بالأخلاق ولا تُسَيِّرُهَا الشهوات، كما جعلها ضدَّ الطغاة والمعتدين لا ضدَّ البرآء والمسالمين.

وتتمثَّل أبرز هذه القيود الأخلاقية فيما يلي:

١- عدم قتل النساء والشيوخ والأطفال: فكان رسول الله يوصي قادة الجند وكان مما يقوله: «...وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا...». وفي رواية أبي داود: يقول رسول الله : «وَلاَ تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا، وَلاَ طِفْلًا، وَلاَ صَغِيرًا، وَلاَ امْرَأَةً...».

٢- عدم قتال العُبَّاد: فكان رسول الله إذا بعث جيوشه يقول لهم: «لاَ تَقْتُلُوا أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ».

٣- عدم الغدر: فكان النبي يوَدِّع السرايا موصِيًا إياهم: «...وَلاَ تَغْدِرُوا...». وقال النبي : «مَنْ أَمَّنَ رَجُلًا عَلَى دَمِهِ فَقَتَلَهُ، فَأَنَا بَرِيءٌ مِنَ القَاتِلِ، وَإِنْ كَانَ المَقْتُولُ كَافِرًا».

وقد ترسَّخت قيمة الوفاء في نفوس الصحابة حتى إن عمر بن الخطاب بلغه في ولايته أنَّ أحد المجاهدين قال لمحارب من الفرس: لا تخَفْ. ثم قتله، فكتب إلى قائد الجيش: «إنه بلغني أنَّ رجالًا منكم يَطْلُبُونَ العِلْجَ (الكافر)، حتى إذا اشتدَّ في الجبل وامتنع، يقول له: «لا تخَف». فإذا أدركه قتله، وإني والذي نفسي بيده! لا يبلغنِّي أن أحدًا فعل ذلك إلاَّ قطعتُ عنقه».

٤- عدم الإفساد في الأرض: فلم تكن حروب المسلمين حروب تخريبٍ كالحروب المعاصرة، بل كان المسلمون يحرصون أشدَّ الحرص على الحفاظ على العمران في كل مكان، ولو كان ببلاد أعدائهم، وظهر ذلك واضحًا في كلمات أبي بكر الصديق ، وذلك عندما وصَّى جيوشه المتجهة إلى فتح الشام، وكان مما جاء في هذه الوصية: «وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ...». وهو شمول عظيم لكل أمر حميد، وجاء أيضًا في وصيته: «وَلا تُغْرِقُنَّ نَخْلًا وَلا تُحْرِقُنَّهَا، وَلا تَعْقِرُوا بَهِيمَةً، وَلا شَجَرَةً تُثْمِرُ، وَلا تَهْدِمُوا بَيْعَةً...».

٥- الإنفاق على الأسير: إن الإنفاق على الأسير ومساعدته مما يُثَاب عليه المسلمُ؛ وذلك بحكم ضَعْفِه وانقطاعه عن أهله وقومه، وشِدَّة حاجته للمساعدة، وقد قرن القرآن

الكريم بِرَّهُ ببِرِّ اليتامى والمساكين؛ فقال ا في وصف المؤمنين: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان: ٨].

٦- عدم التمثيل بالميت: فقد نهى رسول الله عن المُثْلَة، فروى عبد الله بن زيد قال: «نَهَى النَّبِيُّ عَنِ النُّهْبَى، وَالمُثْلَةِ". وقال عمران بن الحصين : «كَانَ النَّبِيُّ يَحُثُّنَا عَلَى الصَّدَقَةِ، وَيَنْهَانَا عَنِ المُثْلَةِ». ورغم ما حدث في غزوة أُحُد من تمثيل المشركين بحمزة عمِّ الرسول ، فإنه لم يُغيِّر مبدأه، بل إنه هدَّد المسلمين تهديدًا خطيرًا إن قاموا بالتمثيل بأجساد قتلى الأعداء، فقال: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ قَتَلَهُ نَبِيٌّ، أو قَتَلَ نَبِيًّا، وَأمام ضَلاَلَةٍ، وَمُمَثِّلٌ مِنَ الْـمُمَثِّلِينَ». ولم تَرِدْ في تاريخ رسول الله حادثةٌ واحدة تقول بأن المسلمين مثَّلوا بأَحَدٍ من أعدائهم.

٣-الحروب النبوية لم تكن دموية:

لم يكن النبي ﷺ من هواة الحرب، بل كان ينأى عنها ما وجد إلى ذلك سبيلًا؛ ولذا كان النبي ﷺ يعرض الإسلام أو الجزية أولًا، وتميَّزت الحروب النبوية بأنها حروب غير دموية، بمعنى أنها لم يكن فيها ما يُعرف الآن بجرائم إبادة الشعوب، حيث نجد فيما يُسمى «بحضارات» العالم الحديثة أن بعض الزعماء أخذوا قرارات نتج عنها إفناءٌ لِكَمٍّ هائلٍ من البشر في مدينة أو دولة أو أحيانًا قارة! لكن حروب رسول الله ﷺ لم تكن على هذه الصورة، ذلك أنه -كما ذكرنا- كان حريصًا على تجنب القتال ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، وإذا اضطر إليه حاول أن ينهيه بسرعة، وأثناء القتال نفسه كان يحفظ دماء المدنيين، وكذلك يحفظ دماء المستكرهين على القتال، ثم بعد القتال كان يعفو إذا ملك، ويسامح ويرحم إذا غَلَب. فجاءت حروبه على مستوى من الرقي لا تعرفه -بل لا تفهمه- «الحضارات» الحديثة!

لذلك فقد قمت بإحصاء عدد الذين ماتوا في كل الحروب النبوية، سواء من شهداء المسلمين، أو من قتلى الأعداء، ثم قمت بتحليل لهذه الأعداد، وربطها بما يحدث في عالمنا المعاصر، فوجدت عجبًا!!

لقد بلغ عدد شهداء المسلمين في كل معاركهم أيام رسول الله ﷺ، وذلك على مدار عشر سنوات كاملة، ٢٦٢ شهيدًا تقريبًا، وبلغ عدد قتلى أعدائه ﷺ حوالي ١٠٢٢ قتيلًا،

وقد حرصت في هذه الإحصائية على جمع كل من قُتِل من الطرفين حتى ما تم في حوادث فردية، وليس في حروب مواجهة، كما أنني حرصت على الجمع من الروايات الموثَّقة بصرف النظر عن الأعداد المذكورة، وذلك كي أتجنب المبالغات التي يقع فيها بعض المحققين بإيراد الروايات الضعيفة التي تحمل أرقامًا أقل، وذلك لتجميل نتائج الحروب النبوية! وبذلك بلغ العدد الإجمالي لقتلى الفريقين ١٢٨٤ قتيلًا فقط!!

ولكي لا يتعلل أحدٌ بأن أعداد الجيوش آنذاك كانت قليلة؛ ولذا جاء عدد القتلى على هذا النحو، فإنني قمت بإحصاء عدد الجنود المشتركين في المعارك، ثم قمت بحساب نسبة القتلى بالنسبة إلى عدد المقاتلين، فوجدت ما أذهلني!! إن نسبة الشهداء من المسلمين إلى الجيوش المسلمة تبلغ ١٪ فقط، بينما تبلغ نسبة القتلى من أعداء المسلمين بالنسبة إلى أعداد جيوشهم ٢٪!، وبذلك تكون النسبة المتوسطة لقتلى الفريقين هي ١.٥٪ فقط!

إن هذه النسب الضئيلة في معارك كثيرة بلغت ٢٥ أو ٢٧ غزوة، و٣٨ سرية، أي أكثر من ٦٣ معركة، لمن أصدق الأدلة على عدم دموية الحروب في عهده ﷺ.

ولكي تتضح الصورة بشكل أكبر وأظهر فقد قمت بإحصاء عدد القتلى في الحرب العالمية الثانية -كمثال لحروب «الحضارات» الحديثة، وخاصَّة أن الدول التي اشتركت فيها ما زالت تدَّعي أنها رائدة للحضارة ولحقوق الإنسان!- ثم قمت بحساب نسبة القتلى بالقياس إلى أعداد الجيوش المشاركة في القتال، فصُدِمْتُ بمفاجأة مذهلة!!! إن نسبة القتلى في هذه الحرب الحضارية بلغت ٣٥١٪ !!!

ولقد شارك في الحرب العالمية الثانية ١٥.٦٠٠.٠٠٠ جندي (خمسة عشر مليون وستمائة ألف)، ومع ذلك فعدد القتلى بلغ ٥٤.٨٠٠.٠٠٠ قتيل (أربعة وخمسين مليون وثمانمائة ألف)!!! أي أكثر من ثلاثة أضعاف الجيوش المشاركة! وتفسير هذه الزيادة هو أن الجيوش المشاركة جميعًا -وبلا استثناء- كانت تقوم بحروب إبادة على المدنيين، وكانت تسقط الآلاف من الأطنان من المتفجرات على المدن والقرى الآمنة، فتبيد البشر، وتُفني النوع الإنساني، فضلًا عن تدمير البنى التحتية، وتخريب الاقتصاد، وتشريد الشعوب!! لقد كانت كارثة إنسانية بكل المقاييس!

٤-القيود الأخلاقية التي وضعها الإسلام في الحروب:

وضع الإسلام مجموعة من القيود الأخلاقية التي يجب ان يتمسك بها المسلمون في حال اضطروا لخوض الحروب للدفاع عن النفس ورد عدوان المعتدين. وهذه القيود الأخلاقية التي شرعها الإسلام للمسلمين هي :

١ – عدم قتل النساء والشيوخ والأطفال

٢ – عدم قتال العُبَّاد وأَصْحَابَ الصَّوَامِعِ

٣ – عدم الغدر

٤ – عدم الإفساد في الأرض فلم تكن حروب المسلمين تخريبية كالحروب المعاصرة

٥ – الإنفاق على الأسير ومساعدته

٦ – عدم التمثيل بالميت

الفصل الثالث

ميزات العسكرية الإسلامية عن غيرها من المدارس القتالية [1]

لما جاء الإسلام، وأُذِنَ للمسلمين في الجهاد في سبيل الله، كان كل مسلم جنديًّا، وله من حُبِّهِ لدينه ما يدفعه إلى المبادرة إلى الجهاد، والاستشهاد في سبيل الله التي جعل الله منزلتها أسمى المنازل، والمتصف بها حيًّا يرزق عند الله، فرح بما آتاه من فضله.

ولقد كان الرسول ﷺ هو القائد الأعلى لجيوش المسلمين، وبعد وفاته كانت الأحوال قد تطوَّرَتْ، وميادين القتال قد كثرت، وتعدَّدت الجيوش في الأماكن المختلفة؛ فأصبح من العسير على الخليفة أن يقوم بمهمَّة القيادة بنفسه، فأسندها إلى مَنْ يَصْلُح لها ممَّن عُرِفَ بالشجاعة، والحزم، وحُسن التدبير. وقد كانت الطاعة واجبة لهؤلاء القوَّاد، وكان القوَّاد يعرضون الجند قبل لقاء العدُوِّ؛ حتى يطمئنُّوا عليهم وعلى عُدَّتهم، كما كان يفعل النبي ﷺ، ومتى انتهى القتال أصبحت مهمَّة القائد النظر في أمر الجند، وتدريبهم، وتحسين معداتهم، والاستزادة منها.

وقد عني عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- بأمر الجند، وأنشأ لهم ديوانًا خاصًّا للإشراف على شئونهم، ومختَلَف أمورهم؛ من بيان أسمائهم، وأوصافهم، وأعمالهم، وأرزاقهم، وإليه أيضًا يرجع الفضل في إقامة الحصون والمعسكرات الدائمة لإراحة الجنود في أثناء سيرهم إلى عَدُوِّهم؛ فبُنِيَتِ الأمصار كالبصرة والكوفة والفسطاط؛ لإراحة الجند، وصدِّ هجمات الأعداء.

(١) جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة ٣ "الخلفاء بالحرب العالمية الأولى استفادوا من خطة خالد بن الوليد في موقعة اليرموك" –عرض / ربيع سكر – ١١ يوليو ٢٠١٣ ... نقلا عن دراسة بعنوان « العسكرية الإسلامية .. فنون قتالية بأخلاقيات الإسلام » للباحث الإسلامي محمد شعبان ايوب – موقع " قصة الإسلام".

وقد أتمَّ الأمويون ما بدأه عمر -رضي الله عنه- من العناية بالجيش؛ فنظَّموا ديوان الجند، واعتنَوْا بالجيش، ولما استقرَّ لهم الأمر نهائيًّا حين تقاعد كثير من المسلمين عن الحرب والجهاد، أدخل عبد الملك بن مروان نظام التجنيد الإجباري.

كما أرسى المسلمون تقاليد عسكرية، وابتكروا الكثير من فنون القتال، فلم يكن العرب في جاهليتهم يعرفون نظامًا في الحرب، وكانوا يعتمدون طريقة الكَرّ والفَرّ، ولما جاء الإسلام ونزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف: ٤]، رتَّبَ المسلمون الجيوش ونَظَّمُوها، وخاصَّة حين اتَّسَعَتْ حركة الفتوح، والتقت جيوش المسلمين بجيوشٍ لها تاريخ في التخطيط والتنظيم؛ مثل: الفرس، والروم.

فعَرَفَ المسلمون في تنظيم صفوفهم القتالية طريقة تُعْرَفُ بالكراديس، وتعني: الكتائب أو الوحدات، وتقوم على تقسيم الجيش إلى خمس مجموعات رئيسية؛ هي: المقدِّمَة، ثم الميمنة، والميسرة، وقلب في الوسط، ثم كتيبة في الخلف تُعْرَفُ بالساقة أي المؤخِّرَة.

وتُعْتَبَرُ اليرموك، والقادسية، وأجنادين من المواقع الحربية التي تُعَدُّ مثالًا لغيرها في تعبئة الجيوش وحُسْنِ قيادتها، وقد تأسَّى الحلفاء الأوربيون في الحرب العالمية الأولى بما صنعه خالد بن الوليد في موقعة اليرموك من توحيد القيادة، واختيار الموقع المناسب للمعركة.

وقد استخدم المسلمون منذ عهد النبي ﷺ ما يُعرف بآلة «الدبّابة»، وهي آلة تُستخدم في ثقب حوائط الأماكن المحصَّنَة وتدميرها؛ فقد ذكر ابن كثير في البداية والنهاية أن «نفرًا من الصحابة دخلوا تحت دبابة، ثم زحفوا ليحرقوا جدار أهل الطائف...» ، وكانت تصنع من الخشب بعكس المعنى المعروف لها اليوم.

واهتم الأمويون بصناعة المجانيق، حتى استطاع الحجاج بن يوسف الثقفي صُنْعَ منجنيق أسماه (العروس)، يحتاج إلى خمسمائة رجل لخدمته والعمل عليه، وقد سلَّم عددًا من هذه المنجنيقات إلى ابن عمه المجاهد القائد محمد بن القاسم الثقفي، ففتح بها مدينة الدَّيْبُل (كراتشي) عام ٨٩هـ وعدة مدن أخرى في وادي السند.

وقد استحدث الجيش الإسلامي فرقة تُسمى بالنفَّاطة، وهم الذين يستخدمون النفط في

الحرب من على أظهر الخيل، أو تعبئته ورميه في قارورات على العدوّ، وانتشرت هذه الفرقة منذ العصر العباسي، وكثر الاعتماد عليها في وقت الحروب الصليبية.

واللافت أن الحضارة الإسلامية امتازت بالجانب التخصصي منذ بداياتها؛ ففي مكتبات العالم ودور كتبه لا تزال المخطوطات الإسلامية التي تتناول الحديث عن العسكرية الإسلامية وأبوابها وإستراتيجياتها والتسليح والتعبئة والإمداد والتخطيط وتطور المفاهيم بل والجانب الأخلاقي، والعقيدة العسكرية الإسلامية لا تزال تحتاج من الباحثين والمحققين إلى جهد كبير.

وإن البحوث الجادة والتحقيقات النافعة التي بذلها اللواء العراقي محمود شيت خطاب -رحمه الله- باهتمامه في هذا الجانب المعتم في حضارتنا ليستحق عليه منا الدعاء الكثير، وثمة عمل مهم قام بتحقيقه رحمه الله، هذا العمل هو تحقيقه لمخطوط من العصر المملوكي بعنوان (الأدلة الرسمية في التعابي الحربية) ومؤلفه أحد نقباء الجيش المصري وأمرائه في عصر السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون (ت ٧٧٨هـ)، واسمه محمد بن محمود منكلي.

مميزات العسكرية الإسلامية عن غيرها من المدارس القتالية:

يقول المؤرخ الإسلامي الدكتور د. راغب السرجاني[1] : تمتاز العسكرية الإسلامية عن غيرها بعدة مزايا ومبادئ، لم يشهدها العالم قديمًا أو حديثًا، ومن أهمها: إيمان القائمين عليها بالهدف، وتصميمهم على بلوغه، وقد أعطى النبي من نفسه القدوة والمثل في ذلك؛ حين رفض كل عروض قريش للعدول عن حمل رسالة الإسلام وتبليغها للعالمين، فقال رسول الله لعمه أبي طالب: «يَا عَمِّ، وَاللهِ! لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ وَأَهْلَكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ».

كما وقف الصِّدِّيق أبو بكر نفس الموقف، عندما منع بعض المسلمين الزكاة، وهي ركن من أركان الإسلام، فقال: «والله لو منعوني عقالًا كانوا يُؤَدُّونه إلى رسول الله لأُقَاتِلَنَّهم على منعها؛ إن الزكاة حق المال، والله لأقاتلنَّ من فرَّق بين الصلاة والزكاة».

وعلى هذا التصميم والإصرار سار القادة المسلمون، فكانت الشهادة في سبيل نشر دين

(١) راجع موقع قصة الإسلام، د. راغب السرجاني.

الله أحبَّ إليهم من الحياة، فكان ذلك المفتاح الأول من مفاتيح تحقيق النصر لخططهم العسكرية؛ لأنهم آمنوا بأن النصر من عند الله؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾[آل عمران: ١٢٦].

ولم تكن الحرب في الإسلام حربًا عدوانية من أجل السلب والنهب، أو من أجل مكسب دنيوي زائل، بل لتكون كلمة الله هي العليا؛ لذلك كانت همة المجاهدين تهون أمامها الجبال، ورُوحهم المعنوية تتحطَّم على صخرتها الصعاب؛ لقوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠]. فكانت هذه الروح المعنوية القوية -التي لا حدود لها- من أقوى العوامل التي أثَّرت على نجاح العسكرية الإسلامية؛ لذلك يقول عبادة بن الصامت للمقوقس عظيم القبط:

"إنما رغبتنا وهمَّتنا الجهاد في الله واتباع رضوانه، وليس غزونا عدوًّا ممن حارب الله؛ لرغبة في الدنيا، ولا حاجة للاستكثار منها، إلا أنَّ الله قد أحلَّ ذلك لنا، وجعل ما غنمنا من ذلك حلالًا، وما يُبالي أحدنا أكان له قناطير من ذهب، أم كان لا يملك إلا درهمًا؛ لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها، يسدُّ بها جوعته ليلته ونهاره، وشَمْلة يلتحفها؛ وإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله تعالى، واقتصر على ما بيده، ويبلغه ما كان في الدنيا؛ لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم، ورخاءها ليس برخاء؛ إنما النعيم والرخاء في الآخرة؛ بذلك أمرنا الله، وأمرنا به نبينا، وعهد إلينا ألا تكون همة أحدنا في الدنيا إلا ما يُمسِك جوعته، ويستر عورته، وتكون همته وشغله في رضاء ربه وجهاد عدوه، وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحًا ومساءً أن يرزقه الشهادة، وألا يَرُدَّه إلى بلده، ولا إلى أرضه، ولا إلى أهله وولده، وليس لأحد منا هَمٌّ فيما خلفه، وقد استودع كل واحد مِنَّا ربه أهله وولده، وإنما همنا أمامنا» .

وتميزت العسكرية الإسلامية كذلك بالرُّوح الجماعية التي يشعر معها كل إنسان في المجتمع الإسلامي أنه مسؤول عن تحقيقها؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ولقول رسوله : «يَدُ الله مَعَ الْـجَمَاعَةِ» ولذلك نجد الحباب بن المنذر يقول لرسول الله في غزوة بَدْر، عندما رأى أنَّ الموضع الذي نزل فيه المسلمون لن يُحقِّق لهم نصرا مؤكَّدًا على عدوِّهم: يا رسول الله، أرأيتَ هذا المنزل، أمنزلًا أنزلكهُ الله، ليس لنا أن نُقَدِّمه ولا نتأخَّر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال : «بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْـحَرْبُ وَالْـمَكِيدَةُ». فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغوِّر ما وراءه من القُلُب ، ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماء، فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله : «لَقَدْ أَشرتَ بِالرَّأْيِ». فنهض رسول الله ومن معه من الناس، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقُلُبِ، فغوِّرت، وبني حوضًا على القليب الذي نزلَ، فمُلِئ ماءً ثم قذفوا فيه الآنية» .

ولم يكن تحرك المسلمين لتجهيز جيش العسرة في غزوة تبوك إلا انطلاقًا من شعورهم بالروح الجماعية التي تربط المجتمع المسلم، ولم تشهد أي حضارة من الحضارات الأخرى مثل هذه الروح الجماعية الرائعة في البذل والعطاء؛ لتحقيق المهمة العسكرية التي أقرَّتها قادتهم؛ حيث تسابق المسلمون في إنفاق الأموال وبذل الصدقات.

بين القائد وجنوده:

وتأتي العلاقة المتميزة بين القائد وجنوده عاملًا من أهم عوامل نجاح العسكرية الإسلامية؛ فكان رسول الله شديد الحرص على إقامة جسور الحب والثقة بينه وبين جنوده، فيُسَمِّي كل واحد منهم باسم محبب إلى نفسه، فيقول عن أبي عبيدة : «لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ وَأَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ أبو عُبَيْدَةَ بْنُ الْـجَرَّاحِ». وعن الزبير بن العوام : «لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ، وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ».

المسلمون أول من استخدموا البارود والمدافع في الحروب:

العجيب أن الجيش الإسلامي أول من استخدم البارود، وقد عرفه المسلمون قبل الغربيين، وليس كما يزعم بعض المستشرقين، أن الأوربيين قد استخدموه في حروبهم وعرفوه قبل المسلمين، فقد تمَّ استعماله لأول مرة في مصر؛ وذلك لتوافر مادة النطرون بكثرة فيها، وذكر المقريزي في حوادث عام ٧٢٧هـ أن البارود قد استُعْمِل بجوار النفط في حفل زفاف ابنة سلطان مصر الناصر محمد بن قلاوون، فقال: «وعُمل في القلعة برجًا من بارود ونفط».

والظاهر أن المسلمين قد عرفوه قبل ذلك التاريخ بمدة كافية، فقد ذكر ابن خلدون أن المرينيين في المغرب استخدموه في حروبهم، خاصة في فتحهم لمدينة سجلماسة، فذكر أن سلطانهم يعقوب بن عبد الحق قد نصب على المدينة «هندام النفط القاذف بحصى-الحديد، ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الأفعال إلى قدرة بارئها!». وكانت هذه الحادثة عام ٦٧٢هـ مما يبدو أن المسلمين قد عرفوا «المدفع» في حروبهم -كما يذكر ابن خلدون هنا- منذ القرن السابع الهجري، فاستخدموا حصى-الحديد (القنابل الصغيرة)، التي كانت تنطلق بقوة البارود المفزعة؛ ولذلك تعجّب ابن خلدون من هذه القوة، وهو ما يبدو في وصفه السابق.

واستخدم المماليك المدافع بكثرة في حروبهم، وجعلوا منها أنواعًا متعددة؛ فمنها المدفع أو المكحل الكبير، ومنها المدفع الصغير، وقد وصف لنا القلقشندي في «صبح الأعشى» مكاحل البارود، فقال: «وهي المدافع التي يُرْمَى عنها بالنفط، وحالها مختلف، فبعضها يُرْمَى عنه بأسهم عظام، تكاد تخرق الحجر ببندق، وبعضها يَرْمِي عنه من حديد من زنة عشرة أرطال بالمصري إلى ما يزيد على مائة رطل، وقد رأيت بالإسكندرية في الدولة الأشرفية شعبان بن حسين في نيابة الأمير صلاح الدين بن عرام رحمه الله، بها مدفعًا قد صُنِعَ من نحاس ورصاص، وقُيِّد بأطراف الحديد، رمي عنه من الميدان ببندقة من حديد عظيمة محماة، فوقعت في بحر السلسلة خارج باب البحر وهي مسافة بعيدة».

الفصل الرابع

العقيدة العسكرية الإسلامية [1]

من الملاحظ أن الجيوش العربية والإسلامية في العصر الحديث من دون عقدية عسكرية إسلامية واضحة وذلك منذ رحيل الاستعمار عن البلدان العربية والإسلامية وحصولها على الاستقلال ، وتبعا لمصادر التسليح الأجنبي ، أصبحت العقيدة العسكرية الغربية هي السائدة في قسم من القوات العربية الإسلامية المسلحة التي تستورد أسلحتها من أمريكا وأوروبا ، وتسود قسمًا آخر منها العقيدة العسكرية الشرقية لاستيرادها السلاح من الدول الشرقية وعلى رأسها روسيا والصين وكوريا الشمالية ، أما العقيدة العسكرية العربية الإسلامية، فغائبة عن القوات العسكرية العربية الإسلامية غيابًا كاملًا، ومن النادر جدًا أن يعرف عسكري عربي مسلم، أن هناك عقيدة عسكرية عربية إسلامية سادت ردحًا من الزمن، وقادت العرب والمسلمين إلى النصر.

وعن ذلك يقول المؤرخ العسكري العراقي المرحوم بإذن الله اللواء محمود شيت خطاب في كتابه القيم العسكرية العربية الإسلامية .

[١] غياب العقيدة العسكرية الإسلامية:

إن العقيدة العسكرية الإسلامية، غائبة غيابًا تامًا عن القوات المسلحة العربية والإسلامية في جميع أرجاء البلاد العربية والدول الإسلامية، مجهولة جهلًا كاملًا في المدارس والمعاهد والكليات العسكرية العربية والإسلامية، وفي سائر المؤسسات التعليمية العسكرية والمدنية أيضًا في الوطن العربي ودار الإسلام، لا يعرفها العسكريون العرب المسلمون، ولا يقدرون قيمتها العظيمة ومكانتها الرفيعة بين العقائد العسكرية الشرقية والغربية المعروفة، ولا يعملون بها لأنهم يجهلونها ويجهلون أثرها وتأثيرها في العرب والمسلمين، والمرء عدوّ ما جهل.

(١) المرجع : كتاب القيم العسكرية العربية الإسلامية – سلسلة كتاب الامة رقم ٣ صفر ١٤٠٣ هجرية – تأليف المؤرخ العسكري العراقي المرحوم بإذن الله اللواء محمود شيت خطاب – من صفحة ٥١ إلى صفحة ٦٢ .

وقد يعرفها قسم من الفقهاء العرب والمسلمين، يتحدثون عنها في مجالاتهم التدرنسية، كفرع من فروع الفقه فحسب، فهي مبادئ في كتب الفقه للعلم لا للعمل، مجمدة لا تُطبق.

أما القوات المسلحة العربية والإسلامية ضباطًا ومراتب وجنودًا، فتطبق في الوقت الحاضر ثلاثة أقسام، أو ثلاثة أنواع من العقائد العسكرية الأجنبية، كل قسم من الدول العربية والإسلامية يطبّق نوعًا من أنواع العقائد العسكرية الأجنبية.

القسم الأول من الدول العربية الإسلامية، يطبق العقيدة العسكرية الغربية، وهذه العقيدة تقسم إلى ثلاثة أنواع: العقيدة العسكرية الأمريكية، والعقيدة العسكرية البريطانية، والعقيد العسكرية الفرنسية.

أما العقيدة العسكرية الأمريكية، فتسود في القوات المسلحة العربية الإسلامية التي تستورد السِّلاح من الولايات المتحدة الأمريكية، وتوفد طلابها العسكريين وضباطها إلى المؤسسات العسكرية الأمريكية.

أما العقيدة العسكرية البريطانية، فتسود في القوات المسلحة العربية والإسلامية التي تستورد السِّلاح من بريطانيا، وتوفد الطلاب العسكريين للدراسة في مؤسساتها العسكرية، أو كانت مستعمرة لبريطانيا وجرى تدريب قواتها المسلحة على أيدي الخبراء العسكريين البريطانيين.

أما العقيدة العسكرية الفرنسية، فتسود في القوات المسلحة التي تستورد السلاح من فرنسا، أو جرى تدريب جيشها على أيدي الفرنسيين يوم كانت بلادهم مستعمر لفرنسا.

والقسم الثاني من قوات العرب المسلمين المسلحة، يطبق العقيدة العسكرية الشرقية، وهي القوات التي كسرت احتكار السلاح، واستوردت أسلحتها من الدول الشرقية بعد أن كانت تستورده من الدول الغربية وأوفدت التلاميذ والطلاب إلى المدارس والمعاهد والكليات العسكرية الشرقية، واستقدمت الخبراء الشرقيين لتدريب جيشها.

والقسم الثالث من قوات العرب المسلمين المسلحة، يطبِّق العقيدة الغرابية، كما اصطلحت على تسميتها نسبة للغراب الذي أراد تقليد العصفور في مشيته، فأخفق في محاولته، ولكنه نسي مشيته الأصلية، فلا أصبح كالعصفور في مشيته، ولا بقي غرابًا

كأمثاله من الغربان.

هذه القوات العربية الإسلامية، كانت تطبق العقيدة الغربية، ثم طبقت العقيدة الشرقية، ثم بدَّلت رأيها فعادت أدراجها إلى العقيدة الغربية، وتبدَّلت عقيدتها في مدة زمنية قصيرة غير كافية لاستيعاب أية عقيدة من العقيدتين كما ينبغي، وأصبح لديها ضباط وضباط صف تخرج قسم منهم في العقيدة الغربية، وتخرج قسم منهم في العقيدة الشرقية، فأصبح كل قسم من هذين القسمين يدرِّب رجال على العقيدة التي تعلمها، فلم تبق تلك القوات المسلحة على إحدى العقيدتين، بل امتزجت العقيدتان امتزاجًا متناقضًا، فأصبح التدريب والتعليم العسكريان في تلك القوات المسلحة في تلك القوات المسلحة على إحدى العقيدتين، بل امتزجت العقيدتان امتزاجًا متناقضًا، فأصبح التدريب والتعليم العسكريان في تلك القوات المسلحة العربية الإسلامية أقرب إلى الفوضى منه إلى النظام.

إن العقيدة العسكرية الغربية تسود قسمًا من القوات العربية الإسلامية المسلحة، وتسود قسمًا آخر منها العقيدة العسكرية الشرقية، وتسود القسم الثالث والأخير منها العقيدة العسكرية الغرابية، أما العقيدة العسكرية العربية الإسلامية، فغائبة عن القوات العسكرية العربية الإسلامية غيابًا كاملًا، ومن النادر جدًا أن يعرف عسكري عربي مسلم، أن هناك عقيدة عسكرية عربية إسلامية سادت ردحًا من الزمن، وقادت العرب والمسلمين إلى النصر.

[٢] لماذا العقيدة العسكرية الإسلامية؟

لكي نعلم لماذا العقيدة العسكرية الإسلامية وحدها تناسب العرب والمسلمين وتقودهم إلى النصر، ولا تناسبهم العقيدتان العسكريتان الغربية أو الشرقية، وتقودهم إلى الاندحار، لابد من مقارنة العقائد الثلاث، ليكون الجواب على هدى وبصيرة.

والمقارنة تقتصر على (المبادئ) التي تميز تلك العقائد وتتسم بها، أما (الأساليب) فقد تكون متشابهة أو متقارنة بين العقائد العسكرية الثلاث، وأهمية الأساليب بالنسبة لأهمية المبادئ لا قيمة لها.

والعقيدة العسكرية الغربية تنقسم إلى ثلاثة أنواع: العقيدة العسكرية الأمريكية، والعقيدة العسكرية البريطانية، والعقيدة العسكرية الفرنسية، وهي تختلف بالأساليب

ولكنها تتفق في المبادئ، وكانت العقيدة العسكرية الغربية قبل الحرب العالمية الثانية تنقسم إلى خمسة أنواع، يضاف إلى العقائد الغربية الثلاث، العقيدتان: الألمانية والإيطالية، فجمدت هاتان العقيدتان بعد هزيمة ألمانيا وإيطاليا في تلك الحرب.

والعقيدة الغربية ترتكز على المبدأ القائل: «مزيد من النيران وقليل من المقاتلين»، أي: أن الهدف الذي يعترض العمليات الحربية في القتال، يمكن السيطرة عليه بدكه دكًا بالنيران الأرضية والجوية الكثيفة بمختلف الأسلحة المتيسرة، مهما بلغت كثافة النيران كمية وكيفية ونفقات، وحينذاك يستولي على ذلك الهدف بعد إخماده بالنيران وإسكاته عدد محدود من المحاربين، لغرض التقليل من الخسائر في الأرواح جهد الإمكان.

وعلى هذا المبدأ: «مزيد من النيران، وقليل من المقاتلين»، يجري تدريب وتسليح وتجهيز وتنظيم وقيادة القوات المسلحة التي تعتمد العقيدة الغربية في العسكرية.

ولم يأت هذا المبدأ السائد في العقائد العسكرية الغربية من فراغ، ولم يفرض نفسه عبثًا، ولا يُعمل به من غير جدوى بل فرضه فرضًا عاملان حيويان:

الأول: هو أن الدول الغربية دول صناعية تنتج السلاح في مصانعها الخاصة بها، وبإمكانها إنتاج السلاح الذي تريده، بالكمية التي تريدها، وتزويدُ جيوشها بالسلاح التقليدي والسلاح المتطور ليس مشكلة بالنسبة لتلك الدول الغربية الصناعية، وهذا هو العامل الصناعي.

أما العامل الثاني: فهو عامل سياسي، فالديمقراطية التي تُتيح الحرية الكاملة لكل فرد، تجعل لحياة ذلك الفرد قيمة عظيمة لا يمكن التساهل بأي شكل من الأشكال في إهدارها دون مسوِّغًا يرتفع عاليًا في التنديد بكل تبديد في الأرواح دون مسوِّغ وبغير حق أيضًا، فلا مجال للمغامرة بالأرواح، وهناك كل المجال للمغامرة بالنيران.

والقائد المنتصر في معركة من المعارك، لا يحاسب في الغرب على إسرافه في النيران، ولكن يحاسب على إسرافه في الأرواح، ولا تعتبر المعركة ناجحة إذا كانت الخسائر بالأرواح فوق المعدل وأكثر من المعقول.

أما العقيدة العسكرية الشرقية، فترتكز على المبدأ القائل: «مزيدٌ من المقاتلين وقليل من

النيران»، أي: أن المبدأ الشرقي يناقض المبدأ الغربي من الناحية العسكرية على خط مستقيم، فالهدف الذي يعترض العمليات الحربية في القتال يمكن السيطرة عليه بموجات متعاقبة من المحاربين، يتعاقب تقدمها: قَدَمَة قتالية بعد قَدَمَة قتالية، حتى تستطيع إحدى القدمات القتالية النجاح في السيطرة على الهدف المطلوب، ويكون تقدم القدمات المقاتلة نحو هدفها مسندًا بالنيران المتيسرة من الأرض أو من الجو أو منهما معًا، ولا يحول نقص النيران كمية ونوعًا دون إقدام المقاتلين على النهوض بواجبهم في احتلال هدفهم في الوقت المناسب.

وبموجب هذا المبدأ «مزيد من المقاتلين وقليل من النيران»، يجري تدريب وتسليح وتجهيز وتنظيم وقيادة القوات المسلحة التي تعتمد العقيدة الشرقية في العسكرية.

وفرض هذا المبدأ عاملان رئيسان:

الأول: ضخامة نفوس الدول الشرقي عامة والاتحاد السوفييتي خاصة، وتسخير الحشود لمصلحة الدولة بحيث تذوب مصلحة الفرد في مصلحة الجماعة.

والثاني: هو عدم تكامل الإنتاج الصناعي للأسلحة في الدول الشرقية كما هو الحال في تكاملها في الدول الغربية، فلابد من الاقتصاد فيه واستعماله دون إسراف، كما يجري في العقيدة العسكرية الغربية.

وليس معنى ذلك عدم تكثيف النيران في العقيدة الشرقية، بل معناه أن معدل كمية النيران في العقيدة الشرقية أقل منها في العقيدة الغربية.

إن العقيدة العسكرية الغربية عبارة عن إفراط في النيران، وتفريط في المقاتلين، والعقيد العسكرية الشرقية عبارة عن إفراط في المقاتلين، وتفريط في النيران.

أما العقيدة العسكرية الإسلامية، فلا إفراط فيها ولا تفريط، بل هي وسط في كل شيء، وصدق الله العظيم: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾(البقرة:١٤٣).

لا إفراط في العقيدة العسكرية الإسلامية بالنيران، لأن الدول العربية والإسلامية تستورد معظم أسلحتها ولا تصنعها، فلا يمكن أن نفرط في استخدامها كالدول الصناعية الغربية التي تنتج أسلحتها وتصنعها في بلادها محليًا.

ولا إفراط في هذه العقيدة بالمقاتلين، لأن الروح البشرية قدسية خاصة في الإسلام، ينبغي الحرص على سلامتها وأمنها، والقائد المسلم الذي يفرط في تقديم الخسائر بالأرواح عبثًا ليس قائدًا ولا مسلمًا، وقد كان القادة المسلمون يحرصون أشد الحرص على أرواح المجاهدين، وغالبًا ما كانوا يستأثرون بالخطر ويؤثرون رجالهم بالأمن.

والدول الإسلامية في مجموعها ليست كثيفة السكان إلا في باكستان وبنجلاديش، وبالرغم من كثافة سكان هذين القطرين الإسلاميين، فالحرص على أرواح المقاتلين في الحرب من أول واجبات القادة.

وما يقال عن الإفراط في النيران والمقاتلين، يقال في التفريط بهما، فلا يناسب الدول الإسلامية غير العقيدة الوسط، لا شرقية ولا غربية، بل وسطًا بين ذلك.

ومن مناقشة العقائد العسكرية الثلاثة، يتبين لنا، بأن العقيدة العسكرية الإسلامية هي أفضل من العقيدتين الشرقية والغربية، وهي التي تناسب العرب والمسلمين، تنفيذًا لتعاليم الإسلام، لأن العقيدة العسكرية الإسلامية جزء لا يتجزأ من العقيدة الإسلامية، ولأنها تناسب المسلمين نفوسًا وقدرات صناعية، ولأنها العقيدة التي جربناها فانتصرنا، وجربنا غيرها فلم ننتصر أبدًا.

[٣] سمات العقيدة العسكرية الإسلامية:

انتصرنا بالعقيدة الإسلامية، لأن لها سمات معينة لا مثيل لها في العقائد العسكرية الأخرى.

إن الإسلام بتعاليمه السمحة الرضية جعل بحوافزه المادية والمعنوية المسلم الحق، مطيعًا لا يعصي، صابرًا لا يتخاذل، شجاعًا لا يجبن، مقدامًا لا يتردد، مُقبلًا لا يفر، ثابتًا لا يتزعزع، مجاهدًا لا يتخلف، مؤمنًا بمثل عُليا، مضحيًا من أجلها بالمال والروح، يخوض حربًا عادلة لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، ولتكون كلمة الله هي العليا، مدافعًا عن الأرض والعِرض وحرية وانتشار الدعوة وصيانتها، وعن المسلمين في دار الإسلام.

هذا المؤمن الحق، لا يخاف الموت ولا يخشى الفقر، ولا يهاب قوة الأرض، يسالم ولا يستسلم، ولا تضعف عزيمته الأراجيف والإشاعات، ولا يستكين للاستعمار الفكري، ويقاوم الغزو الحضاري الذي يناقض دينه، ولا يقنط أبدًا ولا ييأس من رحمة الله.

وهذا المؤمن الحق، يقظ أشد اليقظة، حذر أعظم ما يكون الحذر، يتأهب لعدوِّه ويعُد العدّة للقائه، ولا يستهين به، في السلم والحرب، ويجاهد بأمواله وروحه في سبيل الله.

وكل هذه التوجيهات العسكرية مستمدة من القرآن الكريم، الذي حوت آياته المحكمة على ترسيخ العقيدة العسكرية الإسلامية في عقل المسلمين وقلوبهم بكل ما فيها من أسس وتفاصيل.

وهذه العقيدة العسكرية الإسلامية، تفسر سر الفتوح الإسلامية العظيمة التي امتدت خلال تسع وثمانين سنة (من سنة إحدى عشرة الهجرية إلى سنة مائة الهجرية) من الصين شرقًا، إلى فرنسا غربًا، ومن سيبيريا شمالًا، إلى المحيط جنوبًا.

ذلك لأن شعار المسلمين كان: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ (التوبة:٥٢): النصر أو الشهادة.

ولأن المسلمين كانوا يحرصون على الموت حرص غيرهم على الحياة: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ (آل عمران:١٧٣-١٧٤).

وأشهد أنني لم أقرأ، حتى في كتب التعبية وسَوْق الجيش الفنية الصادرة حديثًا، أوضح تعبيرًا، وأدق تعريفًا، وأكثر شمولًا، وأوجز عبارة، مما جاء في القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة أسلوبًا فذًا لمصاولة الحرب النفسية المعادية، وتعريفًا لإرادة القتال في العقيدة العسكرية الإسلامية.

بل لا يقتصر معناها على ذلك فحسب، بل يشمل تعريف: المعنويات العالية التي يجب أن يتحلى بها الجندي المسلم أيضًا.

تلك هي عظمة القرآن الكريم حتى في المجالات العسكرية، ولكن يا ليت قومي يعلمون.

ونعود لنتساءل: أهذه العقيدة العسكرية الإسلامية أفضل وأقوم وأمتن وأجدى ... أم العقيدتان العسكريتان المستوردتان: الشرقية والغربية؟!!

[٤] المصــادر المعتمــدة :

أول المصادر للعقيدة العسكرية الإسلامية وأهمها هو القرآن الكريم، وقد اعتمدته وحده في إبراز سمات هذه العقيدة في الذي أوردته من سمات، ويمكن إجراء دراسة مستفيضة في: الجهاد بالمال، الجهاد بالنفس، عقاب المتخلف، الطاعة، الصبر، الشجاعة، الشهادة، والشهيد، الثبات، الحرب العادلة، العهود والمواثيق، الأسرى، الغنائم والفيء والجزية، مصاولة الحرب النفسية، الحذر واليقظة، الإعداد الحربي، وغيرها من الدراسات الحيوية المهمة.

والمصدر الثاني: كتب الحديث، وأهمها الصحاح الستة: البخاري، مسلم، أبو داود، الترمذي، النسائي، وابن ماجه.

وفي مصادر الحديث ذخيرة لا تقدر بثمن في العقيدة العسكرية الإسلامية.

والمصدر الثالث: كتب الفقه الإسلامي، وعلى رأسها كتب المذاهب الأربعة: أحمد بن حنبل، ومالك، وأبي حنيفة، والشافعي، فقد شرح الفقهاء عليهم رحمة الله العقيدة العسكرية الإسلامية شرحًا وافيًا لا مزيد عليه.

ولعل من المفيد أن ألفت أنظار الباحثين إلى كتاب: «السير الكبير» لمحمد بن الحسن الشيباني تلميذ الأمام أبي حنيفة ﷺ، وشرحه لمحمد بن أحمد السرخسي الذي حققه الدكتور صلاح الدين المنجد، فهو مصدر عظيم الفائدة جليل القدر في العقيدة العسكرية الإسلامية.

المصدر الرابع: المصادر التاريخية المعتمدة وكتب المغازي، وعلى رأسها السيرة النبوية المطهرة، وأهم المصادر التاريخية المعتمدة: تاريخ الرسل والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، والكامل في التاريخ لعز الدين ابن الأثير وغيرهما كثير.

وفي هذه المصادر تفاصيل المعارك التي خاضها المسلمون في الفتح واستعادة الفتح، والمعارك الدفاعية، وغزوات النبي ﷺ وسراياه، وهي التطبيق العملي للعقيدة العسكرية الإسلامية، وفيها لمحات من سير القادة الذين طبقوا تلك العقيدة عمليًا.

وهناك المصادر الجغرافية القديمة المعتمدة، وهي تعين على تفهم أماكن المواقع الحربية .

وتصفها وصفًا يقربها إلى القراء جهد المستطاع، وعلى رأس تلك المصادر: معجم البلدان لياقوت الحموي.

والذي نتوخاه من دراسة المصادر المعتمدة كافة ، هو كتابة العقيدة العسكرية الإسلامية بأسلوب سهل مبسط بعيد عن التعقيد، مع إدخال المصطلحات العسكرية الحديثة، بعد تثبيت المصطلحات الفقهية القديمة، لأنها من تراث العرب والمسلمين الذين ينبغي أن يحافظوا عليه ويعتزوا به، وكمثال على ذلك، فإذا الجهاد يكون (فَرْضَ عَيْن) وهو النفير العام، أو (فرض كِفَاية)، وهو النفير الخاص، بموجب المصطلحات العسكرية الحديثة، وذكر هذه المصطلحات يقربها إلى أفهام العسكريين خاصة والقراء عامة، مع إبقاء المصطلحات الفقهية القديمة في المتن.

والهدف الحيوي من إعادة كتابة: العقيدة العسكرية الإسلامية، هو إعادة تدريسها في المدارس والمعاهد والكليات العسكرية الإسلامية، فقد طال تخلي العرب والمسلمين عن عقيدتهم العسكرية الإسلامية المستمدة من دينهم الحنيف وقد آن لهم أن يعودوا إليها من جديد.

إن العرب والمسلمين يريدون أن يستعيدوا الأرض المقدسة في فلسطين، ويريدون أن يستعيدوا القدس والمسجد الأقصى، ويريدون أن يدافعوا عن حقوق المسلمين المغتصبة في كثير من أرجاء العالم.

ولن يستطيعوا استعادة الأرض المقدسة والحقوق المغتصبة ويدافعوا عن العقيدة والأرض والعِرض إلا بالجهاد الإسلامي.

وهذا الجهاد غير وارد في العقيدتين العسكريتين الشرقية والغربية، بل تقف هاتان العقيدتان المستوردتان منه موقف الرفض، والعداء!

والعقيدة العسكرية الإسلامية، هي العقيدة الوحيدة التي تأمر بالجهاد، وتنهى عن تركه، وتعلم أسسه ومبادئه، وتخرج المجاهدين الصادقين.

والعود الأحمد إلى هذه العقيدة، هو طريق النصر والعزة والمجد وإلاّ فكيف ننتصر بدونها!!!

الباب الثاني

معارك إسلامية خالدة

الفصل الأول : الغزوات في عهد الرسول ﷺ

الفصل الثاني: معارك إسلامية من عهد الخلفاء الراشدين

الفصل الثالث : معارك إسلامية غير خريطة العالم

الفصل الرابع : نصر العاشر من رمضان، السادس من أكتوبر ١٩٧٣م

الفصل الأول

الغزوات في عهد الرسول ﷺ

(١)

غزوة بدر الكبرى يوم الفرقان [١]

خلال سنين الإسلام الأولى وقعت ٢٨ غزوة في عهد النبي ﷺ، وحدثت هذه الغزوات خلال ٨ سنوات من سنة ٢ هجرية إلى سنة ٩ هجرية، وتعد غزوة بدر الكبرى أول معركة في الإسلام قامت بين الحق والباطل؛ لذلك سميت يوم الفرقان، ووقعت في رمضان بالسنة الثانية من الهجرة، وكانت البداية حينما خرج المسلمون للقاء قافلة أبو سفيان ولم يكونوا خارجين للقتال، ولكن الله أراد لهم النصرة والعزة للإسلام واستئصال شوكة الكفر.

عندما هاجر الرسول والمسلمون إلى المدينة شرعوا في تكوين دولتهم الوليدة وسط مخاطر كثيرة وتهديدات متواصلة من قوى الكفر والطغيان في قريش التي ألبت العرب كلهم على المسلمين في المدينة، وفي هذه الظروف الخطيرة أنزل الله تعالى الإذن بالقتال للمسلمين لإزاحة الباطل وإقامة شعائر الإسلام.

واتبع الرسول ﷺ سياسة حكيمة في القتال تقوم أساسًا على إضعاف القوة الاقتصادية لقريش بالإغارة على القوافل التجارية المتجهة للشام، وبالفعل انطلقت شرارة السرايا بسرية سيف البحر في رمضان ١ هـ بقيادة حمزة بن عبد المطلب وتوالت السرايا والتي اشترك في بعضها الرسول بنفسه، مثل: الأبواء وبواط، حتى كانت غزوة ذي العشيرة عندما جاءت الأخبار للرسول بأن عيرًا لقريش يقودها أبو سفيان بن حرب قد خرجت إلى الشام فخرج يطلبها ففاتته إلى الشام فرجع المدينة وهو ينتظر عودتها من الشام ليأخذها..

(١)جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة " ٤ " – عرض / ربيع سكر – ١٢ يوليو ٢٠١٣ ... نقلا عن موقع مفكرة الإسلام وموقع قصة الإسلام للدكتور راغب السرجاني.

وكان الرسول ﷺ يعتمد على سياسة بث العيون وسلاح الاستخبارات لنقل الأخبار بحركة القوافل التجارية وقد نقلت له العيون بأن القافلة راجعة من الشام محملة بثروات هائلة تقدر بألف بعير فندب الرسول الناس للخروج لأخذ هذه القافلة فتكون ضربة قاصمة لقريش ولم يعزم على أحد فاجتمع عنده ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا معظمهم من الأنصار،ويقال: إن هذا العدد هو عدد جند طالوت الذين عبروا معه النهر ولم يشربوا منها المذكورة قصتهم في سورة البقرة، ولم يكن سوى فارسين الزبير والمقداد والباقي مشا هو كل ثلاثة يتعاقبون على بعير واحد وخرجوا وهم يظنون أنهم لا يلقون حربًا كبيرة وأرسل الرسول رجلين من الصحابة يتجسسان له أخبار القافلة.

الخبر يصل إلى قريش:

كان أبو سفيان قائد القافلة في غاية الذكاء والحيطة والحذر وكان يتحسس الأخبار ويسأل من لقي من الركبان حتى عرف بخروج الرسول والصحابة لأخذ القافلة فاستأجر رجلًا اسمه ضمضم بن عمرو الغفاري وكلفه بالذهاب إلى قريش ليستنفرها لنجدتهم، وفي هذا الوقت كانت عاتكة بنت عبد المطلب عمة النبي قد رأت رؤيا بهذا المعنى وانتشر خبرها في قريش وسخر منها الناس، على رأسهم أبو جهل لعنه الله، ولكن سرعان ما بان تأويل الرؤيا وعرفت قريش بحقيقة الخبر فثاروا جميعًا وأسرعوا للإعداد لحرب المسلمين،وخرج من كل قبائل العرب رجال سوى قبيلة بني عدي حتى بلغ الجيش المكي ألف وثلاثمائة ومعهم مائة فارس وستمائة درع، ولما أجمعوا على المسير خافوا من غدر قبائل بني بكر وكانت بينهما عداوة وحرب، فتبدى لهم إبليس لعنه الله في صورة سراقة بن مالك سيد بني كنانة وقال لهم: "أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه".

العير تفلت:

استخدم أبو سفيان ذكائه وحذره الشديد حتى استطاع أن يعرف موقع جيش المسلمين بـ بدر ويحول هو خط سير القافلة نحو الساحل غربًا تاركًا الطريق الرئيسي الذي يمر ببدر على اليسار،وبهذا نجا بالقافلة وأرسل رسالة للجيش المكي بهذا المعنى، فهمّ الجيش بالرجوع ولكن فرعون هذه الأمة أبو جهل صدهم عن ذلك، ولكن قبيلة بني زهرة بقيادة الأخنس بن شريق عصوه ورجعوا ولم يشهدوا غزوة بدر.

المجلس الاستشاري:

لم يكن يظن المسلمون أن سير الحرب سيتحول من إغارة على قافلة بحراسة صغيرة إلى صدام مع جيش كبير مسلح يقدر بثلاثة أضعاف جيشهم، فعقد الرسول ﷺ مجلسًا استشاريًّا مع أصحابه ليعرف استعدادهم لمواصلة الحرب المقبلة، وعرض عليهم مستجدات الأمر، وشاورهم في القضية، فقام أبو بكر وعمر والمقداد فتكلموا وأحسنوا، وبينوا أنهم لا يتخلفون عن رسول الله ﷺ أبدًا، ولا يعصون له أمرًا، فأعاد الرسول ﷺ الأمر، وقال: "أشيروا عليّ أيها الناس"..

وكان يريد بذلك الأنصار ليتعرف استعدادهم لذلك، فقال سعد بن معاذ: "والله لكأنك تريدنا يا رسول الله!" قال: "أجل"،قال: "فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة؛ فامض يا رسول الله لما أردت؛ فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوًّا غدًا، وإنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء، ولعل الله يريك مناما تقرّبه عينك، فسر بنا على بركة الله"، فسر الرسول ﷺ بما قاله المهاجرين والأنصار، وقال: "سيرواوأبشروا؛ فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين".

قبل غزوة بدر:

تحرك الرسول ﷺ واختار مكانًا للقتال أشار الحباب بن المنذر بتعديله ليسهل على المسلمين التحكم في مصدر المياه، وإن كانت هذه الرواية ضعيفة إلا إنها منتشرة بأسانيد كثيرة في كتب السيرة والتاريخ.

الصحابة يأسرون غلامين من جيش قريش، والرسول ﷺ يستجوبهما ليعرف عدد الجيش ومن على رأسه فيتضح أن الجيش قرابة الألف، على رأسه سادة قريش وكبرائها.

أرسل الله مطرًا من عنده، فنزل بردًا وسلامًا وتثبيتًا على المسلمين،ووابلًا ورجزًا على الكافرين، وقد كان الشيطان قد أصاب المسلمين أثناء نومهم، فاحتلم منهم الكثير، فنزل المطر فطهرهم بذلك.

عندما نزل المسلمون في مقرهم اقترح سعد بن معاذ بناء مقر لقيادة النبي ﷺ استعدادًا

للطوارئ؛ فبنى المسلمون عريشًا للنبي ﷺ ودخل معه في العريش لحراسته أبو بكر الصديق لذلك كان علي بن أبي طالب يقول: "أبو بكر أشجع الناس على الإطلاق بعد النبي ﷺ"، وأقام سعد بن معاذ كتيبة لحراسة العريش مقر القيادة.

قضى الرسول ﷺ ليلة في الصلاة والدعاء والتبتل والتضرع لله وقد عبأ جيشه ومشى في أرض المعركة وهو يقول: "هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان إن شاء الله غدًا"، وقد استبشر الناس بالنصر.

أما الجيش المكي فقد وقع في صفهم انشقاق بدأ عندما طلبوا من عمير بن وهب الجمحي أن يدور دورة حول المعسكر الإسلامي ليقدر تعداده، فدار دورة واسعة أبعد فيها ليتأكد من عدم وجود كمائن للجيش الإسلامي، ثم عاد فقال لهم: "عددهم ثلاثمائة رجل، ولكني رأيت يا معشر قريش المطايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم؛ فوالله ما أرى أن يُقتل رجل منهم حتى يقتل رجلًا منكم".

وهنا دبَّ الرعب في قلوب الكافرين وقامت حركة معارضة بقيادة حكيم بن حزام الذي أقنع عتبة بن ربيعة أن يتحمل دية عمرو بن الحضرمي المقتول في سرية نخلة رجب ٢هـ، ولكن فرعون الأمة الذي كان يسعى لحتفه بظلفه أفسد هذه المعارضة، وأثار حفائظ عامر بن الحضرمي، فقال: "هذا حليفك، أي عتبة، يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فانشد خفرتك ومقتل أخيك"، فقام عامر وكشف عن استه، وصرخ قائلًا:"واعمراه واعمراه"، فحمي الناس وصعب أمرهم واستوثقوا على ما هم عليه من الشر".

اندلاع غزوة بدر:

كان أول وقود المعركة (غزوة بدر) الأسود بن عبد الأسد المخزومي التي وردت بعض الآثار أنه أول من يأخذ كتابه بشماله يوم القيامة وكان رجلًا شرسًا سيئ الخلق أراد أن يشرب من حوض النبي ﷺ فقتله حمزة بن عبد المطلب قبل أن يشرب منه، ثم خرج ثلاثة من فرسان قريش هم عتبة وولده الوليد وأخوه شيبة وطلبوا المبارزة، فخرج ثلاثة من الأنصار فرفضوهم، وطلبوا مبارزة ثلاثة من المهاجرين، فأمر النبي ﷺ عبيدة بن

الحارث وحمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وكانوا أقرب الناس للنبي ﷺ واستطاع المسلمون قتل الكافرين.

استشاط الكافرون غضبًا لمقتل فرسانهم وقادتهم فهجموا على المسلمين هجمة رجل واحد ودارت رحى حرب طاحنة في أول صدام بين الحق والباطل وبين جند الرحمن بقيادة الرسول ﷺ، وجند الشيطان بقيادة فرعون الأمة أبو جهل، والرسول ﷺ قائم يناشد ربه ويتضرع ويدعو ويبتهل، وقال: "اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم"،ويبالغ الاجتهاد والتضرع حتى سقط رداؤه عن منكبيه.

أغفى رسول الله إغفاءة واحدة ثم رفع رأسه، فقال: "أبشر يا أبا بكر، هذا جبريل على ثناياه النقع"، فلقد جاء المدد الإلهي ألف من الملائكة يقودهم جبريل، فخرج رسول الله ﷺ من باب العريش وهو يثب في الدرع ويقول: "سيهزم الجمع ويولون الدبر"، ثم أخذ حفنة من الحصى فاستقبل بها قريش، وقال: "شاهت الوجوه!"، ورمى بها في وجوههم فما من المشركين من أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه.

مواقف خالدة:

قام الرسول ﷺ يحرض المسلمين على القتال، فقال لهم: "والذي نفسي بيده لا يقاتلنهم اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة، قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض"، فقال عمير بن الحمام: "لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه، إنها لحياة طويلة"، فرمى بما كان معهمن التمر ثم قاتلهم حتى قُتل رحمه الله.

سأل عوف بن الحارث رسول الله ﷺ فقال: "يا رسول الله ما يضحك الرب من عبده؟"، قال الرسول ﷺ: "غمسه يده في العدو حاسرا"،فنزع عوف درعًا كانت عليه، ثم أخذ سيفه فقاتل حتى قتل.

جاء غلامان صغيران هما معاذ بن عمرو ومعوذ بن عفراء، وظلا طوال القتال يبحثان عن أبي جهل لأنهما أقسما أن يقتلاه؛ لأنه سب رسول الله ﷺ، وبالفعل وصلاإليه حتى قتلاه، وقام ابن مسعود بحز رأسه وحملها للنبي ﷺ الذي قال عندما رآها: "الله أكبر والحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، هذا فرعون هذه الأمة".

ضرب الصحابة أروع الأمثلة في الاستعلاء بإيمانهم وعقيدتهم، وبينوا لنا كيف تكون

عقيدة الولاء والبراء، فلقد قتل أبو عبيدة بن الجراح أباه وقتل عمر بن الخطاب خاله وهمَّ أبو بكر أن يقتل ولده عبد الرحمن، وأخذ أبو عزيز أسيرًا في المعركة، فأمر أخوه مصعب بن عمير بشد وثاقه وطلب فدية عظيمة فيه.

نهاية غزوة بدر:

استمرت المعركة الهائلة والملائكة تقتل وتأسر من المشركين، والمسلمون يضربون أروع الأمثلة في الجهاد في سبيل الله والدفاع عن دينهم ورسولهم حتى انتهت المعركة بفوز ساحق للمسلمين بسبعين قتيلًا وسبعين أسيرًا، ومصرع قادة الكفر من قريش ، ونزل خبر هزيمة المشركين في غزوة بدر كالصاعقة على أهل مكة، حتى إنهم منعوا النياحة على القتلى؛ لئلا يشمت بهم المسلمون، فحين جاءت البشرى لأهل المدينة فعمتها البهجة والسرور، واهتزت أرجاؤها تهليلًا وتكبيرًا، وكان فتحًا مبينًا ويومًا فرق الله به بين الحق والباطل.

شباب الصحابة كان لهم دور عظيم في غزوة بدر [(١)]

يقول الباحث الإسلامي علي أحمد علي :الحديث عن بدر وأهل بدر حديث عن التضحية والبطولة والفداء، وغزوة بدر مفخرة من مفاخرنا، وصفحة مشرقة في تاريخنا، ومجد رائع من أمجادنا، وذكراها يذكِّر الأحفاد بروائع الأجداد.

غزوة بدر تذكِّر المسلمين بشدة بأسهم وقوة إيمانهم، وعمق محبتهم لدينهم ونبيهم، كانت غزوة بدر تحولًا في تاريخ الإسلام، وبدءًا لعهد جديد عهد المصاولة والدفاع، عهد التضحية والفداء، عهد مقارعة السيف بالسيف، والذود بالقوة عن مبادئ الإسلام ورسالة الإسلام، قال الشاعر:

من رقة الأصنام والأوثان	كانت على الإسلام بدء تحرر
والسيف فيها ساطع البرهان	الحق فيها بالحقيقة ناطق
حلق الحديد وألسن النيران	لا خير في حق إذا لم يحمه
صانته قوته من العدوان	من لم يصنه من العداوة

(١)جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة " ٥ " – عرض / ربيع سكر – ١٤ يوليو ٢٠١٣

كان دور الشباب في غزوة بدر عظيًا رائعًا يستحق العناية والتسجيل، يقف الإنسان أمام عظمة هذا الشباب وقفة إجلال وإكبار.

عجيب أمر هذا الشباب وقد كشرت لهم الحوادث عن أنيابها، وصبت عليهم قريش نيرانها، فما ضعفوا وما استكانوا.

نحن لا نفضل شباب بدر على شيوخها، فلكل منزلته ودرجته، للشباب جرأتهم وإقدامهم، وللشيوخ نصيحتهم وتربيتهم وحسن توجيههم وترجيح العقل على العاطفة.

كل من اشترك في بدر يستحق الدراسة والتأمل، حسبهم أن الله رفع ذكرهم وغفر ذنبهم، صدقوا الله في اللقاء فمنهم من أكرمه الله بالشهادة ففاز بخير الدنيا والآخرة، ومنهم من طال به العمر فما غيَّر ولا بدَّل، وصدق الله العظيم إذ يقول: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} [الأحزاب: ٢٣].

في هذه العجالة لا نخص شباب بدر، ولكننا نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

١ - علي بن أبي طالب: كان -رضي الله عنه- سهمًا من سهام الإسلام، وسيفًا مسلولًا من أسيافه، يدوخ الجيوش ويحاصر المدن، ويلقي الرعب في قلوب الأعداء. كان -رضي الله عنه- من الرجال الذين لا تهزهم قواصم المحن، ولا ترهبهم ملاقاة الرجال، ولا يفت في عضدهم السيف، اشترك في جميع المعارك، وكان يخوضها غير هيَّاب ولا وجل.

وفي غزوة بدر كان صاحب راية رسول الله ﷺ..

- بعثه الرسول ﷺ مع الزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص إلى ماء بدر يلتمسون له الخبر، فأتوا بأسيرين قدموهم لرسول الله ﷺ.

- عندما بدأت المعركة خرج عقبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة، ودعوا إلى المبارزة، فخرج إليهم رجال من الأنصار، فرفضوا قتالهم، وطلبوا من رسول الله ﷺ حمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث وعلي بن أبي طالب.

- وانتصر المسلمون، وتخضبت الأرض بدماء المشركين، فكان أول الغيث، والضربة الأولى نصف المعركة.

٢- عمير بن أبي وقاص: يعجب الإنسان وهو يطالع تاريخ هذا الشباب، كيف استطاعوا أن يحولوا مجرى التاريخ، وأن يسطروا أروع سطوره، ويشيدوا أضخم صرح شيدته الإنسانية قام على الإيمان والتقى!!

هؤلاء الشباب الذين لاقوا السيوف بصدورهم، والنبال بنحورهم، وكان الموت أحب إليهم من الحياة، وهذا شاب أكرمه الله بالشهادة، شاب سما الإيمان في قلبه، فاستهان بالحياة وأقبل على الموت بثغر باسم وصدر منشرح. ولنستمع إلى قصته من أقرب الناس إليه، قال سعد بن أبي وقاص ﷺ: رأيت أخي عميرًا يتوارى عن الناس، فقلت: ما لك يا أخي؟ قال: أخشى أن يراني رسول الله ﷺ فيستصغرني فيردني، وأنا أحب الخروج لعل الله أن يرزقني بالشهادة!! فلما رآه الرسول ﷺ استصغره فرده، فبكى، وتوسل إلى رسول الله ﷺ فأجازه. يقول سعد بن أبي وقاص ﷺ: فكنت أعقد له حمائل سيفه لصغر سنِّه، فقاتل وقُتل وسنُّه يومئذ ١٦ سنة.

جدير بشبابنا أن يقف أمام هذه النماذج الرائعة، وأن يقلب صفحات هذا التاريخ المشرق؛ ليأخذ منه العظة والعبرة والقدوة الصالحة، وليرى كيف كان الشباب يفتح البلاد ولم يبلغ العشرين من عمره، ويقود الجيوش وما خطّ له شارب، ويأتي بما يشبه المعجزات وما يزال غض الإهاب.

٣- مصعب بن عمير: شاب في زهرة الشباب وميعة الصبا، عريض الأمل، واسع الرجاء، تجري الحياة في عروقه، يطوي مباهج الحياة، ويغضي عن زهرة الدنيا، ويضرب المثل الكريم للشجاع الأبي، ولا عجب إنها تربية النبوة وغرس الإسلام وشمائل الدين الحنيف.

ولد مصعب بن عمير في بيت من بيوت سراة عبد الدار، وشبَّ بين الترف واللهو، كان أعطر أهل مكة وأجملهم، يفيض تيهًا ودلالًا، يمر بين أحياء مكة فترمقه عيون فتيانها، ويسترعى منظره ساكنيها.

كان -ﷺ- من الرعيل الأول، أسلم والدعوة في مهدها في دار الأرقم بن أبي الأرقم، فأصابه شظف العيش ولأواء الحياة، وجهد جهدًا شديدًا حتى بدا عليه الضعف والهزال، فلم يضق بالحياة بل تحمل ذلك صابرًا أجمل صبر.

يقول ابن عبد البر في الاستيعاب: كان مصعب بن عمير فتى مكة شبابًا وجمالًا وتيهًا، وكان أبواه يحبانه، وكانت أمه تكسوه أحسن ما يكون من الثياب.

أوذي مصعب، وتبدَّل حاله من نعيم إلى بؤس، ومن غنى إلى فقر، ومن ملبس فاخر وركاب مرفه إلى ثوب مرقوع!!

يقول الإمام علي بن أبي طالب ﷺ: جئت إلى رسول الله ﷺ فجلست إليه في المسجد وهو مع عصابة من أصحابه، فطلع علينا مصعب بن عمير في بردة مرقوعة بفروة غنم، وكان أنعم غلام بمكة، وأرفههم عيشًا، فلما رآه النبي ﷺ ذكر ما كان فيه من النعم، ورأى حالته التي هو عليها، فذرفت عينا رسول الله ﷺ فبكى، قال عمر بن الخطاب ﷺ: فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «انظروا إلى هذا الذي نوَّر الله قلبه، لقد رأيت ه بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب، ولقد رأيت عليه حلة اشتراها بمائتي درهم، فدعاه حب الله وحب رسوله إلى ما ترون».

لما جاء وفد المدينة في موسم الحج، وعرض عليهم الرسول ﷺ الإسلام فأسلموا، طلبوا من رسول الله ﷺ أن يرسل معهم من يفقههم في الدين، ويُقرِئهم القرآن، فلم يجد الرسول ﷺ أمامه لهذه المهمة إلا مصعب بن عمير، فكان أول مبعوث لرسول الله ﷺ خارج مكة، وكان مصعب -ﷺ- صالحًا: فأثمرت دعوته، مخلصًا: فالتقى الناس حوله، كان يُسمَّى «المقرئ» و«مصعب الخير»، وتتابعت حياته في صحائف ناصعة في التاريخ الإسلامي، وأُعلن الجهاد فحمل السيف مدافعًا عن دعوه الإسلام، ولكن الحياة لم تطل به، فقد استشهد في أُحد ﷺ.

وجاءت غزوة بدر وكانت خيرًا وبركة على المسلمين، قتل المسلمون فيها من قتلوا، وأسروا من أسروا، وغنموا ما غنموا، وكان في الأسرى عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير وشقيقه، وكان موقف مصعب المؤمن من أخيه المشرك موقف المؤمن الذي لا يعرف إلا الإسلام رابطة.

قيل: إنه كان صاحب اللواء يوم بدر.

قال الطبري: إن رسول الله ﷺ حين أقبل بالأسارى، فرَّقهم في أصحابه وقال: «استوصوا بالأسارى خيرًا». قال: وكان أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير لأبيه

وأمه في الأسارى -وكان الذي أسره يسمى أبا اليسر- قال أبو عزيز: مر بي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني، فنظر إليه أبو عزيز، فقال مصعب لمن أسر أخاه: شد يديك به؛ فإن أمه ذات متاع، لعلها أن تفديه منك.

٤- أبناء عفراء: ربَّى الإسلام الشباب تربية عظيمة، وتعهده بالعناية والرعاية، تعهده منذ نعومة أظفاره، فشبَّ على العزة والكرامة والتضحية، شب في أحضان الإسلام مصونًا من أقذار الجاهلية، نظيفًا من أدران الوثنية.

إن أهل بدر لم يقاتلوا طمعًا في مال، ولا رغبة في جاه، ولا طلبًا للرئاسة، ولا حبًّا للدنيا، إنما عملوا لله وفي سبيل الله، فنصرهم الله {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصر الْمُؤْمِنِينَ} [الروم: ٤٧].

يعجب الإنسان من أمر هذا الشباب فيتساءل: في أي مدرسة درجوا؟ وفي أي معهد درسوا؟ وفي أي جامعة تخرجوا؟

هؤلاء الذين انقضوا على أعدائهم كالصواعق المحرقة، أو الريح المدمرة، إيمانهم في قلوبهم، يتقدم أحدهم لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه.

عن عبد الرحمن بن عوف قال: إني لواقف يوم بدر في الصف، فنظرت عن يميني وشمالي فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، فتمنيت أن أكون بين أطلع منهما، فغمزني أحدهما فقال: يا عم، أتعرف أبا جهل؟ قلت: نعم، وما حاجتك به؟ قال: أُخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ، والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا. فتعجبت لذلك، فغمزني الآخر فقال لي أيضًا مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل وهو يجول في الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكم الذي تسألان عنه. فابتدراه بسيفهما حتى قتلاه! ثم انصرفا إلى النبي ﷺ فأخبراه، فقال: «أيكما قتله؟» فقال كل منهما: أنا قتلته. قال: «هل مسحتما سيفيكما؟» قالا: لا. قال: فنظر النبي ﷺ في السيفين فقال: «كلاهما قتله». فقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح، والآخر معاذ بن عفراء[٥].

وقال صاحب الفتح: وهما معاذ بن الجموح، ومعاذ بن عفراء. ثم قال: وعفراء والدة معاذ، واسم أبيه: الحارث. وأما ابن عمرو بن الجموح فليس اسم أمه عفراء، وإنما أطلق عليه تغليبًا.

إن غزوة بدر هزت المشركين واليهود والمنافقين هزًّا عنيفًا: قلبت أوضاعهم، وحطمت قوائمهم، وجعلتهم يراجعون تفكيرهم.

إن غزوة بدر كانت المقدمة لانتشار الإسلام في جزيرة العرب، بل مقدمة لتلك الإمبراطورية الإسلامية التي امتدت من أقصى بلاد الأندلس غربًا إلى حدود الصين شرقًا.

القيم الحضارية في غزوة بدر(1)

كثيرة هي تلك القيم الحضارية التي ظهرت في غزوة بدر كأحداث رئيسية في هذه المعركة.. تلك المعركة التي لم تكن في حسبان جيش المسلمين الذين خرجوا لمطاردة صفقة تجارية لقريش قادمة من الشام يقودها أبو سفيان بن حرب، كمحاولة جديدة لاسترداد بعض أموال المسلمين التي صادرتها قريش! ولكن قضى الله أمرًا غير الذي أراده المسلمون، فقد استطاع أبو سفيان أن يفلت بالقافلة، بعدما أرسل إلى مكة من يخبر قريشًا بالخبر غير الذي أراده المسلمون، فغضب المشركون في مكة، فتجهزوا سراعًا، وخرجوا في ألف مقاتل.. أما أبو سفيان فقد أرسل إلى قيادات مكة مَن يخبرهم بأن القافلة قد نجت، وأنه لا داعي للقتال، وحينئذٍ رفض أبو جهل إلا المواجهة العسكرية.

دروس وعبر من وقعة بدر :

يقول الكاتب الإسلامي الدكتور ناصر العمر: لقد كانت معركة بدر بداية لعهد انتصارات وفتوحات، حسب للمسلمين بعدها ألف حساب. وما رئي الشيطان أذل ولا أحقر من يوم بدر، وقد سماها الله تعالى في كتابه الكريم (يوم الفرقان). وبمناسبة ذكراها لنا معها هذه الوقفات:

- رمضان هو شهر الجهاد ففيه كانت أولى معارك الإسلام:

- قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، والشكر ليس باللسان فقط، بل تحقيق التقوى مهم لتحقيق الشكر. وقد روي أن عمر بن الخطاب ، سأل أبيّ بن كعب عن التقوى، فقال له: أما سلكت طريقًا ذا

(١) جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة " ٦ " – عرض / ربيع سكر – ١٥ يوليو ٢٠١٣ ... نقلا عن موقع رابطة العلماء السوريين،وموقع إسلام أون لاين

شوك؟ قال: بلى. قال: فما عملت؟ قال: شمرت واجتهدت. قال: فذلك التقوى.

- حرص النبي على الشورى رغم أنه مسدد بالوحي، بل إلحاحه في معرفة رأي كل الأطراف لئلاّ يكرههم على معركة لم يتأهبوا لها

- الكفار خرجوا يريدون القتال، والمسلمون خرجوا يريدون العير، ومع ذلك انتصر الإيمان على العتاد

- النبي كان يستعين بالدعاء في مكة، وكان يستعين به في المدينة، لكن لم ينقل لنا مثل دعائه وإلحاحه وهو متأهب لقتال الكفار يوم بدر، فقد استفرغ وسعه، وأخذ بالأسباب، ودعا رب الأرباب ومسبب الأسباب. وكذلك كان السابقون الصالحون: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾[البقرة: ٢٥٠]، تأهبوا للقتال، وأعدوا العُدَّة، واستعانوا بربهم. ونحن الآن نرى المساجد ترتج بالدعاء للمستضعفين، وقليل من هؤلاء الذين يدعون ويؤمِّنون من يسعى لنصرة إخوانه وإعانتهم، فالله المستعان وعليه الجهد والتكلان. المصدر: الدكتور ناصر العمر - موقع المسلم.

وفيما يلي نقف -سريعًا- على بعض القيم الحضارية المستفادة من غزوة بدر كما جاء في دراسة لرابطة العلماء السوريين:

مشاركة القائد جنوده في الصعاب:

عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: كنا يوم بدر، كل ثلاثة على بعير، فكان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله ، قال: فكان إذا جاءت عُقْبَة رسول الله قالا: نحن نمشي عنك. فقال: «ما أنتما بأقوى مني، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما».

الشورى:

ففي وادي ذَفِرَانَ بلغ النبي نجاة القافلة، وتأكد من حتمية المواجهة العسكرية مع العدو.. فاستشار الناس ووضعهم أمام الوضع الراهن، إما ملاقاة العدو، وإما الهروب إلى المدينة.. فقال لجنوده: «أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ»، وما زال يكررها عليهم، فيقوم الواحد تلو الآخر ويدلو بدلوه، فقام أبو بكر فقال وأحسن. ثم قام عمر فقال وأحسن. ثم قام

الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو فقال وأحسن.. حتى قام القيادي الأنصاري البارز سعد بن معاذ، فحسم نتيجة الشورى لصالح الحل العسكري.

النهي عن استجلاب المعلومات بالعنف:

وهذا مظهر آخر من المظاهر الحضارية في السيرة، فقد حذر رسولنا من انتزاع المعلومات بالقوة من الناس؛ ففي ليلة معركة بدر بَعَثَ النبي عَلِيَّ بْنَ أَبِي طالب فِي مفرزة إلى ماء بدر في مهمة استخباراتية لجمع المعلومات، فوجدوا غلامين يستقيان للمشركين، فأَتَوْا بِهِمَا فَسَأَلُوهُمَا، وَرَسُولُ اللهِ يُصَلِّي، فقالا: نَحْنُ سُقَاةُ قُرَيْشٍ. فطفق الصحابة يضربوهما، حتى اضطر الغلامان لتغيير أقوالهما. فلما أتم رسول الله صلاته، قال لهما مستنكرًا: «والذي نفسي بيده، إنكم لتضربونهما إذا صدقا وتتركونهما إذا كذبا.. إذا صَدَقَاكُمْ ضربْتُمُوهُمَا، وَإِذَا كَذَبَاكُمْ تَرَكْتُمُوهُمَا! صَدَقَا، وَاللهِ إِنَّهُمَا لِقُرَيْشٍ».

هكذا كانت معاملة القيادة الإسلامية لمن وقع في قبضة المخابرات الإسلامية للاستجواب، فنهى القائد عن تعذيب المستجوَب، أو انتزاع المعلومات منه بالقوة، فسَبَقَ اتفاقية جنيف الثالثة لعام ١٩٤٩م التي تحظر إجبار الأسير على الإدلاء بمعلومات سوى معلومات تتيح التعرف عليه مثل اسمه وتاريخ ميلاده ورتبته العسكرية، وجرَّم رسول الله كل أعمال التعذيب أو الإيذاء أو الضغط النفسي والجسدي التي تمارس على الأسير ليفصح عن معلومات حربية.

وثمة تقدم إسلامي على هذه الاتفاقات الأخيرة، فرسول الله قد طبق هذه التعاليم التي تحترم حقوق الأسير، بيد أن دول الغرب في العصر الحديث لم تُعِرْ اهتمامًا لهذه الاتفاقات ولم تحترمها، والدليل على ذلك ما يفعله الجنود الأمريكيون في الشعب العراقي والأفغاني.. وما يفعله الصهاينة في الشعب الفلسطيني.

احترام آراء الجنود:

لما تحرك رسول الله إلى موقع المعركة، نزل بالجيش عند أدنى بئر من آبار بدر من الجيش الإسلامي، وهنا قام الْحُبَاب بن الْمُنْذِرِ، وأشار على النبي بموقع آخر أفضل من هذا الموقع، وهو عند أقرب ماء من العدو، فقال له رسول الله -مشجعًا-: «لَقَدْ أَشَرتَ بِالرَّأْيِ». وبادر النبي بتنفيذ ما أشار به الحباب، ولم يستبد برأيه برغم أنه القائد الأعلى، وعليه ينزل الوحي من السماء!

العدل بين القائد والجندي:

قلما نرى في تاريخ الحروب صورة تعبر عن العدل بين القادة والجنود، فالتاريخ الإنساني حافل بصور استبداد القادة العسكريين وظلمهم للجنود.. أما محمد فنراه في أرض المعركة يقف أمام جندي من جنوده لَيَقتص الجندي منه.. أما الجندي فهو سَوَاد بن غَزِيّة، لما اسْتَنْتَل من الصف، غمزه النبي غمزة خفيفة في بَطْنِهِ -بالسهم الذي لا نصل له- وقال: «استوِ يا سواد». قال: يا رسول الله، أوجعتني! وقد بعثك الله بالحق والعدل؛ فَأَقِدْنِي. فكشف رسول الله عَنْ بَطْنِهِ، وَقَالَ: «اسْتَقِدْ». فَاعْتَنَقَهُ فَقَبَّلَ بَطْنَهُ! فقال النبي: «مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا يَا سواد؟» قال: حضر ما ترى، فَأَرَدْتُ أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك! فدعا له رسول الله بخير.

الحوار قبل الصدام:

أراد النبي أن يستنفد كل وسائل الصلح والسلام قبل أن يخوض المعركة، فما أُرسل إلا رحمة للعالمين، فأراد أن يبادر بمبادرة للسلام ليرجع الجيشان إلى ديارهما، فتُحقن الدماء، أو ليقيم الحجة على المشركين، فلما نَزَلَ الجيش الوثني أرض بدر أَرْسَلَ رسولُ الله عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ إلى قُرَيْشٍ، وقد كان سفيرهم في الجاهلية، فنصحهم عمر بالرجوع إلى ديارهم حقنًا للدماء.. فتلقفها حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ أحد عقلاء المشركين، فقال: قد عَرَضَ نصْفًا، فَاقْبَلُوهُ، والله لا تُنْصرونَ عليه بعد ما عرض من النَّصْفِ. فقال أبو جهل: والله لا نرجع بعد أن أمكننا الله منهم.

الوفاء مع المشركين:

فقد قال النَّبِي في أُسَارَى بدر: «لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلاءِ النَّتْنَى، لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ»!!

وذلك لأن المطعم قد أدخل النبي في جواره فور رجوعه من الطائف إلى مكة، وفي الوقت الذي تخلى فيه الناس عن حماية النبي خوفًا من بطش أبي جهل، قال المطعم: يا معشر قريش، إني قد أجرت محمدًا فلا يهجه أحد منكم.. وقد حفظ النبي للمطعم هذا الصنيع وهذه الشهامة.

وقال النبي في هذا اليوم أيضًا: «مَنْ لَقِيَ أَبَا الْبَخْتَرِيّ بْنَ هِشَامِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ أَسَدٍ فَلا يَقْتُلْهُ، وَمَنْ لَقِيَ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَلا يَقْتُلْهُ؛ فَإِنَّهُ إنما أُخْرِجَ مُسْتَكْرَهًا».

وقد كان العباس في مكة بمنزلة قلم المخابرات للدولة الإسلامية، وقد كان مسلمًا يكتم إيمانه.. أما أبو الْبَخْتَرِي فقد كان أكف المشركين عن المسلمين، بل ساند المسلمين في محنتهم أيام اعتقالهم في الشِّعب، وكان ممن سعى في نقض صحيفة المقاطعة الظالمة، ومن ثَمَّ كانت له يدٌ على المسلمين، فأرد النبي يوم بدر أن يكرمه.

فالقيادة الإسلامية تحفظ الجميل لأصحاب الشهامة، وإن كانوا من فسطاط المشركين.

حفظ العهود:

قال حذيفة بن اليمان: ما منعنا أن نشهد بدرًا إلا أني وأبي أقبلنا نريد رسول الله ، فأخذنا كفار قريش فقالوا: إنكم تريدون محمدًا. فقلنا: ما نريده إنما نريد المدينة. فأخذوا علينا عهد الله وميثاقه لتصيرن إلى المدينة ولا تقاتلوا مع محمد ، فلما جاوزناهم أتينا رسول الله فذكرنا له ما قالوا وما قلنا لهم فيما ترى؟ قال: «نستعين الله عليهم ونفي بعهدهم»!!

وهذا الموقف من رسول الله يعدُّ من مفاخر أخلاقيات الحروب في تاريخ الإنسانية، فلم ير المؤرخون في تاريخ الحروب قاطبة موقفًا يُنَاظر هذا الموقف الباهر، ذلك الموقف الذي نرى فيه القيادة الإسلامية تحترم العهود والعقود لأقصى درجة، حتى العهود التي أخذها المشركون على ضعفاء المسلمين أيام الاضطهاد، برغم ما يعلو هذه العقود من شبه الإكراه.

إكرام الأسرى:

بعدما أكرم الله الجيش الإسلامي بالنصر، واستوثق المسلمون من الأسرى، فرَّقهم النبي بين أصحابه وقال: «استوصوا بهم خيرًا».

وهذا أبو عزيز بن عمير -أخو مصعب- يحدثنا عما رأى حين أسره المسلمون. قال: كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قَدَّمُوا غداءهم وعشاءهم خَصّوني بالخبز وأكلوا التمر؛ لوصية رسول الله إيَّاهُمْ بِنَا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نَفَحَنِي بِهَا. فَأَسْتَحْيِي فَأَرُدّهَا على أحدهم، فَيَرُدّهَا عَلَيّ ما يَمَسّهَا.

وصدق فيهم قول الله تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان: ٨].

النهي عن المثلة بالأسير:

لما أُسر سُهيل بن عمرو أحد صناديد مكة فيمن أُسر، قال عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، دَعْنِي أَنْزِعْ ثَنِيَّتَيْ سهيل بن عمرو، وَيَدْلَعُ لِسَانَهُ فلا يقوم عليك خطيبًا في موطن أبدًا! وقد كان خطيبًا مفوهًا، يهجو الإسلام. فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ -في سماحةٍ وسمو-: «لا أُمَثِّلُ بِهِ، فَيُمَثِّلُ اللهُ بِي وَإِنْ كُنْتُ نَبِيًّا»[١٣]! فلم يمثل به كما يمثل الهمجيون في قتلى وأسرى الجيش المهزوم، وسنَّ بذلك سنة حسنة في الحروب، ويبقى له الفضل والسبق في تحريم إهانة الأسرى أو إيذائهم. هكذا كان نبي الرحمة في ميدان القتال، يشارك جنوده، ويستشيرهم، ويعدل بينهم، ويحترم آراءهم، ويحاور أعداءه، ويكون وفيًا كريمًا لأهل الفضل منهم، ويكرم الأسرى، وينهى عن إيذائهم.



(٢)

غزوة أحد[1]

كانت غزوة أحد غزوة عظيمة في أحداثها ومجرياتها، عجيبة في آياتها ومعجزاتها، شديدة في ضرائها وابتلاءاتها، غزيرة في عبرها ودروسها. ويقول الباحث الإسلامي إبراهيم بن محمد الحقيل : وقعت غزوة احد في شوال من السنة الثالثة من الهجرة، بعد عام واحد من غزوة بدر التي غَشِيَ المشركين فيها ما غشيهم من هزيمة جيشهم، وقَتْل سادتهم، وذهاب هيبتهم؛ فأجْمَعُوا أمرهم، وجمعوا حلفاءهم، وأعدوا عُدَّتهم، وعزموا على غزو المسلمين في المدينة، والثأر لما أصابهم في غزوة بدر الكبرى؛ فجرت أحداث عظام في هذه الغزوة المباركة، وظهر صدق الإيمان والتضحية والفداء، وابْتُلِيَ المسلمون ابتلاءً عظيمًا؛ حتى رأوا رسول الله ﷺ قد وصل إليه المشركون، ونالوا منه، وكانت الصاعقة الكبرى ما أشيع من قتله عليه الصلاة والسلام، ولكن الله تعالى حَفِظَ نَبِيَّه ﷺ وثبّت قلوب المؤمنين، وتلك من أعظم النعم، وأكبر الآيات والمعجزات التي زخرت بها هذه الغزوة!

لقد أكرم الله تعالى الطائفة المؤمنة في غزوة أحد بآيات عظيمة، وخصَّ نبيه ﷺ بمعجزات باهرة، كانَتْ مُعِينًا للمؤمنين على ثباتهم رغم هزيمتهم، ومقوية لهم في مِحْنَتِهم رغم قلتهم وكثرة عدوهم، ولَمَّا اشتد الكرب على المؤمنين، وقوِيَ كَلَبُ الكافرين، وتمكنوا من رِقَاب المُؤْمِنين، وعظم خوف الصحابة - رضي الله عنهم - من نتائج هذه الغزوة، ودَبَّتِ الفوضى في أوساطهم، ونالهم من التعب ما نالهم، وعلاهم من الغمّ ما علاهم، وغشيهم من الكرب ما غشيهم؛ ألقى الله تعالى عليهم النعاس وهو النوم الخفيف؛ لينسيهم غمّهم، ويزيل تعبهم، ويجدِّد نشاطهم، فكان ذلك كرامة من الله تعالى لهم، وسكينة عليهم﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

---

(١) جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة "٧" – عرض/ ربيع سكر – ١٦ يوليو ٢٠١٣ – نقلا عن موقع شبكة الألوكة.

قال الزبير بن العوام -رضي الله عنه-: «لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ يوم أحد حين اشتدَّ علينا الخوف، وأرسل علينا النوم، فما منا أحد إلا وذقنه في صدره...».

وقال أبو طلحة الأنصاري -رضي الله عنه-: «كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد، حتى سقط سيفي من يدي مرارًا، يسقط وآخذه، ويسقط فآخذه»؛ رواه البخاري.

وفي رِوَاية قال أبو طلحة: «رفعت رأسي يوم أحد فجعلت أنظر، وما منهم يومئذ من أحد إلا يميد تحت جحفته من النعاس؛ فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [آل عمران: ١٥٤]».

كان من آيات الله تعالى في هذه الغزوة، وإكرامه لعباده المؤمنين؛ استجابته تبارك تعالى لدعاء بعضهم، وإعطاءهم ما سألوا؛ كما روى سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه-: «أنَّ عبد الله بن جحش قال له يوم أحد: ألا نَدْعُو الله، فَخَلَوَا في ناحية، فدعا سعد فقال: «يا ربِّ إذا لقيت العدو، فلقّني رجلًا شديدًا بأسه، شديدًا حَرَدُه -أي غضبه- أقاتله فيك ويقاتلني، ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله، وآخذ سلبه، فأمَّن عبد الله بن جحش، ثم قال: «اللهم ارزقني رجلًا شديدًا حرده، شديدًا بأسه، أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يأخذني، فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غدًا، قلت: «يا عبدي، فيم جُدِعَ أنفك وأذنك، فأقول: فيك وفي رسولك، فتقول: صدقت»، قال سعد: «يا بني، كانت دعوة عبد الله بن جحش خيرًا من دعوتي، لقد رأيته آخر النهار وإنّ أنفه وأذنه لمعلقان في خيط»؛ رواه الحاكم، وقال الذهبي: «صحيح مرسل».

ولما دعا أحد المشركين على نفسه بالسوء استجاب الله دعاءه؛ فأصابه العذاب كما روى بريدة -رضي الله عنه-: «أنَّ رجلًا قال يوم أحد: اللهم إن كان محمدًا على الحق فاخسف بي، قال: فخسف به»؛ رواه البزّار.

ومن الآيات العظيمة في غزوة أحد: أنَّ الملائكة حضروها، ودافعوا عن النبي ﷺ كما روى الشيخان من حديث سعد -رضي الله عنه- قال: «رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض كأشدِّ القتال، ما رأيت هما قبل ولا بعد».

وقد ذكر العلماء أنّ الملائكة كانوا لحراسة النبي ﷺ، وأنّ الله تعالى قد وعد المؤمنين بأنّهم

إنْ صبروا واتقوا أمدّهم بخمسة آلاف من الملائكة مسوَّمين، وكان قد فعل، فلما عصوا أمر رسول الله ﷺ وتركوا مصافّهم، وترك الرماة عهد رسول الله ﷺ ألا يبرحوا منازلهم رفع الله عنهم مدد الملائكة، فصدقهم الله وعده، وأراهم الفتح، فلما عصوا أعقبهم البلاء، وبقي من بقي من الملائكة للدفع عن النبي ﷺ وحفظه من العدو.

ومن أعمال الملائكة في أحد: أنّهم غسلوا من كان جُنُبًا من الصحابة -رضي الله عنهم- فقد قال النبي ﷺ في شأن حنظلة ابن أبي عامر: «إنّ صاحبكم تغسله الملائكة فاسألوا صاحبته»، فقالت: «إنه خرج لما سمع الهائعة وهو جُنُب»، فقال رسول الله ﷺ: «لذلك غسلته الملائكة»؛ رواه الحاكم.

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «أُصيب حمزة بن عبد المطلب وحنظلة بن الراهب وهما جنب فقال رسول الله ﷺ: «رأيت الملائكة تغسلهما»»، رواه الطبراني بإسناد حسن.

وأظلّت الملائكة عبد الله بن حرام -رضي الله عنه-، كما روى ابنه جابر -رضي الله عنه- قال: «لَمّا قُتِل أبي جعلت أكشف الثوب عن وجهه وأبكي، وينهوني عنه وهو لا ينهاني، فجعلت عمّتي فاطمة تبكي، فقال النبي ﷺ: «تبكين أو لا تبكين، فما زالت الملائكة تُظِلُّهُ بأجنحتها حتى رفعتموه»، رواه الشيخان.

وكان -رضي الله عنه- حريصًا على الشهادة، طالبًا لها، صادقًا في طلبه إيّاها، قال جابر: «لَمَّا حضر أحدٌ دعاني أبي من الليل فقال: «ما أراني إلا مقتولًا في أول من يقتل من أصحاب النبي ﷺ وإنّي لا أترك بعدي أعز عليّ منك، غير نفس رسول الله ﷺ وإنّ عليّ دينًا فاقض، واستوص بأخواتك خيرًا، فأصبحنا فكان أول قتيل، ودفن معه آخر في قبر، ثمّ لم تطب نفسي أن أتركه مع الآخر، فاستخرجته بعد ستة أشهر، فإذا هو كيوم وضعته هُنَيَّةً غير أذنه»؛ رواه البُخَارِيّ.

وقد أكرمه الله تعالى بكرامة عظيمة، قال جابر -رضي الله عنه-: «قال لي رسول الله ﷺ: «يا جابر، مالي أراك منكسرا؟» قال: «قلت: يا رسول الله، استشهد أبي وترك عيالًا ودينًا»، قال: «أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟» فقال: «بلى يا رسول الله». قال: «ما كلم الله أحدًا قط إلا من وراء حجاب، وكلَّم أباك كفاحًا، فقال: «يا عبدي، تمن عليَّ أعطك». قال: «يا رب، تحييني فأقتل فيك ثانية»، فقال الرب سبحانه: «إنه سبق مني أنهم إليها لا يرجعون»،

قال: «يا رب، فأبلغ من ورائي»، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩]»؛ رواه الترمذي وابن ماجه.

ومن أعظم الآيات في هذه الغزوة: مصير قتلى الصحابة -رضي الله عنهم-، فقد روى ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله عزَّ وجلَّ أرواحهم في جوف طير خضر ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل معلقة من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طِيبَ مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: «من يُبلِّغ إخواننا عنَّا أنَّا أحياءٌ في الجنة نرزق؛ لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عند الحرب»، فقال الله عزّ وجلَّ: «أنا أبلغهم عنكم؛ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾»؛ أخرجه أحمد، وأبو داود بإسناد صحيح.

أيها الإخوة: كانت تلك بعض الآيات والكرامات التي منَّ الله تعالى بها على المؤمنين في هذه الغزوة العظيمة، وآياتها عظيمة، وكراماتها كثيرة، وما لا نعلمه منها أكثر وأكثر، ورغم مُصاب المُسلمين فيها فإنَّ فيها خيرًا عظيمًا، لهم بما ناله الشهداء منهم من الدرجات، والمنازل العالية عند ربهم، وبما استفاده الأحياء منهم من الدروس والعبر، وفي مقدمة ذلك: التزام الطاعة، والبعد عن المعصية التي كانت من أهم أسباب الهزيمة.

أيها المؤمنون: من رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين أن يجعل المِحَن والابتلاءات فرصة لمراجعة أنفسهم، وتصحيح أخطائهم، وتجديد العهد مع ربهم؛ فما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رُفِعَ إلا بتوبة.

ولقد كانت معصية الرماة سببًا للهزيمة في أحد؛ إذ أمرهم النبي ﷺ بعدم مبارحة أماكنهم مهما كان الأمر، فتركوا مواقعهم، ورأوا أن النصر تحقق، واشتغلوا بجمع الغنائم؛ فجاءهم عدوهم من حيث لم يحتسبوا، وانقلب ميزان المعركة، وتحول النصر إلى هزيمة؛ ليعلم المسلمون خطورة المعصية، وخطورة الأثرة بالرأي والفعل.

وعزا الله تعالى هذه المصيبة التي أصابتهم إلى أنفسهم؛ لأنّها كانت بسبب ما كسبوا من العصيان الذي هو أكبر سبب للهزيمة في المعارك فقال سبحانه: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم

مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[آل عمران: ١٦٥].

فهو سبحانه وتعالى كان قادرًا على نصرهم، بدليل إنزاله الملائكة معهم للقتال، وبدليل نصرهم على المشركين في بدر: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، ولكن طائفة منهم هي طائفة الرماة -رضي الله عنهم- غيّروا وبدّلوا، وعصوا أميرهم الذي ثبت في نفر قليل، وكان ينهاهم عن ترك مواقعهم، فزال بمعصية الرماة سبب من أسباب تنزل نصر الله تعالى وهو الطاعة، وحلّت محله المعصية، فتخلف النصر، وأحجم الملائكة عن القتال مع المؤمنين بسبب هذه المعصية، فكانت الهزيمة.

فإذا كان النصر قد تخلّف في غزوة أحد بسبب معصية واحدة؛ فهل يستحق المسلمون النصر على أعدائهم وتأييد الله تعالى لهم وفيهم من العُصاة ألوف بل ملايين، وفيهم من أنواع المعاصي والموبقات ما لا يعلمه إلا الله تعالى؟! معاصٍ في البيوت والأسواق، معاصٍ في الرجال والنساء، معاصٍ في الشيب والشباب، معاصٍ في الإعلام والتعليم والسياسة والاقتصاد، وفي كثير من شئونهم.

إن الله تعالى ليس بينه وبين أحد من خلقه نسب، ولن يحابي أحدًا من خلقه مهما عظمت منزلته، فعدله -وهو العدل تبارك وتعالى- يأبى ذلك، وقد جعل في الكون سننًا لا تحابي أحدًا من الناس، وقوانين لا تجامل كائنًا من كان، ومن هذه السنن: أنّ المستحق لنصر الله تعالى هو من يقيم دينه، وينصر شريعته، ويلتزم طاعته؛ ويباعد عن معصيته، فمن حقق ذلك نصره الله تعالى سواء كان شريفًا أم وضيعًا، قريبًا كان أم بعيدًا، وسواء كان جيشه كثيرًا أم قليلًا.

وكم تحتاج الأمة المُسْلِمَة في هذا العصر الذي تكالبت فيه عليها الأهوال والمحن، واجتمع الشر كله من كفار ومنافقين؛ لإنهاء حياتها بإقصاء دينها، وفرض الكفر والنفاق عليها، تحتاج إلى صدق التوجه إلى الله تعالى وترك المعاصي والمحرمات، والاجتهاد في الطاعات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله تعالى حتى لا نكون نحن

سببًا في تخلف نصر الله تعالى عن الأمة المسلمة، فمن نصر دين الله تعالى استحق النصر العظيم، والفتح المبين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧].

وإن اختار المسلمون طريقًا غير ذلك، فبقوا على عصيانهم، وتخلّفوا عن طاعة ربهم؛ فإن العاقبة ستكون أليمة، والمصيبة عظيمة، ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾ [محمد: ٣٨].

فانصروا الله بإقامة دينه، والتزام طاعته، والبعد عن معصيته؛ ينصركم على أعدائكم، أصلحوا بيوتكم وأولادكم، وانشروا الصلاح فيما بينكم فإنكم إن حققتم ذلك نصرتم على عدوكم، وإن حققه بعضكم، وتخلّف الآخرون؛ فقد برئت ذمة الذين أصلحوا أنفسهم، ولن يعذبهم الله في الآخرة بذنوب غيرهم. المصدر: شبكة الألوكة.

(٣)

غزوة بني قينقاع ..[١]

غزوة بني قينقاع وقعت في العام ٢ هجرية . ونشير أولا بصورة إجمالية إلى نقض اليهود في المدينة للعهود مع الرسول ﷺ وهو ما ادى إلى وقوع عدد من الغزوات منها بني قينقاع وبني النضير و بني المصطلق و بني قريظة وخيبر .

الرسول واليهود:

يقول المؤرخ الإسلامي الدكتور راغب السرجاني : كان في داخل المدينة المنورة ثلاث قبائل لليهود: قبيلة بني قينقاع، وقبيلة بني النضير، وقبيلة بني قريظة؛ وفي شمال المدينة المنورة يقع تجمع ضخم لليهود هو تجمع خيبر.

وقد أقام رسول الله معاهدة مع اليهود، وقد حاولوا مرارًا وتكرارًا أن يخالفوا هذه المعاهدات، وأن ينقضوا الميثاق، وتحدثوا كثيرًا بالسوء، ليس فقط عن الصحابة، وليس فقط عن رسول الله ، بل عن ربِّ العالمين ، وتطاولوا كثيرًا في هذه الكلمات، لكن الرسول كان يضبط النفس، ويتحكم قدر المستطاع في أن يمنع الصحابة من الصدام المباشر مع اليهود؛ لأن الوضع في المدينة المنورة لم يكن مستقرًّا.

ولم يختلف اليهود كثيرًا عن المشركين، فبعد أن عاهدهم رسول الله ﷺ ووفَّى بعهدهم، وأحسن معاملتهم، ما كان منهم إلا الإساءة، ونكران الجميل، والتقوُّل على الله ورسوله وعلى المؤمنين، ومحاولة تشكيك المسلمين فيما يعتقدونه من الحق، وقد صبر عليهم رسول الله ﷺ كثيرًا، وتغاضى عن الكثير من أخطائهم، ولم يعاقبهم عليها رغم فداحتها، إلا أن الأمر بلغ حدًّا لا يُطاق، وأصبح من الحكمة بمكان أن يتمَّ اتخاذ موقفٍ حازمٍ إزاء ما يفعله اليهود

(١) جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة " ٨ " – عرض / ربيع سكر – ١٧ يوليو ٢٠١٣ ... نقلا عن موقع قصة الإسلام – دراسة للدكتور راغب السرجاني

غدر بني قينقاع:

بعد انتصار الرسول والمسلمين في بدر، رجع وهو يرفع رأسه بعزة وقوة وبأس، ومما لا شك فيه أن ذلك أرهب معظم الجزيرة العربية، لكن ردّ فعل اليهود كان غريبًا.

وعندما دخل الرسول المدينة، جمع يهود بني قينقاع وحذَّرهم من مغبَّة الطغيان والمخالفة المستمرة التي كانوا عليها، وقال لهم: «يَا مَعْشَر يَهُودَ، أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قُرَيْشًا». وهو بذلك لا يكرههم على الإسلام أو على الإيمان، لكنه يوضح لهم أن قريشًا لما ظاهرت على أمر الله أذلّها الله . وهذا الأمر له بوادر كثيرة عند اليهود، فهم -دائمًا- يخالفون ويسيئون الأدب مع الأنبياء، بل ومع رب العالمين.

لكنّ ردَّ فعل بني قينقاع كان عنيفًا للغاية؛ ففي سنن أبي داود عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «لَمَّا أَصَابَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قُرَيْشًا يَوْمَ بَدْرٍ، وَقَدِمَ الْمَدِينَةَ جَمَعَ الْيَهُودَ فِي سُوقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ، فَقَالَ: «يَا مَعْشَر يَهُودَ، أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قُرَيْشًا». قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، لاَ يَغُرَّنَّكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنَّكَ قَتَلْتَ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ، كَانُوا أَغْمَارًا لاَ يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ، إِنَّكَ لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَّا نَحْنُ النَّاسُ، وَأَنَّكَ لَمْ تَلْقَ مِثْلَنَا».

فلما قال يهود بني قينقاع هذا الكلام، أَنْزَلَ اللهُ ﷻ فِي ذَلِكَ آيات بينات توضح العلاقة بين المسلمين واليهود خلال الفترة القادمة، قال الله: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: ١٢].

ولأن بصائر اليهود مطموسة تمامًا، لم يفقهوا هذه الآيات ولم يهتموا بها، فكان هذا هو الموقف بين اليهود والمسلمين، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تصاعد الأمر.

وحدث ان امرأة من المسلمين قدمت إلى سوق بني قينقاع، وجلست إلى أحد الصاغة اليهود تبيع وتشتري منه، فجعل اليهود يريدونها على كشف وجهها، ورفضت المرأة المسلمة ذلك، فجاء أحد اليهود من خلفها وربط طرف ثوبها برأسها دون أن تشعر، وعندما وقفت انكشفت المرأة فصرخت؛ فجاء أحد المسلمين وقتل اليهوديَّ الذي فعل ذلك، فاجتمع يهود بني قينقاع على المسلم وقتلوه، فكانت هذه بوادر أزمة ضخمة في داخل المدينة المنورة، فقد اجتمعت قبيلة بني قينقاع على قتل المسلم، بعد أن قاموا بجريمة كشف عورة المرأة المسلمة.

دولة كاملة تتحرك لأجل امرأة واحدة:

وصل الأمر إلى رسول الله ، وعلى الفور جمع الصحابة وجهّز جيشًا، وانتقل سريعًا إلى حصون بني قينقاع، وحاصر الحصون وفي داخلها بنو قينقاع، وأصر على استكمال الحصار حتى ينزل اليهود على أمره . وقد حرَّك رسول الله هذا الجيش بكامله من أجل أن امرأة واحدة كُشفت عورتها، وما يؤلمني كثيرًا ليس فقط ما أرى من كشف عورات المسلمات في بقاع الأرض وفي أماكن كثيرة من العالم، ولكن تنتهك الحرمات إلى درجات القتل، وإلى درجة الاعتداء على المرأة، وأمور يستحي الإنسان من ذكرها، يحدث هذا كله ولا تتحرّك جيوش المسلمين.

ونلاحظ في موقف النبي مدى عزة وكرامة الدولة الإسلامية، فقد حدث نوع من الامتهان لهذه الكرامة بهذه العملية الفاجرة من اليهود، فأخذ النبي الأمر بمنتهى الجدّية، وانتقل بجيشه إلى حصار بني قينقاع مع احتمال سقوط دماء كثيرة؛ نتيجة القتال مع بني قينقاع وهم من أصحاب السلاح والقلاع والحصون والبأس الشديد في الحرب، وقد رأى رسول الله أن كل هذا ثمن رخيص للغاية في مقابل حفظ كرامة الدولة الإسلامية.

ويدأ الحصار في يوم السبت في نصف شوال سنة ٢هـ بعد أقل من شهر من غزوة بدر الكبرى، وظل محاصرا لبني قينقاع أسبوعين كاملين، إلى أن ظهر هلال ذي القعدة، وقذف الله الرعب في قلوب اليهود، فنزلوا على حكم الرسول ، وكان حكمه في ذلك الوقت هو قتلهم لهذه المخالفة الشنيعة التي فعلوها، ليس فقط لكشف وجه المرأة المسلمة، ولا لقتل المسلم، لكنها تراكمات طويلة جدًّا، فهم منذ أن دخل الرسول وهم في مخالفات مستمرة، وسبّ علنيّ لله ولرسوله الكريم ، وللصحابة وإثارة الفتن بين المسلمين، فكان لا بد من وقفة معهم.

فإذا أردنا أن نتأسّى به في عَلاقاتنا مع المشركين أو مع اليهود أو مع أعداء الأمة بصفة عامة، فعلينا أن ندرس جيدًا الموقف الذي أخذ فيه الرسول القرار، أيًا كان هذا القرار.

النفاق يتعانق مع اليهود:

نزل اليهود على حكم رسول الله ، وخرجوا من حصونهم، وكان القرار هو قتل بني قينقاع. وهنا جاء عبد الله بن أُبي بن سلول، ولم يكن قد أسلم إلا منذ أيام قليلة، فهو لم

يسلم إلا بعد بدر، وكان حليفًا لبني قينقاع، وطلب من الرسول أن يحسن في مواليه بني قينقاع، ورفض رسول الله ذلك؛ لأن ما فعلوه إنما هو جريمة عسكرية كبرى، وفتنة كبيرة تحدث في المدينة، وقد أخذ الرسول القرار، فكرَّر ابنُ أُبيّ ما يريد مرة وثانية وثالثة، ثم أدخل يده في جيب درع رسول الله ، فقال له الرسول : «أَرْسِلْنِي». وغضب غضبًا شديدًا، وقال له: «وَيْحَكَ! أَرْسِلْنِي». لكن هذا المنافق أصر على إمساك الرسول ، وقال له: «لا والله لا أرسلك حتى تحسن في مواليّ؛ أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود، وتحصدهم في غداة واحدة، إني والله امرؤ أخشى الدوائر».

قال ابن أُبيّ هذا الكلام هكذا بمنتهى الصراحة، فقد كان هذا المنافق حليفًا لبني قينقاع، وكان لهم جيشٌ قوامه سبعمائة رجل؛ أربعمائة حاسر (أيْ: من غير دروع)، وثلاثمائة دارع، وهؤلاء السبعمائة قد منعوه -كما يقول- من الأحمر والأسود. فهذه -إذن- هي القوة الأساسية المساعدة لعبد الله بن أُبيّ زعيم الخزرج قبل أن يأتي الرسول ، وهذه القوة تمنعه من كل الناس، ورسول الله قد قرر أن يقتلهم جميعًا في لحظة واحدة. ويقول المنافق: وربما تدور الدوائر على المدينة بعد ذلك فلا أجد من يحميني. فهو لم يفكر في الرسول ، ولم يفكر في الجيش الإسلامي، ولم يفكر في انتمائه، وإنما كان تفكيره في عقائده الجاهلية التي كان عليها، وكانت علاقته باليهود أشد توثيقًا من علاقته برسول الله ، ومع ذلك كان يعذره رسول الله ؛ لأنه كان ما زال حديث الإسلام، وكان النبي يؤمِّل كثيرًا فيه، وخاصةً أن خلفه مجموعة كبيرة من الناس، فعامله بالحسنى في هذا الموقف، وقَبِل منه أن يفتدي هؤلاء، ولكن النبي اشترط أن يترك اليهود من بني قينقاع المدينة المنورة بكاملهم، وقَبِلَ اليهود بذلك، وخرجوا من المدينة المنورة إلى منطقة تسمى (أذرعات) بالشام، ويقال: إنهم قد هلكوا هناك بعد فترة وجيزة. وبهذا انتهت قصة بني قينقاع من المدينة المنورة.

وقفات مع جلاء بني قينقاع:

اختيار التوقيت المناسب للقرار:

لم يقف رسول الله هذه الوقفة الجادة والقوية مع اليهود، إلا بعد أن اطمأنَّ تمامًا على قوة المسلمين اقتصاديًّا وعسكريًّا، فقد أصبح السوق الإسلامي موجودًا وقويًّا، بينما كانت التجارة في السابق في سوق بني قينقاع. وأصبح الماء -أيضًا- ملكًا للمسلمين، وقد كان في السابق لليهود، ونعرف جميعًا قصة بئر رومة. والجيش المسلم يعتمد اعتمادًا كُلِّيًّا على

أفراده، لا يعتمد على معونات خارجية، ولا على أيِّ مساعدات من خارج المهاجرين والأنصار، بينما كان عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين يعتمد على اليهود في حمايته. وكان هذا الوضع مؤهِّلًا لرسول الله أن يأخذ قرار الحرب بسهولة.

ولم يتساهل الرسول مطلقًا مع اليهود بعد موقفهم مع المرأة المسلمة، ومع الرجل المسلم الذي قُتل، وكان ما فعله اليهود مخالفة صريحة للمعاهدة المبرمة بينهم وبين رسول الله ، ولو سكت الرسول على مخالفة اليهود للمعاهدة المرة تلو الأخرى؛ فإن اليهود من دون شك سيزيدون من تطاولهم، ويدخلون في مرحلة أخرى من الاستهزاء بالدولة الإسلامية وكرامة الأمة الإسلامية.

اليهود بين الأمس واليوم:

من طبائع اليهود الثابتة التي لا ينفكون عنها بحال من الأحوال؛ التطاول الدائم واتخاذ المواقف المعادية كلما زاد سكوت المسلمين عن مخالفاتهم، وقد رأينا هذا في اليهود قديمًا وحديثًا، وسنظل نراه منهم إلى يوم القيامة.

رأينا في العصر الحديث عندما خالف اليهود القوانين الإسلامية، وبدءوا بالهجرة إلى فلسطين مع أن هذا الأمر كان ممنوعًا عليهم، ولكن لأن المسلمين سكتوا عن هذا الأمر، تملّك اليهود الاقتصاد الفلسطيني في داخل فلسطين كلها، ومع سكوت المسلمين استقدم اليهود السلاح الخفيف إلى داخل فلسطين، ثم استقدموا السلاح الثقيل، ومع استمرار سكوت المسلمين جاء قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين بين اليهود والمسلمين، ثُمَّ إقامة إسرائيل سنة ١٩٤٨م، وحرب ١٩٥٦م، ١٩٦٧م، ١٩٨٢م في لبنان. وهكذا كلما سكت المسلمون أخذ اليهود جزءًا أكبر.

كنا في الماضي نطالب بالعودة إلى حدود التقسيم، ثم بعد ذلك نطالب بالعودة إلى حدود ٦٧، ثم نطالب بالعودة إلى حدود الانتفاضة، وإذا كان اليهود اليوم يقيمون جدارًا عازلًا، فإننا ربما نطالب في المستقبل بالعودة إلى حدود الجدار العازل.

فهذا التساهل مع اليهود هو الذي أدَّى إلى ما آلت إليه أحوالنا اليوم.

وقد تجنَّب الرسول كل هذه المأساة، وأخذ قرارًا سريعًا وحاسمًا بحصار بني قينقاع، ومعاقبتهم بالطريقة التي شرعت في المعاهدة التي بينه وبينهم قبل ذلك بسنتين.

(٤)
غزوة بني النضير[1]

غزوة بني النضير وقعت في شهر ربيع الأول من العام ٤ هجرية . وعن وقائع الأحداث التي أدت إلى وقوع غزوة بني النضير ، قال المؤرخ الإسلامي الدكتور راغب السرجاني : أخذ الرسول ﷺ مجموعة من الصحابة فيهم أبو بكر وعمر وطائفة من الصحابة، وذهبوا يطلبون من بني النضير أن يساعدوهم في دفع دية الرجلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري - ﷺ - عن طريق الخطأ؛ لعهد الأمان الذي كان الرسول ﷺ أعطاهما، وكان بين بني النضير وبني عامر عهدٌ وحلف، فلما أتاهم ﷺ، قالوا: "نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت".

واتفق اليهود على قتل الرسول ﷺ قائد الدولة الإسلامية، وهو بين أيديهم ومن السهل أن يتخلصوا منه، والمسلمون في أزمة، فهم يرون المسلمين وقد أصابهم عدة مصائب، منها مأساة بئر معونة والرجيع، وفي فعلتهم هذه مخالفة صريحة للعهد الذي بينهم وبين الرسول ﷺ.

قالوا: "فمن يعلو على هذا البيت؛ فيلقي عليه صخرة ويريحنا منه؟" فانتدب لذلك عمرو بن جِحَاش، فقال: "أنا لذلك". فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال، والرسول ﷺ في نفرٍ من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعليّ جميعًا، فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم؛ فقام وخرج راجعًا إلى المدينة حتى لا يلفت الأنظار إليه. فلما رآه الصحابة يسير نحو المدينة قاموا في طلبه، فلقوا رجلًا مُقبِلًا من المدينة فسألوه عنه، فقال: رأيت ه داخلًا المدينة. فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما كان اليهود يريدون من الغدر به، فبعث رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة يأمر بني النضير بالخروج من جواره وبلده، ولا يساكنوه، وقد أجَّلهم عشرة أيام، فمن وجده بعد ذلك

(١) جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة " ٩ " – عرض / ربيع سكر – ١٨ يوليو ٢٠١٣ ... نقلا عن موقع قصة الإسلام – دراسة للدكتور راغب السرجاني وموقع شبكة الألوكة.

ضرب عنقه. فبعث إليهم أهل النفاق بقيادة عبد الله بن أُبيّ بن سلول يحرضونهم على المقام ويعدونهم النصر.

الموقف صعب للغاية، ولكن لا بد من المواجهة مع بني النضير مهما تكن النتائج. وبعد بني النضير هناك لقاء بين المسلمين وقريش عند بدر في شوال ٤هـ.

حصار بني النضير:

فلما أرسل المنافقون إلى اليهود قويت عند ذلك نفوسهم، وحيي حُيَيّ بن أخطب، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ أنهم لا يخرجون، ونابذوه بنقض العهد، فعند ذلك أمر الناس بالخروج إليهم، وأمر بالتهيؤ لحربهم، والمسير إليهم؛ لتأديبهم جزاء غدرهم وحقدهم، فحاصرهم المسلمون ست ليال، وفي رواية خمس عشرة ليلة، ولكن الأصح أنه ست ليال، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وذلك في شهر ربيع الأول، وانسحب المنافقون ولم ينصروا اليهود، وتركوهم يواجهون المصير المحتوم، وتحصنوا في الحصون، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخيل وحرقها، فنادوه: "أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد، وتعيب من صنعه، فما بال قطع النخيل وتحريقها".

وقذف الله في قلوبهم الرعب، فقد نصر الله عز وجل المسلمين في ذلك اليوم بالرعب، فهو جندٌ من جنود الله، فسأل يهود بني النضير رسولَ الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة. ولم يؤمن من اليهود من قبيلة بني النضير إلا يامين بن عمير، وأبو سعد بن وهب، من هذه القبيلة الكبيرة لم يؤمن إلا رجلان فقط! فحقًّا هؤلاء هم اليهود، وصدق قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المائدة: ٨٢].

وهذا هو عداؤهم للإسلام، وخرج اليهود من المدينة إلى خيبر في شمال الجزيرة العربية، وخرج المسلمون من حصار بني النضير أكثر قوة، وارتفعت مكانتهم في شبه جزيرة العرب.

استعادة المسلمين لهيبتهم في الجزيرة :

بعد إخراج بني النضير من المدينة بعث الرسول ﷺ السرايا إلى بعض جهات الجزيرة،

وخرج الرسول ﷺ بنفسه على رأس جيش لتأديب أهل نجد الذين أوقعوا بالمسلمين في بئر معونة وماء الرجيع، وسبحان الله! لقد فرَّ أهل نجد من أمام جيش المسلمين، وعندما عاد الرسول ﷺ إلى المدينة بدأ يُعِدّ العُدَّة للخروج للقاء قريش عند ماء بدر، حسب الاتفاق السابق مع المشركين، فقد اتفقوا مع أبي سفيان على هذا الموعد.

لقاء أبي سفيان والذهاب لدومة الجندل:

وخرج رسول الله ﷺ إلى بدر ومعه ألف وخمسمائة من أصحابه وعشرة أفراس، وذلك في شهر شعبان لميعاد أبي سفيان، واستعمل على المدينة عبد الله بن رواحة الخزرجي ﷺ، وحمل اللواء علي بن أبي طالب ﷺ.

وخرج أبو سفيان في قريش وهم ألفان، ومعهم خمسون فرسًا حتى نزل موضعًا قريبًا من مَرِّ الظَّهْران، ثم بدا له الرجوع، فقال: "يا معشر قريش، إنه لا يصلحكم إلا عام خصب، ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جَدْبٍ، وإني راجع فارجعوا". فرجع، ورجع الناس، فسمّاهم أهل مكة جيش السَّوِيق، يقولون: إنما خرجتم تشربون السَّوِيق.

هذه حيلة دبرها أبو سفيان لأنه لم يكن يريد حربًا، بل خرج لئلاّ يقال أخلف وعده، ولم يعارضه أحد من قريش في الرجوع، فكان الجيش كذلك لا يريد الحرب، وكان أبو سفيان قد بعث إلى المدينة رجلًا اسمه نُعَيم؛ ليرجف أصحاب رسول الله ﷺ بكثرة العدو، ويحملهم على عدم الخروج؛ وذلك ليكون له عذر في الرجوع إلى مكة، ولكن رسول الله ﷺ لم يبالِ بما سمع من كثرة عدد الجيش، وعلم ما يريده المشركون من تثبيط همة الناس، فقال: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ يَخْرُجْ مَعِي أَحَدٌ لَخَرَجْتُ وَحْدِي".

وأقام ﷺ ببدر ثمانية أيام ينتظر أبا سفيان ليثبت للجميع أن المسلمين لا يخافون من قريش أو أي قوة أخرى تريد الوقوف أمام المسلمين، وفي هذه المدة باع المسلمون ما معهم من التجارة فربحوا كثيرًا، وسمع الرسول ﷺ أن بعض القبائل في دومة الجندل تُغِير على المسلمين وتقتل منهم، فقرر ﷺ الذهاب إلى دومة الجندل، والمسافة بين المدينة ودومة الجندل أكثر من أربعمائة وخمسين كيلو مترًا. وهناك قام الرسول ﷺ بتفريق مجموعات من الصحابة رضوان الله عليهم لتأديب هذه القبائل، ومع أنه ﷺ لم يلق كيدًا، ولم يدخل في

قتال مع القبائل، إلا أن الذهاب إلى دُومة الجَنْدل وفرار القبائل يُعَدّ انتصارًا للمسلمين دَوَّى في الجزيرة؛ وبذلك عادت الهيبة إلى المسلمين في الجزيرة العربية كلها، وثبتت دعائم الدولة الإسلامية مرة أخرى، وسمع الناس بالجيوش الإسلامية التي تتحرك هنا وهناك، تُعاقب من يتعدى عليها أو ينقض العهد معها.

دروس وعبر من غزوة بني النضير:

ويقول الباحث الإسلامي مراد باخريصة : بعد أن ذكر الله -سبحانه وتعالى- في سورة الحشر الأحداث التي حدثت في غزوة بني النضير، قال: ﴿ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [الحشر: ٢].

فهو أمر منه سبحانه وتعالى بأخذ الدروس والعبر من غزوة بني النضير، ومن أعظم العبر فيها إثبات قدرة الله سبحانه وتعالى على تغيير الأحوال وتبديل الحال وتصريف الأمور كيف يشاء سبحانه وتعالى، فلا يقف أمام قوته وقدرته شيء، فهؤلاء اليهود كان الناس جميعًا حتى المسلمون يظنون أن قوتهم وحصونهم التي يتحصنون بداخلها لن يستطيع أحد أن يخترقها أو يخرجهم منها {مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا}؛ أي أنتم أيها المسلمون مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا، {وَظَنُّوا} أي اليهود أن حصونهم مانعتهم من الله، ولكن الله جل جلاله أتاهم من حيث لم يحسبوا، فسلَّط عليهم جنديًا من جنوده وهو الرعب، فانهارت معنوياتهم وضعفت نفسياتهم، فاستسلموا وخربوا بيوتهم بأيديهم.

فعلى الناس أن يعلموا أن الله الذي أجلى هؤلاء وأزالهم بعد أن ظنَّ الناس أن حصونهم مانعتهم - قادرٌ على أن يزيل غيرهم من الكافرين والمتكبرين والظالمين بشرط أن يصلح الناس أحوالهم، ويُقبلوا على منهج ربهم، وينصروا دينه، فإذا حققوا ذلك فإنَّ الله سينصرهم وسيهلك عدوهم ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[الحج: ٤٠].

وفي السورة إشارة إلى أن النصر قريب إذا سلك الناس طريقه، أمّا إذا تنكّب الناس الطريق، وأخذوا يبحثون عن النصر والعز والتمكين في المناهج الأرضية كالديمقراطية والعلمانية والليبرالية والاشتراكية أو غيرها من المناهج الطاغوتية، فإنَّ النصر سيكون بعيدًا بل محالًا.

كما أن في سورة الحشر إشارة واضحة إلى أن الهلاك متحقق في الوقوف في وجه الحق وتعذيب أهل الحق أو مطاردتهم أو سجنهم، فهؤلاء اليهود لما عزموا على قتل الرسول ﷺ بإلقاء الرحى عليه من سطح البيت، مكر الله بهم فأذلهم وأخزاهم وخرَّب بيوتهم ورحلهم من ديارهم بدون أن يتكلف المسلمون أية تكاليف في ذلك، وإنما دخلوا أرضهم بدون خيل ولا ركاب؛ أي بدون حرب ولا مشقة.

كما أن في الآية إشارة للمسلمين بتجنُّب الغدر والابتعاد عن الخيانة ونقض العهد؛ حتى لا يقع لهم ما وقع لليهود، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

كما أن من الدروس العظيمة في غزوة بني النضير بيان حال المنافقين وكشف العلاقة الوطيدة بينهم وبين أهل الكتاب من اليهود والنصارى، حتى إن الله سبحانه وتعالى سماهم (إخوانهم) الذين كفروا من أهل الكتاب فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١].

فعلاقة المنافقين باليهود علاقة حميمة، وصلتهم بهم صلة قوية، يعقدون معهم المؤامرات ويتآمرون معهم ضد المسلمين ويوعدونهم بالدفاع عنهم ونصرتهم وحمايتهم من المسلمين {لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ} [الحشر: ١١].

ومن الدروس والعبر في غزوة بني النضير الإعلام بأن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله، فمن غدر ومكر ولفَّ ودار فإنَّ لفه ومكره سينقلب عليه في النهاية، فهؤلاء اليهود أرادوا قتل الرسول ﷺ والقضاء عليه، فقضوا على أنفسهم وأهلكوا أنفسهم.

كما أن في غزوة بني النضير دليل على جواز تخريب ممتلكات الكفار إذا كانت هناك ضرورة حربية، كما فعل النبي ﷺ حيث قطع نخيلهم وأحرق بساتينهم.

(٥)
غزوة دومة الجندل [1]

❖❖❖

البداية .. في شهر ربيع الأول ٥هـ الموافق أغسطس ٦٢٦م، تحركت القوات الإسلامية بقيادة رسول الله ﷺ نحو قبيلة قضاعة التي كانت تنزل شمال قبائل أسد وغطفان، في حدود قبائل الغساسنة الموالين للدولة الرومية (بيزنطة)، والمشرفة على سوق (دُومة الجندل) الشهير.

وتقع دُومة على بُعد ٤٥٠ كيلو مترًا شمال المدينة النبوية. وذكر الحموي في معجم البلدان أنها سُميت بذلك نسبة إلى حصن بناه دوماء بن إسماعيل.

أما الجندل: فهي الحجارة، ومفرده: جندلة. وعلى هذا يكون معنى اسم المنطقة: «الحصن الذي بناه دوماء في منطقة مليئة بالحجارة». وكان يُضرب المثل بمناعة حصن دومة وشدته.

سبب غزوة دومة الجندل:

يقول الباحث الإسلامي د. عبد الرحيم الشريف : وصلت الأنباء إلى المدينة النبوية المشرفة بتجمع بعض قبائل المشركين عند دومة الجندل للإغارة على القوافل التي تمر بهم، والتعرض لمن في القافلة بالأذى والظلم، ثم الاعتداء على المدينة لاحقًا. ومن الملاحَظ أن دومة الجندل تعَدُّ بلادًا نائية بالنسبة للمدينة النبوية؛ لأنها تقع على الحدود بين الحجاز والشام، وفي منتصف الطريق بين البحر الأحمر والخليج العربي، وهي على مسيرة ست عشرة ليلة من المدينة.

فحتى لو أن المسلمين أغفلوا أمرها وسكتوا على وجود هذا التجمع فيها، ما لامهم أحد

---

(١) جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة " ١٠ " – عرض / ربيع سكر – ١٩ يوليو ٢٠١٣ ... نقلا عن موقع قصة الإسلام

ولا ضرهم هذا التجمع في شيء على المدى القريب، ولكن النظرة السياسية البعيدة والعقلية العسكرية الفذة أوجبت على المسلمين أن يتحركوا لفضِّ هذا التجمع فورًا لما يلي:

١- السكوت على هذا التجمع وما شاكله يؤدي -بلا شك- إلى تطوره واستفحاله، ثم يؤدي بعد ذلك إلى إضعاف قوة المسلمين وإسقاط هيبتهم، وهو الأمر الذي يجاهدون من أجل استرداده.

٢- وجود مثل هذا التجمع في الطريق إلى الشام قد يؤثر على الوضع الاقتصادي للمسلمين، فلو أن المسلمين سكتوا على هذا التجمع لتعرضت قوافلهم أو قوافل القبائل التي تحتمي بهم للسلب والنهب؛ مما يضعف الاقتصاد، ويؤدي إلى حالة من التذمر والاضطراب.

٣- فرض نفوذ المسلمين على هذه المنطقة كلها، وإشعار سكانها بأنهم في حمايتهم وتحت مسؤوليتهم؛ لذلك فهم يؤمِّنون لهم الطرق، ويحمون لهم تجارتهم، ويحاربون كل إرهاب من شأنه أن يزعجهم أو يعرضهم للخطر.

٤- حرمان قريش من أي حليف تجاري قد يمدها بما تحتاج من التجارة، وصرف أنظارهم عن هذه المنطقة التجارية المهمة؛ لأن ظهور الدولة الإسلامية بهذه القوة يؤثر على نفسية قريش العدو الأول للدولة الإسلامية، ويجعلها تخشى المسلمين على تجارتها.

٥- الحرص على إزالة الرهبة النفسية عند العرب الذين ما كانوا يحلمون بمواجهة الروم، والتأكيد عمليًا للمسلمين بأن رسالتهم عالمية وليست مقصورة على العرب.

الخروج إلى غزوة دومة الجندل:

ندب رسول الله ﷺ المسلمين للخروج، وخرج في ألف من أصحابه، وكان يسير الليل، ويكمن النهار؛ حتى يخفي مسيره، ولا تشيع أخباره وتنقل أسراره، وتتعقبه عيون الأعداء. وسار حتى دنا من القوم، عندئذ تفرقوا، ولم يلق رسول الله ﷺ منهم أحدًا، فقد ولَّوا مدبرين، وتركوا أنعامهم وماشيتهم غنيمة باردة للمسلمين، وأسر المسلمون رجلًا منهم، وأحضروه إلى الرسول ﷺ، فسأله عنهم، فقال: هربوا لما سمعوا بأنك أخذت نعمهم. فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام، فأسلم وأقام بساحتهم أيامًا، ويبعث

البعوث، وبث السرايا، وفرّق الجيوش، فلم يصب منهم أحدٌ، وعاد المسلمون إلى المدينة. وفي أثناء عودتهم وادعَ الرسولُ عيينةَ بن حصن الفزاري، واستأذن عيينة رسولَ الله ﷺ في أن ترعى إبله وغنمه في أرض قريبة من المدينة على ستة وثلاثين ميلًا منها.

دلالات غزوة دومة الجندل:

١- إن وصول جيوش المسلمين إلى دومة الجندل، وهي على هذه المسافة البعيدة من المدينة وموادعة عيينة بن حصن للمسلمين، واستئذانه في أن يرعى بإبله وغنمه في أرض بينها وبين المدينة ما يقرب من خمسة وستين كيلو مترًا، لدليل قاطع على ما وصلتإليه قوة المسلمين، وعلى شعورهم بالمسؤولية الكاملة تجاه تأمين الحياة للناس في هذه المنطقة، وأن هذه المناطق النائية كانت ضمن الدولة الإسلامية، وإن الدولة أصبحت منيعة، ليس في مقدور أحد أن يعتدي عليها، ولو كان ذلك في استطاعة أحد لكان هو عيينة بن حصن الذي كان يغضب لغضبه عشرة آلاف مقاتِل.

٢- كانت غزوة دومة الجندل بمنزلة إعلان عن دعوة الإسلام بين سكان البوادي الشمالية وأطراف الشام الجنوبية.

٣- كان في سير الجيش الإسلامي هذه المسافات الطويلة تدريب له على السير إلى الجهات النائية، وفي أرض لم يعهدها من قبل؛ ولذلك تعتبر هذه الغزوة فاتحة سير الجيوش الإسلامية للفتوحات العظيمة في بلاد آسيا وإفريقيا فيما بعد.

المستفاد من غزوة دومة الجندل:

هي غزوة، وحرب استطلاعية تمسح الجزيرة العربية، وتتعرف على مراكز القوى فيها، وهي حرب إعلامية، وهي حرب عسكرية تريد أن تصد هجومًا محتملًا على المسلمين، حيث ضَوَى إليها قوم من العرب كثير يريدون أن يدنوا من المدينة، وهي حرب سياسية تريد أن تجهض من تحركات القبائل المحتمل أن تتحرك بعد أنباء غزوة أحد لتقصد المدينة وتستبيحها.

كانت هذه الغزوة دورة تربوية رائعة وقاسية وشاملة يقودها رسول الله ﷺ، وبين يديه ألف من أصحابه، فيتلقون فيها كل لحظة دروسًا في الطاعة والانضباط، ودروسًا في التدريب الجسمي والعسكري والتحمل لمشاق الحياة وصعوباتها، وأحكامًا وفقهًا في

الحلال والحرام، وعمليات صهر وتذويب لقواعد الجيش الإسلامي في بوتقة واحدة خارج إطار العشيرة، وخارج كيان القبيلة؛ حيث أخذت تفد إلى المدينة عناصر كثيرة من أبناء القبائل المجاورة، والتخلي عن الأطر القبلية وعصاباتها للانصهار في بوتقة الأمة الواحدة التي تجعل الولاء لله ورسوله.

وفوق هذا كله تتيح الفرصة لجيل بدر الرائد أن يقوم بمهمة التربية للوافدين الجدد وتعليمهم وتثقيفهم، كما تتيح الفرصة لكشف ضعاف النفوس، ومن له صلة بمعسكر النفاق من خلال مراقبة تصرفاته وسلوكه.

إنها ليست ساعات محدودة أو أيامًا معدودة، بل هي دورة قرابة شهر، لا يمكن إلا أن تبرز فيها كل الطبائع وكل النوازع، فيتلقاها -عليه الصلاة والسلام- ليصوغها على ضوء الإسلام ويعلِّم الجيل الرائد فن القيادة وعظمة السياسة.

كانت معركة صامتة، وتربية هادئة، وكان الجيش مع قائده يقطع ما ينوف عن ألف ميل في هذه الصحراء، يتربى ويتثقف ويتدرب ويمتحن ويقوّم؛ ليكون هذا استعدادًا لمعارك قادمة.

وأعجب من هذا كله:

عيَّن رسول ﷺ الصحابي الجليل سباع بن عرفطة الغفاري -رضي الله عنه- واليًا على المدينة في تجربة جديدة، فهو ليس أوسيًّا ولا خزرجيًّا ولا قرشيًّا، بل من قبيلة غفار التي كانت تمارس قطع الطريق والسطو المسلح على القوافل التجارية، حتى إنها كانت تشتهر بـ(سراق الحجيج) عند العرب!!!

- عجبًا لمحمد ﷺ كيف يثق بمَن كان حاله كذلك قبل بضع سنوات، يأمنه على عاصمة دولة الإسلام وبيت مال المسلمين ونسائهم وذراريهم؟!!

- عجبًا لهذا الدين العظيم الذي أعاد صياغة بني غفار ونقلهم من حال سرقة حتى الحجيج إلى حمل مفاتيح بيت مال الدولة الإسلامية وصيانتها، في زمن قياسي، ودون الحاجة إلى انتظار موت ذاك الجيل!

- عجبًا لأولئك الصحابة الذين لم يعترضوا على اختيار رجل من قبيلة غفار ليكون أمينًا

على بيوتهم وعوراتهم!

إنها النبوة ولا شيء سوى النبوة:

لا بُدَّ لهذا الجيل أن يتربى على الطاعة والانضباط للأمير أيًا كان شأن هذا الأمير، وهذا يدل على عظمة المنهج النبوي في تربية الأمة والارتقاء بها، وعلى عظمة قيادة النبي ﷺ وفراسته في أتباعه وثقته فيهم ومعرفته لمواهبهم، فهو ﷺ على معرفة بكفاءة سباع بن عرفطة الغفاري وعبقريته وقدرته على الإدارة الحازمة، فكان ﷺ يربِّي أصحابه وهو غائب عن المدينة؛ لكي يهيمن منهج رب العالمين على المسلمين، ويصنع منها أمة واحدة تسمع وتطيع لكتاب ربها وسنة نبيها.

إذ ما كان لقائد عسكري ذي أهداف دنيوية، أن يغامر تلك المغامرة بالابتعاد عن بلده مسافة بعيدة جدًّا، تاركًا مدينته وأهله ومُلكه معرضين لاحتمالات الأذى ممَّن يترصدها من المنافقين والأعراب والمشركين واليهود.. وفي حراسة شخص ليس من زعماء المدينة، ولا من كبار المهاجرين!! فضلًا عن كونه من بني غفار. ولكنها النبوة [1].

دومة الجندل في سيرة ابن هشام:

جاء في كتاب سيرة ابن هشام المسمى بـ «السيرة النبوية» : غزوة دومة الجندل في شهر ربيع الأول سنة خمس ، موعدها : قال ابن إسحاق : ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة ، فأقام من مقدم رسول الله ﷺ بها أشهرا حتى مضى ذو الحجة وولى تلك الحجة المشركون وهي سنة أربع ثم غزا رسول الله ﷺ دُومة الجندل .

استعمال ابن عرفطة على المدينة : قال ابن هشام : في شهر ربيع الأول ، واستعمل على المدينة سِباع بن عرفطة الغفاري . رجوع رسول الله : قال ابن إسحاق : ثم رجع رسول الله ﷺ قبل أن يصل إليها ، ولم يلق كيدا ، فأقام بالمدينة بقية سنته .

(١) موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

(٦)
غزوة بني المصطلق[1]
(أ)

حادثة الإفك .. كشفت خطر المنافقين على المجتمع المسلم

غزوة بني المصطلق غزاها الرسول ﷺ في شهر شعبان من السنة السادسة للهجرة، ويقول الكاتب مراد باخريصة : سبب الغزوة أن رئيس بني المصطلق سار في قومه ومن قدر عليه من العرب يريدون حرب رسول الله ﷺ فندب النبي وأسرع في الخروج فخرج معه جماعة من المنافقين لم يخرجوا في غزوة قبلها فلما بلغ الخبر إلى بني المصطلق وتأكد لديهم أن رسول الله ﷺ قد تحرك بجيشه إليهم وكانوا قد أرسلوا جاسوسًا ليأتيهم بخبر الجيش الإسلامي فألقى المسلمون عليه القبض وقتلوه خافوا خوفًا شديدًا وتفرق عنهم من كان معهم من العرب وأصابهم الرعب ودب في قلوبهم الخوف من تحرك رسول الله ﷺ وجيشه إليهم.

فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى مكان يقال له المريسيع فيه ماء من مياههم تهيأ للقتال وصف ﷺ أصحابه وأعطى الراية لأبي بكر الصديق وراية الأنصار لسعد بن عبادة فبدأت المعركة بالترامي بالنبل فتراموا بالنبل ساعة ثم أمر رسول الله ﷺ أن يحمل المسلمون على المشركين حملة رجل واحد فحملوا عليهم حملة رجل واحد فانهزم المشركون وقتل منهم من قتل وأسر منهم من أسر وسبى المسلمون نسائهم وذراريهم وأموالهم ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد قتله رجل من الأنصار ظنًا منه أنه من العدو وكان من جملة نساء السبي بنت الرئيس رئيس بني المصطلق جويرية بنت الحارث وقعت في سهم ثابت بن قيس فكاتبها فأدى عنها رسول الله ﷺ وتزوجها الرسول ﷺ فأعتق المسلمون بسبب هذا التزويج مائة من بني المصطلق وقالوا أصهار الرسول ﷺ.

ولما انتهى رسول الله ﷺ من الغزوة بقي مقيمًا على ماء المريسيع وفي يوم من الأيام ازدحم

---

(١) جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة " ١١ " – عرض / ربيع سكر – ٢١ يوليو ٢٠١٣ ... نقلا عن موقع قصة الإسلام.

رجل من المهاجرين مع رجل من الأنصار على الماء فاقتتلا فصرخ الأنصاري يا معشر الأنصار وصرخ المهاجري يا معشر المهاجرين فقال رسول الله ﷺ أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم دعوها فإنها منتنة فلما وصل الخبر إلى عبد الله بن أبي بن سلول رئيس المنافقين غضب غضبًا شديدًا على المهاجرين وقال: أو قد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما نحن وهم إلا كما قال الأول: سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على الحاضرين حوله فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير دياركم فأخبر زيد بن أرقم رسول الله ﷺ بما قاله عبدالله بن أبي بن سلول وكان زيد ممن حضر وسمع مقالة ابن أبي سلول فقال عمر بن الخطاب يا رسول الله: مُرْ عَبَّاد بن بشر فليقتله فقال النبي ﷺ: (فكيف يا عمر بن إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه؟ لا ولكن أَذِّنْ بالرحيل)، وذلك في ساعة لم يكن يرتحل فيها، فارتحل الناس وانطلقوا، فقال أسيد بن حضير يا رسول الله : لقد رحت في ساعة منكرة؟ فقال له: (أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟) يريد ابن أبي، فقال: وما قال؟ قال: (زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) قال: فأنت يا رسول الله تخرجه منها إن شئت هو والله الذليل وأنت العزيز ثم قال: يا رسول الله أرفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخَرَز ليتوجوه يعني ليجعلوه ملكًا عليهم- فإنه يري أنك استلبته ملكًا.

ثم مشى ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى وليلتهم حتى أصبح وصَدْر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مَسَّ الأرض فوقعوا نيامًا. فعل ذلك ﷺ ليشغل الناس عن الحديث ويصرفهم عن الافتتان والبلبلة والاضطراب.

أما ابن أبي فإنه لما علم أن زيد بن أرقم قد أوصل الخبر إلى رسول الله ﷺ جاء إلى رسول الله ﷺ وحلف بالله أنه ما قال هذا الكلام ولا تكلم به فلما حلف أنه ما قال قال بعض الأنصار يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قاله الرجل

قال زيد فأصابني هم لم يصبني مثله قط فجلست في بيتي فأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟

يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (المنافقون ١: ٤) إلى قوله: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (المنافقون : ٨)فبعث النبي ﷺ عليًا إلى زيد ليقرأ عليه هذه الآيات فقرأها عليه وقال: إن الله قد صدقك.

وكان ابن هذا المنافق وهو عبدالله بن عبد الله بن أبي بن سلول رجلًا صالحًا فتبرأ من أبيه ووقف له على باب المدينة واستل سيفه، وقال: والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل فلما جاء النبي ﷺ أذن له وخلى سبيله وقال يا رسول الله إن أردت قتله فمرني بذلك فأنا والله أحمل إليك رأسه.

واقعة الإفك:

وما إن انتهت هذه الواقعة الأليمة والصور المشينة من صور الزندقة والنفاق حتى وقعت واقعة أخرى أشد منها وأخطر إنها واقعة الإفك وحديث الإفك وقصة الإفك التي أربكت المدينة شهرًا كاملًا وأفشت فيها سحب الشك والارتياب والاضطراب والبلبلة في عرض أم المؤمنين الطاهرة المطهرة الصديقة بنت الصديقة زوجة رسول الله ﷺ رضي الله تعالى عنها وعن أبيها.

- ملخص هذه القصة أن عائشة رضي الله عنها كانت قد خرجت مع رسول الله ﷺ في هذه الغزوة غزوة بني المصطلق- بقرعة أصابتها فخرجت عائشة لقضاء لحاجتها ففقدت عقدًا لأختها كانت أعارتها إياه فرجعت تبحث عنه في الموضع الذي فقدته فيه فجاء النفر الذين كانوا يحملون هَوْدَجها- وهو البيت الصغير الذي يصنع من الحطب ويغطى بقطع من القماش ويوضع فوق الجمل - فظنوها فيه فحملوا الهودج ولم ينكروا خِفَّته لأنها رضي الله عنها كانت خفيفة اللحم وأيضًا فإن النفر لما تساعدوا على حمل الهودج لم ينكروا خفته ولو كان الذي حمله واحدًا أو اثنين لم يخف عليهما الحال فلما رجعت إلى مكان الجيش بعد أو وجدت عقدها إذا بالمكان ليس به داع ولا مجيب، فقعدت في المكان وظنت أنهم

سيفقدونها فيرجعون في طلبها فغلبتها عيناها فنامت، فلم تستيقظ إلا بقول صفوان بن المُعَطَّل: إنا لله وإنا إليه راجعون، زوجة رسول الله ﷺ؟ وكان صفوان في أخريات الجيش لأنه كان كثير النوم، فأناخ لها راحلته وما كلمها كلمة واحدة ولم تسمع منه إلا استرجاعه ثم سار بها يقودها حتى قدم بها فلحق الجيش فلما رأى الناس ذلك تكلم كل منهم بشاكلته وما يليق به فوجد الخبيث عبدالله ابن أبي بن سلول متنفسًا له فأظهر سمومه ونفاقه وحقده فجعل يستجلي الأمر ويستوشيه ويشيعه ويذيعه وينشره بين الناس فلما قدموا المدينة أفاضوا في الإفك والكذب والبهتان ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم فلما كثرت الأقاويل والأراجيف أشار عليه بعضهم بأن يفارقها ويأخذ غيرها وأشار عليه بعضهم بإمساكها فقام النبي ﷺ على المنبر يستعذر من عبد الله ابن أبي ويقول من يعذرني في رجل بلغ أذاه في أهل بيتي فأظهر أسيد بن حضير سيد الأوس رغبته في قتله فأخذت سعد بن عبادة – سيد الخزرج، وهي قبيلة ابن أبي -الحمية القبلية، فجري بينهما كلام فخفضهم رسول الله ﷺ حتى سكتوا وسكت.

-أما عائشة رضي الله عنها فقد مرضت بعد رجوعها شهرا كاملًا ولم تعلم عن حديث الإفك شيئًا ولم يخبرها رسول الله صلى الله ليه وسلم بشيء، سوي أنها كانت لا تعرف اللطف الذي كانت تعرفه من رسول الله ﷺ فلما نَقِهَتْ من مرضها خرجت مع أم مِسْطَح إلى البَرَاز ليلًا فعثرت أم مسطح في مِرْطِها، فدعت على ابنها فاستنكرت ذلك عائشة منها فأخبرتها بالخبر وقصت عليها القصة وأعلمتها بما يدور بين الناس من الحديث عنها فرجعت عائشة واستأذنت رسول الله ﷺ لتأتي أبويها فتستيقن الخبر فعرفت جلية الأمر فجعلت تبكي، فبكت لليلتين ويومًا لم تكن تكتحل بنوم ولا يرقأ لها دمع حتى ظنت أن البكاء فالق كبدها، وجاء رسول الله ﷺ في ذلك اليوم إلى بيت أهلها، فتشهد ثم قال: (أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب إلى الله تاب الله عليه) فقالت عائشة رضي الله عنها لأبيها: أجب رسول الله ﷺ عني فيما قال فقال أبوبكر والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ فقالت لأمها أجيبي رسول الله ﷺ عني فيما قال فقالت أمها والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ فقالت عائشة: والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم، وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة – والله يعلم

أني بريئة - لا تصدقونني ولئن اعترفت لكم بأمر - والله يعلـم أني منه بريئـة - لتُصَدِّقنّي، والله ما أجد لي ولكم مثلًا إلا قول أبي يوسف، قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾.

ثم تحولت فاضطجعت على فراشها، فنزل الوحي على رسول الله ﷺ فَسري عن رسول الله ﷺ وهو يضحك فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: (يا عائشة، أما الله فقد برأك)، قالت فقالت لي أمي: قومي إليه.. فقالت عائشة والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله عز وجل.

- وأنزل الله بشأن الإفك عشر آيات بدأها بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (النور: ١١).

(ب)
غزوة بني المصطلق .. أفشلت مخطط المنافقين لتمزيق وحدة المسلمين [1]

نتابع حديثنا عن غزوة بني المصطلق أو غزوة المريسيع التي تعد من الغزوات المهمة في حياة المسلمين في عهدهم الأول؛ لأنها كانت مرتعًا خصبًا للمنافقين، حيث اتخذوا فيها صنوفًا من الكيد للإسلام والمسلمين، ولنبي الإسلام ﷺ، فقد حاولوا تمزيق وحدة المسلمين بإيجاد الشقاق بين المهاجرين والأنصار، وإعادة النعرة الجاهلية، كما وقعت فيها حادثة الإفك.

وهذه الغزوة (غزوة بني المصطلق أو غزوة المريسيع) وإن لم تكن كبيرة من الناحية العسكرية، إلا أنها اشتملت على أحداث جسام، وافتضح فيها المنافقون.. وتسمى هذه الغزوة بغزوة المريسيع وهو ماء لبني خزاعة، أو غزوة بني المصطلق وهم من بطن خزاعة، وقد ساهموا مع قوات قريش في معركة أحد. جرت أحداثها في شعبان سنة خمس عند عامة أهل المغازي، وسنة ست على قول ابن إسحاق.

وسببها أنه لما بلغ الرسول ﷺ أن الحارث بن أبي ضرار -رأس وسيِّد بني المصطلق- سار في قومه، وبعض من حالفه من العرب، يريدون حرب رسول الله ﷺ، وقد ابتاعوا خيلًا وسلاحًا، واستعدوا للهجوم على المدينة، بعث رسول الله ﷺ بريدة بن الحصيب الأسلمي؛ ليستطلع له خبر القوم، فرجع بريدة وأكد للنبي ﷺ صحة هذه الأخبار..

فأسرع النبي ﷺ في الخروج إليهم في سبعمائة مقاتل وثلاثين فرسًا، وحيث إنهم كانوا ممن بلغتهم دعوة الإسلام، وكانوا قد شاركوا في غزوة أحد ضمن جيش المشركين، أغار عليهم النبي ﷺ وهم غارُّون (غافلون). فعن عبد الله بن عمر قال: «أغار النبي ﷺ على بني المصطلق وهم غارُّون، وأنعامهم تسقى على الماء، فقتل مقاتلتهم، وسبى سبيهم، وأصاب يومئذ جويرية بنت الحارث» (رواه البخاري).

---

(١) جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة " ١٢ " – عرض / ربيع سكر – ٢٢ يوليو ٢٠١٣ ... نقلا عن موقع قصة الإسلام

وفي هذه الغزوة كشف المنافقون عن مدى حقدهم على الإسلام وعلى رسول الله ﷺ، فقد ازدادوا غيظًا بالنصر الذي تحقق للمسلمين، وسعوا إلى إثارة العصبية بين المهاجرين والأنصار، فلما فشلت محاولتهم، سعى عبد الله بن أبي بن سلول -رأس المنافقين- إلى عرقلة جهود الرسول ﷺ في الدعوة، ومنع الأموال من أن تدفع لذلك، وتوعّد بإخراج النبي ﷺ من المدينة عند العودة إليها، وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

وحين علم النبي ﷺ بذلك، استدعاه هو وأصحابه (المنافقين)، فأنكروا ذلك، وحلفوا بأنهم لم يقولوا شيئًا، فأنزل الله سورة المنافقين، وفيها تكذيب لهم ولأيمانهم الكاذبة، وتأكيد وتصديق لما نقله عنهم الصحابي زيد بن أرقم، وذلك في قول الله تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٧، ٨].

ولقد استأذن عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول في قتل أبيه؛ لما قاله عن رسول الله ﷺ، فنهاه النبي ﷺ عن ذلك، وأمره بحسن صحبته.

دروس وعبر:

ومن خلال أحداث هذه الغزوة، يمكن استخلاص العديد من الدلالات والدروس المهمة، وهي كثيرة، منها:

- فضل جويرية بنت الحارث:

كان من بين الأسرى الذين أسرهم المسلمون جويرية بنت الحارث بن ضرار سيِّد قومه، وكانت بركة على قومها، فقد ذكرت أم المؤمنين عائشة «أن جويرية أتت إلى النبي ﷺ وقالت له: قد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن شماس، فكاتبته على نفسي، فجئت أستعينك على كتابي. فقال النبي ﷺ: «فهل لك في خير من ذلك؟» قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: «أقضي عنك كتابك وأتزوجك».

قالت: نعم يا رسول الله، قد فعلت. قالت (عائشة): وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية بنت الحارث، فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ، فأرسلوا ما في أيديهم من سبايا بني المصطلق.. فلقد أعتق تزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها» (رواه أحمد).

ومن ثَمّ تعتبر غزوة بني المصطلق (المريسيع) من الغزوات الفريدة المباركة التي أسلمت عقبها قبيلة بأسرها، وكان زواج النبي ﷺ بجويرية -رضي الله عنها- السبب في ذلك؛ إذ استكثر الصحابة على أنفسهم أن يكون أصهار رسول الله ﷺ تحت أيديهم أسرى، فأعتقوهم جميعًا، وهذه صورة من صور الحب والأدب من الصحابة مع رسول الله ﷺ أدت إلى إسلام القبيلة كلها.

لقد كان زواج رسول الله ﷺ من جويرية بنت الحارث -رضي الله عنها- له أبعاده وأهدافه، والتي تحققت بإسلام قومها؛ فكثر عدد المسلمين، وعاد هذا الزواج على المسلمين بالدعم المادي والمعنوي.

وكانت رضي الله عنها مع عبادتها وصلاحها، تروي من أحاديث النبي ﷺ، ولقد حدَّث عنها عبدالله بن عباس وكريب ومجاهد ويحيى بن مالك الأزدي، وبلغت أحاديثها سبعة، أضافت بها -إلى شرف صحبة النبي ﷺ وأمومتها للمسلمين- تبليغها للأمة ما تيسر لها من أحاديث المصطفى ﷺ.

-لا للعصبية والفرقة:

عند ماء المريسيع كشف المنافقون عن حقدهم الذي يضمرونه للإسلام والمسلمين، فسعوا -كعادتهم دائما إلى يومنا هذا- إلى محاولة التفريق بين المسلمين، فبعد انتهاء الغزوة -كما يقول جابر بن عبد الله-: «كسع (ضرب) رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار! وقال المهاجريّ: يا للمهاجرين!

فاستثمر المنافقون -وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول- هذا الموقف، وحرضوا الأنصار على المهاجرين، فسمع ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «ما بال دعوى الجاهلية؟» قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار. فقال رسول الله ﷺ: «دعوها فإنها منتنة» (رواه البخاري).

فمع أن اسم المهاجرين والأنصار من الأسماء الشريفة التي تدل على شرف أصحابها، وقد سماهم الله بها على سبيل المدح لهم، فقال تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الأولونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} [التوبة: ١٠٠]، إلا أنّ هذه الأسماء لما استعملت الاستعمال الخاطئ لتفريق المسلمين وإحياء للعصبية الجاهلية، أنكر ذلك رسول الله ﷺ إنكارًا شديدًا، وقال قولته الشديدة: «دعوها فإنها منتنة»؛ وذلك حفاظًا على وحدة الصف للمسلمين..

فالإسلام ينبذ العصبية بجميع ألوانها، سواء كانت عصبية تقوم على القبليّة، أو الجنس، أو اللون أو غير ذلك.

-عزة الإيمان وذل النفاق:

ظهر ذلك في موقف عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول، لما سمع بما قاله أبوه «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل»، فقال لرسول الله ﷺ: «بلغني أنك تريد قتل أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلًا فمُرْني به، وإني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي على الأرض فأقتله، فأقتل رجلًا مؤمنًا بكافر فأدخل النار». فنهاه النبي ﷺ، وقال له: «بر أباك، وأحسن صحبته» (رواه ابن حبان).

فلما وصل المسلمون مشارف المدينة، تصدى عبد الله لأبيه، وقال له: قف، والله لا تدخلها حتى يأذن لك رسول الله ﷺ بالدخول. فأذن له رسول الله ﷺ.. فظهر بذلك مَنِ العزيز ومَنِ الذليل.. ولقد ضرب عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول -رضي الله عنه- بهذا الموقف مثالًا عمليًّا للإيمان في أوثق عُرَاه، وهو الولاء والبراء.

حكمة وصبر النبي ﷺ:

قابل النبي ﷺ ما فعله عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول، بمثال رفيع في الحكمة والصبر، والعفو وحسن الصحبة، فلو أمر النبي ﷺ أو أذن لعبد الله بن عبد الله بن أبي بقتل أبيه لقتله، لكنه ﷺ قال له: «بر أباك وأحسن صحبته».. فلم يكن النبي ﷺ ينتقم أو يغضب لنفسه، بل يغضب لله عز وجل.

ثم إن هذا الموقف من رسول الله ﷺ فيه محافظة على وحدة الصف الداخلية، وعلى

السمعة الطيبة؛ ففرق كبير بين أن يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه، وبين أن يتحدث الناس عن حبّ أصحاب محمد لمحمد ﷺ.

وهكذا كانت هذه غزوة بني المصطلق رغم صغرها من الناحية العسكرية، إلا أن فيها من الدروس والمعاني الكثير، التي ينبغي أن يقف المسلمون معها للاستفادة منها في واقعهم.

ولنا أن نستفيد من هذه الغزوة دروسًا وعظات، نستخلصها من الحوادث المصاحبة لهذه الغزوة، وخاصة حادثة الإفك التي أظهرت خطر المنافقين وجرأتهم، حتى نالوا من عرض رسول الله ﷺ، ثم ما ينبغي على المؤمن فعله عند سماع الشائعات من حفظ اللسان وعدم الخوض فيها ، يضاف إلى ذلك الصبر، وعدم التعجل في الأمور عند الابتلاء، أسوة بالنبي ﷺ، كما برز في هذه الغزوة خلق العفو والتسامح، وتجسد ذلك في موقفه مع اليهود وخاصة مع رأس المنافقين أبي بن سلول .

ومما يشار إليه في أحداث هذه الغزوة نزول سورة المنافقون، التي كشفت أخبار المنافقين، وأشارت إلى بعض الحوادث والأقوال التي وقعت منهم، وفضحت أكاذيبهم.



(٧)
غزوة الخندق[1]

وقعت معركة الخندق» الأحزاب « في العام ال ٥ من الهجرة بعد ان وصل في شوال من عام ٥هـ إلى حدود المدينة المنورة ١٠ آلاف مقاتل مشرك من قريش وغطفان وبني سليم وغيرهم بالإضافة إلى يهود المدينة الذين تحالفوا مع مشركي قريش ضد الرسول ﷺ. وهي معركة لم يحدث فيها قتال شديد، وقتلى المؤمنين والكفار يعدون على الأصابع، ومع ذلك لم تكن معركة عادية، بل كانت من أحسم المعارك في تاريخ الإسلام والمسلمين، وكانت ابتلاءً وامتحانًا، وتمييزًا بين المؤمنين والمنافقين .. ومن ثم تُعد غزوة الأحزاب من أهم الغزوات التي مرت بالمسلمين بالمدينة المنورة، ليس فقط لخطورتها أو صعوبتها، أو لانتصار المسلمين فيها، ولكن لأنها كانت غزوة فاصلة بين مرحلتين رئيستين من مراحل الحياة للدولة الإسلامية في المدينة المنورة..

ويقول المؤرخ الإسلامي الدكتور راغب السرجاني : لم يكتف رسول الله بحفر الخندق حول المدينة ، بل جمع الصحابة ثلاثة آلاف، ونظم نقاط الحراسة للخندق، وفرق للقتال، وكتائب للمقاومة، حتى يمنع المشركين من تخطي الخندق تحت أي ظرف.

وكان وقع المفاجأة مهولا على المشركين، إنها مكيدة ما عرفها العرب من قبل في فنون القتال، لقد أعدوا العدة لكل شيء، إلا أمر هذا الخندق المدهش.

بدأ المسلمون في رشق المشركين بالنبال لكي يمنعوهم من عبور الخندق أو ردمه، وحاول المشركون بكل ضراوة أن يقتحموا الخندق، ونجح بعضهم فعلا في العبور من مكان ضيق في الخندق بفرقة على رأسها أحد أبطالهم اسمه عمرو بن عبد ود، ومعه عكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب وغيرهم، ولكن تصدى لهم المسلمون، حيث حدثت مبارزة رهيبة بين عمرو بن عبد ود وعلي بن أبي طالب حتى قتله البطل الإسلامي

---

(١) جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة " ١٣ " – عرض / ربيع سكر – ٢٣ يوليو ٢٠١٣ ... نقلا عن موقع قصة الإسلام

العظيم علي بن أبي طالب، وهرب بقية الرجال الذين جاءوا معه، وتكررت محاولة المشركين مرة واثنتين، وعشرة، وتصدى أسيد بن حضير في كتيبة من مائتي مسلم لفرقة فرسان خالد بن الوليد واستطاع أن يردهم منهزمين

كان الصراع يدور لفترات طويلة حتى أنه في أحد الأيام ظل المسلمون يدافعون عن الخندق من قبل صلاة العصر إلى ما بعد المغرب فضاعت عليهم صلاة العصر، وكان هذا الحدث فريدًا في السيرة، وانزعج المسلمون بشدة لأنهم أضاعوا الصلاة، وقال كما جاء في البخاري عن علي : «مَلأَ اللهُ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا كَمَا شَغَلُونَا عَنِ الصَّلاةِ الْوُسْطَى حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ».

بل إن مسند أحمد والشافعي ذكرا أن الكفار أضاعوا على المسلمين في يوم آخر صلاة الظهر والعصر والمغرب، فصلاها المسلمون جميعا مع صلاة العشاء.

كانت المقاومة فعلًا شرسة، وأصيب فيها بعض الصحابة، وطال الحصار.

لم يكن يومًا أو اثنين، ولا أسبوعًا أو اثنين، بل لمدة شهر كامل، وكان الموقف صعبًا على المسلمين، كما كان صعبًا على الكافرين.. ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ﴾[النساء:١٠٤].

خيانة بني قريظة:

وأسقط في أيدي الكافرين، واحتاروا في كيفية حل موقفهم ذلك، حتى جاءهم الحل أخيرًا، وكان من عند اليهود. فاليهود مثلما جمعوا هذه الأعداد كلها ما زالوا يفكرون في استئصال المسلمين، وبدءوا يفكرون في الطريقة التي تمكنهم من ذلك، وكان مع المشركين أحد زعماء اليهود، وعتاتهم وهو حيي بن أخطب، وكان من أشدهم كفرًا وحقدًا وغلًا وحسدًا، فكر في الأمر، فلم يجد له مخرجًا إلا في يهود بني قريظة.

بنو قريظة كما ذكرنا كانوا في الجنوب الشرقي للمدينة، فلو فتحوا الباب من جهتهم لدخول المشركين المدينة، لانتهت المدينة، فماذا يحدث لو حاربوا مع المشركين، وراقت تلك الفكرة للمشركين جدًّا، ولم يتبق إلا إقناع بني قريظة بمخالفة العهد مع رسول الله، والسماح للمشركين بدخول المدينة لاستئصال الشعب المسلم بكامله، وذهب حيي بن

أخطب لأداء مهمته القذرة والتقى بزعيم بني قريظة كعب بن أسد، فقال حيي: إني قد جئتك يا كعب بعز الدهر، جئتك بقريش على قادتها وسادتها، وبغطفان على قادتها وسادتها، وقد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يرجعوا حتى نستأصل محمدًا ومن معه.

قال كعب: جئتني والله بذل الدهر، ويحك يا حيي، فدعني وما أنا عليه فإني لم أر من محمد إلا صدقًا ووفاءً.

لكن حيي ظل يكلم كعبًا ويزين له، ثم وعده إن تخلت قريش وغطفان عنه أن يدخل معه في حصنه، ويتحمل معه ما يحدث بعد ذلك.

وتحت تأثير شيطان بني النضير وقع شيطان بني قريظة، وقرر التحالف مع المشركين لتنفيذ ما ذكره حيي: لا نبرح حتى نستأصل محمدًا ومن معه.

وقضى التحالف ليس فقط بفتح باب للمشركين لدخول المدينة، بل وتجهيز فرق عسكرية للحرب ضد المسلمين. كارثة! المدينة على أبواب هلكة قريبة.. ماذا يحدث لو تمكن عشرة آلاف مسلح إضافة إلى يهود بني قريظة من اقتحام المدينة؟ لا أحسب أن أحدًا كان سيبقى حيًا في المدينة آنذاك.

يجب أن نضع هذا الأمر في اعتبارنا لكي نفهم رد فعل الرسول على بني قريظة لِمَا بدر منهم من خيانة.

على الفور نقلت المخابرات الإسلامية إلى رسول الله نبأ خيانة اليهود له، نعم، كان رسول الله على حذرٍ من اليهود، يعلم أنهم لا يرقبون في مؤمن إلًا ولا ذمة، ولذلك وضع عليهم هذه المراقبة.

وخبروني بالله عليكم: هل من قبيل المصادفة أن يخون مائة بالمائة من اليهود في تعاملهم مع الرسول ؟ هل من قبيل المصادفة أن يظهر الانحراف في بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة؟

لا شك أن هذه ليست مصادفة ولا شك أن هذا الواقع لا بد أن ندركه جميعًا، ذكره ربنا ا في كتابه حيث قال: قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[البقرة: ١٠٠].

هكذا في كل مرة، يجب أن يخونوا، ويغدروا، وهذه ليست مصادفة، هذه قاعدة، وطبيعة متأصلة في نفوسهم، لا عهد لهم ولا ذمة.

وصل الخبر للرسول ، وقبل أن يتخذ أي قرار أراد أن يستوثق من الخبر، أرسل مجموعة من الصحابة للتأكد، فيهم سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وعبد الله بن رواحة وغيرهم، ولما تكلموا معهم جهر يهود بني قريظة بالسوء، وسبوا الرسول وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد.رجع الصحابة بسرعة إلى رسول ، وقالوا: عضل وقارة. أي غدر كغدر عضل وقارة بالصحابة عند ماء الرجيع.

حزن الرسول حزنًا شديدًا لهذا الخبر لدرجة أنه تقنع بثوبه (غطى رأسه بالثوب) ومكث طويلًا، وفكر فيما سيحدث.ثم رفع رأسه فجأة وقال للمسلمين بصوت عال: «اللهُ أَكْبَرُ، أَبْشِروا يَا مَعْشَر المُسْلِمِينَ بِفَتْحِ اللهِ وَنَصرِهِ». يحاول قدر المستطاع أن يرفع من همة الصحابة .

انتشار خبر خيانة بني قريظة:

وعلى الرغم من محاولاته لتجنب انتشار الخبر إلا أن الله شاء للخبر أن ينتشر، وهذا لحكمة واحدة، الابتلاء والتنقية والتمييز بين صفوف المؤمنين وصفوف المنافقين.

كل ما حدث من الأحزاب وحصار المدينة كان درجة من درجات الابتلاء، أما الآن فقد وصل المسلمون إلى ما أسميه بمرحلة الزلزال، المرحلة التي يزلزل فيها المسلمون زلزالًا لا يثبت فيه إلا الصادقون حقًا، أما المنافقون مهما كانت درجة نفاقهم فلا شك أنهم سيقعون، مرحلة الزلزال، مرحلة خطيرة، لا بد منها قبل أن يأتي النصر، ولكن إذا أتت فمعناها أن النصر قريب إن شاء الله.

لكن المنافقين طبعًا وضعهم مختلف، المشركون من حول المدينة واليهود. لا أمل مطلقًا في نظرهم في النجاة وكان أحدهم يقول: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط ويبدأ المنافقون في التسرب من الصف.. الفرار . ويبدأ الصف المسلم، والحمد لله، ينقى من الشوائب، من المنافقين، وهذا كله من مبشرات النصر.

وأرسل رسول الله فرقة لحماية لجبهة الداخلية للمدينة المنورة، ويجب أن نفكر في الموقف الجديد بسرعة، لقد أصبح الحصار الآن من قريش وغطفان واليهود ماذا نفعل؟

ابتلاء سعد بن معاذ:

وكأن الله أراد أن يختبر الصدق في كلام سعد بن معاذ ، فحدث أمر شاق على المسلمين كثيرًا، ولكنه كان حلمًا لسعد بن معاذ.

لقد أصيب سعد بن معاذ البطل الإسلامي الشاب ، أصيب بسهم في ذراعه أو كتفه وكانت الإصابة شديدة خطيرة.

وكانت أزمة فوق الأزمات، وهذا زعيم الأوس وهذا حكيم المسلمين وهذا المطاع في قومه وهذا الحبيب ليس فقط لرسول الله بل لله رب العالمين، سعد بن معاذ قيمة كبيرة جدًّا في الإسلام، كانت أزمة كبيرة جدًّا، فماذا كان رد فعل سعد لهذه الإصابة؟ شاب يصاب إصابة قاتلة وهو في السابعة والثلاثين من عمره، ماذا يقول؟

قال سعد يدعو الله: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدًا أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أُجَاهِدَهُمْ فِيكَ مِنْ قَوْمٍ كَذَّبُوا رَسُولَكَ وَأَخْرَجُوهُ، اللَّهُمَّ فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّكَ قَدْ وَضَعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَإِنْ كَانَ بَقِيَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْءٌ، فَأَبْقِنِي لَهُمْ حَتَّى أُجَاهِدَهُمْ فِيكَ، وَإِنْ كُنْتَ وَضَعْتَ الْحَرْبَ فَافْجُرْهَا وَاجْعَلْ مَوْتَتِي فِيهَا».

يا الله! شاب عنده ٣٧ سنة يرجو الله ألا يموت حتى يجهز على قريش، ويتمنى ألا يلتئم جرحه لكي يموت شهيدًا، عندما يصبح الموت أمنية.

هذه موتة شهيد، يدعو الله ألا تفوته فرصة الشهادة في سبيل الله.

ثم قال في آخر دعائه: «وَلاَ تُمِتْنِي حَتَّى تُقِرَّ عَيْنِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ».

حتى في لحظاته الأخيرة لا ينسى غدر بني قريظة، ولا ينسى هموم الأمة الإسلامية.

وكفى الله المؤمنين القتال:

تأزم الموقف جدًّا لم يعد في الصف المسلم أحد من المنافقين، وبذل المسلمون جهدهم كله، حفروا الخندق في وقت قياسي، تحملوا في سبيل الله الجوع والبرد، حموا الخندق، ودافعوا عنه بأرواحهم، قاتلوا بضراوة، تعبوا، كافحوا ، قاموا بالمشاورات، واجتهدوا في

الدعاء؛ لأن النصر من عند الله.

كان المسلمين يدعون الله تعالى أيام الأحزاب يقولون: اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا. وكان الرسول يقول: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ سَرِيعَ الْحِسَابِ اهْزِمِ الْأَحزاب، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ».

بعد أن بذل المسلمون كل طاقتهم، ووسعهم ومحاولاتهم، يأتيهم نصر الله، ولا شك، ويأتيهم بطريقة إلهية، وترتيب رباني، حتى يعلم الجميع، ويوقنوا أن النصر من عند الله.

هزيمة الأحزاب:

وتم نصر الله وأرسل رسول الله حذيفة بن اليمان إلى معسكر الكفار ليطمئن على سير الأحداث، وعلى فعل الرياح بهم وعلى أثر الفرقة التي أحدثها نعيم بن مسعود ، فعاد حذيفة بالخبر الجميل وبالنصر العظيم.

لقد عزم الجميع على الرحيل.

كل ذلك بدون قتال.

قال عز وجل : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾[الأحزاب:٢٥].

وانتهت واحدة من أعظم معارك المسلمين مع أنه لم يحدث فيها قتال، وكان الله يريد أن يقول لنا، ليس المطلوب هو تحقيق النصر، ولكن المطلوب هو العمل من أجله، المطلوب هو قرار الجهاد، والثبات في أرض المعركة، المطلوب هو صفات الجيش المنصور، أما النصر فينزل بالطريقة التي يريدها رب العالمين، وفي الوقت الذي يريده الله .

***

(٨)
غزوة بني قريظة[1]

في آخر ذي القعدة من السنة الخامسة من الهجرة، نقضت يهود بنو قريظة عهدهم مع رسول الله ﷺ، فأمكن الله تعالى المؤمنين منهم، فقضوا فيهم بحكم الله تعالى الذي أنزله. وأكبر دليل على أن اليهود أغدر الناس وأخونهم: أن كل قبائلهم في المدينة نقضت عهودها مع رسول الله ﷺ، فحُقّ عليهم العذاب في الدنيا؛ فمنهم من هُجّروا وأخرجوا من ديارهم، ومنهم من قُتلوا وسبيت نساؤهم وذراريهم.

يقول المؤرخ الإسلامي الدكتور راغب السرجاني : وإن كانت قصة الأحزاب قد انتهت فقصة بني قريظة لم تنته بعد، اليهود أعداء الله وأعداء رسوله وأعداء المؤمنين وأعداء الحق وأعداء الأخلاق الحميدة وأعداء كل خير.

رجع الرسول من الخندق بعد صلاة الصبح وذهب إلى بيته بعد غياب قرابة الشهر، وبعد عناء كبير ومشقة بالغة واغتسل ، فإذا بجبريل قد جاء عند الظهر فقال له: قد وضعت السلاح؟! والله ما وضعناه. أي: نحن الملائكة لم نضعه بعد.

بل في رواية عن السيدة عائشة في الطبري تقول: فكأني برسول يمسح الغبار عن وجه جبريل. أي أن جبريل كان يقاتل قتالًا حقيقيًا في أرض المعركة.

قال جبريل: اخْرُجْ إِلَيْهِمْ.

قال النبي : «فَأَيْنَ؟»فأشار إلى بني قريظة.

وفي رواية أن جبريل قال: «فَإِنِّي سَائِرٌ أمامكَ أُزَلْزِلُ بِهِمْ حُصُونَهُمْ، وَأَقْذِفُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ».

وهكذا سار جبريل في موكبه من الملائكة، أما الرسول فقد أمر المسلمين بالتوجه السريع

(١) جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة " ١٤ " – عرض / ربيع سكر – ٢٤ يوليو ٢٠١٣ ... نقلا عن – موقع قصة الإسلام – الدكتور راغب السرجاني

إلى بني قريظة، لم يمهلهم حتى يرتاحوا بعد هذا الشهر الصعب من الحرب والحصار، الراحة هناك في الجنة أما الدنيا فدار عمل، قال لهم: «لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْعَصرَ إلاَّ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ». وهكذا اجتمع الرسول والصحابة في ثلاثة آلاف مقاتل (غير الملائكة) في حصار بني قريظة، واستمر الحصار خمسًا وعشرين ليلة.

هل تتصور أن يستمر الحصار كل هذه المدة، بعد جهد ومشقة كان المسلمون فيها منذ شهر بأكمله، ألا يزال بوسعهم أن يحاصروا اليهود، بل ويتحولون من محاصرين إلى محاصرين، لقد تغير الحال في لحظات من الهزيمة إلى النصر.

يُبَدِّلُ اللهُ مِنْ حَالٍ إلى حَالٍ ... مَا بَيْنَ طَرْفَةِ عَيْنٍ وَانْتِبَاهَتِهَا

نهاية الحصار وتحكيم سعد بن معاذ:

وفي نهاية ذلك الحصار قذف الله الرعب في قلوب اليهود، فاستسلموا وخضعوا لحكم رسول الله مع أنهم كان بإمكانهم المطاولة في الحصار، فأمر رسول الله بهم أن يقيدوا، وقيدوا فعلًا، فجاءت الأوس إلى رسول الله، وكانوا محالفين لبني قريظة في الجاهلية، فقالوا: يا رسول الله، قد فعلت في بني قينقاع ما قد علمت، وهم حلفاء إخواننا الخزرج، وهؤلاء موالينا، فأحسن فيهم.

فقال: «أَلاَ تَرْضَوْنَ أَنْ يَحْكُمَ فِيهِمْ رَجُلٌ مِنْكُمْ؟»

قالوا: بلى.

قال: «فَذَاكَ إلى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ».

قالوا: قد رضينا.

فأرسل رسول الله في طلب سعد بن معاذ؛ لأنه كان في المدينة، لإصابته البالغة التي تعرض لها في الأحزاب، فجاء راكبًا حمارًا، فالتف حوله الأوس، وقالوا له: يا سعد، أجمل في مواليك، فأحسن فيهم؛ فإن رسول الله قد حكمك لتحسن فيهم، وهو ساكت لا يرجع إليهم شيئًا، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم.

فلما سمعوا ذلك منه رجع بعضهم إلى المدينة فنعى لهم القوم.

ولما انتهى سعد إلى النبي قال للصحابة: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ».

فلما أنزلوه قالوا: يا سعد، إن هؤلاء قد نزلوا على حكمك.

قال: وحكمي نافذ عليهم؟

قالوا: نعم.

قال: وعلى المسلمين؟

قالوا: نعم.

قال: وعلى من هاهنا؟ وأعرض بوجهه وأشار إلى ناحية رسول الله إجلالًا له وتعظيمًا.

قال: «نَعَمْ، وَعَلَيَّ».

قال: فإني أحكم فيهم أن يقتل الرجال، وتسبى الذرية، وتقسم الأموال.

فقال رسول الله : «لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ».

وعلى الفور بدأ المسلمون بتنفيذ حكم سعدٍ، فجمعوا الرجال، فقتلوهم، وهكذا قتل من اليهود أربعمائة رجل وفي رواية سبعمائة، وقتل مع هؤلاء شيطان بني النضير، وأحد أكابر مجرمي معركة الأحزاب حيي بن أخطب والد صفية أم المؤمنين ﷺ، وكان قد دخل مع بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان؛ وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه حينما جاء يثيره على الغدر والخيانة أيام غزوة الأحزاب، فلما أتي به، وعليه حُلَّة قد شقها من كل ناحية بقدر أنملة لئلا يُسْلَبَها، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، قال لرسول الله : أما والله ما لمت نفسي في معاداتك، ولكن من يُغالب الله يُغْلَب.

ثم قال: أيها الناس، لا بأس بأمر الله، كتاب وقَدَر ومَلْحَمَة كتبها الله على بني إسرائيل، ثم جلس، فضربت عنقه، فقتل.

وخرج تلك الليلة عمرو بن سعدى، وكان رجلًا لم يدخل مع بني قريظة في غدرهم برسول الله ، أي أن القتل كان للغادرين فقط، فمن لم يغدر معهم، لم يقتله المسلمون، فرآه محمد بن مسلمة قائد الحرس النبوي، فخلى سبيله حين عرفه، فلم يعلم أين ذهب؟

وليس هناك مجال للقول أنه كان هناك تجاوز في العقاب الذي وقع باليهود في بني قريظة،

فإن هذا ما كانوا يريدون فعله بالمؤمنين منذ أيام قليلة مع كونهم كانوا على العهد، والجزاء من جنس العمل ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله.

وفاة سعد بن معاذ:

وسبحان الله! بعد ما انتهت قصة بني قريظة استجاب الله لدعوة العبد الصالح سعد بن معاذ، فانفجر جرحه وسالت منه الدماء حتى خرجت من خارج خيمته ليلقى ربه سعيدًا راضيًا، ويكفيه ما قاله في حقه كما جاء في البخاري، وفي الصحيحين عن جابر أن رسول الله قال: «اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمَنِ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ».

وصحح الترمذي من حديث أنس قال: لما حملت جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون: ما أخف جنازته، فقال رسول الله: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ كَانَتْ تَحْمِلُهُ».

ذلك أن قيمته عظيمة جدًّا في الإسلام، وعند المسلمين، على الرغم من أن كل عمره في الإسلام لم يتجاوز الست سنوات، إلا أن إنجازه يعجز أن يفعله الكثيرون في أعمار طويلة.

الخلاصة:

هذه قصة الأحزاب وبني قريظة، لقد كانت موقعة عجيبة بلا قتال تقريبًا، وكفى الله المؤمنين القتال، ولكنها كانت امتحانًا عظيمًا لم يثبت فيه إلا الصادق حقًّا، وكانت في نفس الوقت غزوة فارقة، فرقت بين مرحلتين رئيسيتين في السيرة، فما قبل الأحزاب شيء وما بعد الأحزاب شيء آخر.

فقبل الأحزاب كان الاضطراب والقلق والمشاكل الكثيرة وعدم الاستقرار، أما بعد الأحزاب فقد نضجت الدولة الإسلامية نضوجًا جعلها قادرة على الوقوف بصلابة في وجه كل أعدائها، لقد رسخت الأحزاب أقدام المسلمين في الجزيرة، ولم يجرؤ بعد ذلك أحد على تحدي هذا الكيان الصلب الجديد.

لقد كان الرسول عميقًا جدًّا في تحليله غزوة الأحزاب بعد رحيل الكفار حيث قال: «الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلاَ يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ».

لقد كانت ما بين الهجرة والأحزاب فترة تأسيس الدولة الإسلامية، أما الفترة التي ستأتي بعد الأحزاب فستكون فترة تمكين دين الله في الأرض، سنرى فيها صلح الحديبية وفتح

خيبر ومؤتة وفتح مكة وحنين وتبوك.

سنرى فيها المراسلات إلى ملوك العالم وأمرائه.

سنرى فيها انتشار دين الله في المدن والبوادي.

سنرى فيها تسابق الوفود لإعلان إسلامهم بين يدي الحبيب.

ستكون فترة سعيدة حقًّا، وكل أحداث السيرة سعيدة، وكيف لا، وهي حياة أفضل العالمين، وخير البشر، وسيد الدعاة، وأمام الأنبياء.

من دروس غزوة بني قريظة:

يقول الكاتب الإسلامي إبراهيم الحقيل : في غدر بني قريظة وغدرهم درس لنا ولئن كانت خيانة بني قريظة شاهدة على ذلك، فإن التاريخ مليء بالنماذج التي تدل على هذه السُّنَّة، وتؤكد تلك الحقيقة.. ففي أثناء الحروب الصليبية أسس نصارى الشرق من الأقباط والموارنة لواء كاملًا يعين نصارى الغرب على إبادة المسلمين، ويدل على عوراتهم، رغم العداوة الشديدة بين نصارى الشرق وهم الأرثوذكس، ونصارى الغرب وهم الكاثوليك.

وفي اجتياح التتار لبلاد المسلمين، وقضائهم على الخلافة العباسية انحاز البعض إلى المغول ضد المسلمين، وهذه النماذج الخائنة تتكرر عبر العصور والدول، وما أكثرهم في هذا العصر، وأشد تمكنهم في كثير من بلاد أهل الإسلام!!

ولئن دلّ التاريخ على هذه الحقيقة فإن في واقعنا المعاصر نماذج منها، ففي اجتياح الصرب للبوسنة كان صرب البوسنة يدلون المحاربين من صربيا على جيرانهم وأبناء وطنهم من المسلمين، ويشاركون العدو الغاشم في إبادة أبناء وطنهم، وكذلك

وكل هذه النماذج السيئة من الغدر والخيانة ما هي إلا صورة مكررة من خيانة بني قريظة، وإذا ما ألمت بأهل أي بلاد ملمة، ودهمها عدوها ظَهَر هؤلاء الخونة على حقيقتهم، وركلوا وطنيتهم، وأعلنوا العداء السافر لمن أحسنوا إليهم، وحفظوا لهم حقوقهم، ولم يكرهوهم على دينهم..

والتاريخ والواقع المعاصر مليئان بالشواهد على ذلك، والكيّس الفطن لا ينخدع

بالشعارات دون الحقائق، ولا يغشى على بصره لحن القول، وكثرة الوعود والعهود.. فكم من وعد أخلف! وكم من معاهد غدر! ولا قوة للمسلمين ولا نجاة لهم من غدر الغادرين، وخيانة الخائنين، ورد كيد الكائدين إلا بالتمسك بدينهم، وتحكيم شرع ربهم، ومخالفة من يريدون إضعاف المسلمين بتبديل دينهم، وتغيير مناهجهم، وحرفهم عن منهجهم، مع أخذ الحيطة والحذر منهم ، وعدم تمكينهم في بلاد المسلمين، والاستعانة بالله تعالى على كل خائن وغادر، وإعداد العُدّة لإرهاب أعداء الخارج، وتخويف أهل الغدر والخيانة ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[الأنفال: ٦٠].

(٩)
غزوة خيبر[(١)]

ما كاد رسول الله ﷺ يعود من صلح الحديبية ، ويستريح بالمدينة شهرًا من الزمن حتى أمر بالخروج إلى خيبر . فقد كان يهود خيبر يعادون المسلمين وقد بذلوا جهدهم في جمع الأحزاب في غزوة الخندق لمحاربة المسلمين . ولم يهدأ يهود خيبر عن الكيد ضد الإسلام، فكوَّنوا جبهة معادية للمسلمين، واستمالوا قبيلة غطفان والأعراب المجاورين لهم في شمال المدينة، فخرج النبي على رأس جيش لتأديبهم والقضاء على خطرهم. وكانت تلك الموقعة الرابعة بين المسلمين واليهود، فالأولى كانت مع يهود بني قينقاع، والثانية مع بني النضير، والثالثة مع بني قريظة. وخرج رسول الله عليه الصلاة والسلام في مطلع العام السابع الهجري في جيش تعداده ألف وستمائة رجلٍ . وكانت خيبر محصنةً تحصينًا قويًا فيها ثمانية حصونٍ منفصلٌ بعضها عن بعض .وكان يهود خيبر من أشد الطوائف اليهودية بأسًا وأكثرها وأوفرها سلاحًا .

الرسول يعطي الراية لعلي بن أبي طالب:

قال المؤرخ الإسلامي الدكتور راغب السرجاني : قام الرسول وخطب في الناس، وقال لهم: "لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ، وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ". وحين قال الرسول هذه الكلمات، وأصبح في اليوم الثاني حتى يُعطِي الراية لمن وعد، قام كل الصحابة متشوِّقين لحمل هذه الراية، فقال : "أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟". فقال الناس: يا رسول الله، هو يشتكي عينيه. فأرسل رسول الله إلى علي بن أبي طالب، وكان عنده رمدٌ في عينيه، وكان لا يرى إلا بصعوبة، وقال الناس: يا رسول الله، إنه مريض في عينيه. وأصر الرسول مع ذلك على الإتيان بعليٍّ ، ووضع الرسول على عينيه من ريقه، وسبحان الله! بَرِئ علي بن أبي طالب ، وأصبح يرى كأن لم يكن به أي مرض، وأعطاه الراية. وكان الجميع يرون أن ظروف علي بن أبي طالب لا تسمح له بالقيادة، ولكن الله يسر له ذلك

(١) جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة " ١٥ " – عرض / ربيع سكر – ٢٥ يوليو ٢٠١٣ ... نقلا عن – موقع قصة الإسلام للدكتور راغب السرجاني

الأمر.

الرسول يأمر علي بن أبي طالب بدعوة اليهود إلى الإسلام:

مع كل الجرائم التي فعلها اليهود، وذلك التاريخ الأسود لهم مع المسلمين، إلا أن الرسول كان حريصًا على هدايتهم، ودخولهم في نور الإسلام. قال علي بن أبي طالب : "يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا". فقال رسول الله لعلي بن أبي طالب موضِّحًا الغاية من الحرب في الإسلام، قال : "انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإسلام، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ تَعَالَى فِيهِ، فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ".

المسلمون يضربون الحصار على خيبر:

وصل الصحابة -رضوان الله عليهم- إلى خيبر، ويبدأ الرسول يدرس الموقف، فمن أيِّ الحصون يدخل خيبر؟ فخيبر عبارة عن منطقة ذات حصون كثيرة، وكان حصن ناعم من الحصون القوية في خيبر، واقترب الرسول من هذا الحصن، وأرسل علي بن أبي طالب ليدعوهم إلى الإسلام. وهنا لا يجب أن يقول قائل: إنه لا إكراه في الدين، فلماذا يدعوهم إلى الإسلام ثم إذا رفضوا حاربهم؟ إن الحرب هنا ليست عقابًا لليهود على تركهم للإسلام، وليست عقابًا لهم على رفض الدعوة الإسلامية، ولكن الرسول جاء من المدينة المنورة إلى خيبر ليعاقب اليهود على جرائمهم المتعددة السابقة، وعلى تحزيبهم الأحزاب وحصارهم للمدينة المنورة، وعلى تخابرهم مع المنافقين في داخل المدينة المنورة، وعلى محاولتهم اغتيال الرسول ، وعلى تحفيزهم لغطفان أكثر من مرة على حرب المسلمين؛ فلذلك قرر أن يقاتلهم وأن يعاقبهم، ولكنه يريد أن يعطيهم فرصة أخيرة ليرفعوا عن أنفسهم العقاب الذي يستحقونه، فقال: إن أسلمتم رفعنا عنكم العقاب، ونسينا كل ما سبق. وهذه سعة صدر ورحمة من رسول الله ، ولكن اليهود رفضوا هذه الدعوة، ورفضوا دعوة علي بن أبي طالب لدخولهم في الإسلام، وقرروا الحرب، واغتروا بقوتهم وأعدادهم وحصونهم.

تحريم الحُمُر الأهلية في خيبر:

احتدم اللقاء بين الصحابة وبين اليهود، فهذا اللقاء لم يكن ساعة أو ساعتين، ولكنه

استمر عِدَّةَ أيام متصلة حتى تسلل اليهود من حصن ناعم وتركوه فارغًا للمسلمين، وكان هذا التسلل ليلًا، وانتقلوا إلى الحصن الذي وراءه، وتحصنوا في حصن الصعب بن معاذ، وتوجه الرسولإليه ، وحاصره حصارًا شديدًا، وأراد الله أن يبتلي المؤمنين، فأوقعهم في أمر صعب إلى جوار صعوبة الحرب، وهو أمر الجوع؛ وعندما ازداد الجوع على المسلمين، قام بعض رجال الجيش الإسلامي بذبح بعض الحمير للأكل. ولكن الرسول في هذا الموقف الصعب قام ونَهَى عن أكل لحوم الحُمُر الأهليَّة، وقال: "لاَ تَأْكُلُوا مِنْ لُحُومِ الْحُمُرِ شَيْئًا وَأَهْرِقُوهَا". إنها التربية الإيمانية العالية! وهذا من أعظم أسباب النصر.

سقوط حصن الصعب وقلعة الزبير في يد المسلمين:

وبفضل لجوء المسلمين إلى الله ، جاء النصر من السماء؛ ففي اليوم التالي فتح الله عليهم حصن الصعب بن معاذ، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى حصن قلعة الزبير، وظل الحصار ثلاثة أيام، ثم ألقى الله الرعب في قلب رجل من اليهود فأتى وتسلل من الحصن، وجاء إلى الرسول وطلب الأمان، وقال له: يا أبا القاسم، إنك لو أقمت شهرًا تحاصرهم ما بالوا بك، إن لهم شرابًا وعيونًا تحت الأرض، يخرجون بالليل ويشربون منها، ثم يرجعون إلى قلعتهم دون أن يشعر المسلمون بهم. وقال اليهودي: فإن قطعت مشربهم عليهم خرجوا لك؛ لأنهم لا يستطيعون أن يعيشوا من غير ماء. فوصل الرسول إلى هذه المياه وقطعها عن اليهود، فخرجوا إليه وقاتلوا قتالًا شديدًا، واستمر القتال حتى انتصر المسلمون وافتتحت قلعة الزبير، وكان القتال في منتهى الضراوة وبذلك فتح الرسول الحصون الثلاثة الأولى، وهي حصن ناعم والصعب بن معاذ والزبير.

اليهود ينتقلون إلى حصون منطقة الشق:

وبعد هذه الفتوح انتقل اليهود إلى الحصن الذي يليه، وهو حصن (قلعة أُبَيّ) أحد حصون منطقة الشِّقّ. ودار قتال عنيف ثم هرب اليهود إلى داخل الحصن الذي يليه، وهو حصن النزار وهذا هو الحصن الخامس، ووقف الرسول محاصرا لهذا الحصن عدة أيام، ولكن هذا الحصن كان أمنع حصون هذا الشطر مطلقًا؛ وهنا لجأ الرسول إلى طريقة جديدة في الحرب، فقد أخرج المنجنيق، وكان المسلمون قد استولوا على المنجنيق من بعض الحصون اليهودية السابقة، ويقال: إنها كانت في حصن الصعب بن معاذ. ونصب

الرسول المنجنيق ويبدأ يضرب حصن النزار، حتى أحدث المسلمون خللًا في داخل بعض الجدارن في هذا الحصن، ومن هذا الخلل تسلل المسلمون إلى داخل الحصن، ودار قتال من أعنف أنواع القتال في معركة خيبر الرهيبة. وكما ترون استمر اللقاء فترة من الزمان، وكتب الله النصر للمسلمين للمرة الخامسة، وفتح المسلمون الحصن العظيم حصن النزار.

هرب اليهود إلى حصون المنطقة الأخرى، وكان اسمها حصون (الكتيبة)، ولكن اليهود كانت قد أصابتهم هزيمة نفسيَّة كبيرة نتيجة للهزيمة في أكثر من موقعة في خيبر؛ وقد سلم حصنان من دون قتال .

اليهود يطلبون الصلح مع الرسول:

طلب اليهود بعد عدة أيام أن ينزلوا على الصلح، وأن يدخلوا في نوع من المفاوضات مع رسول الله ، وكانت خلاصة المفاوضات في صالح المسلمين مائة في المائة، فقد صالح اليهود الرسول على حَقْن دمائهم، ودماء كل من في الحصون من المُقَاتِلَةِ والذرية والنساء، على أن يتركوا خلفهم الديار والسلاح والأموال والذهب والفضة، ويخرجوا بملابسهم فقط في أكبر هزيمة من هزائم اليهود مطلقًا. والحقيقة أن الانتصار كان كبيرًا بالنسبة للمسلمين، وشرط الرسول في هذه المعاهدة عليهم شرطًا مهمًّا، فقال: "وَبَرِئَتْ مِنكُمْ ذِمَّةُ اللهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ إِنْ كَتَمْتُمُونِي شَيْئًا". أي: لو أن اليهود أخفوا أي شيء من الأموال أو من الذهب أو الفضة، فيجوز للرسول أن يقتلهم بهذا الإخفاء للمال أو للذهب أو للفضة. وبالفعل قبلوا هذا الأمر، وبدأ اليهود بالخروج من خيبر.

الرسول يتزوج صفية بنت حيي بن أخطب:

وكانت امرأة كنانة بن أبي الحقيق هي صفية بنت حيي بن أخطب، وتزوجها الرسول ، وأصبحت من أمهات المؤمنين. والحقيقة أن في زواج الرسول من السيدة صفية حكمة كبيرة، ومن هذه الحِكَم أنه رفع درجة السيدة صفية، فهذه بنت ملك أو بنت زعيم من زعماء اليهود، وزوجة زعيم من زعمائهم، فلا يجب أن تُعطى هكذا إلى أي إنسان من المسلمين، فرفع قدرها وعظم من شأنها وتزوجها هو ، بعد أن أعلنت إسلامها.

ثم إن في هذا استمالة لقلوب اليهود عندما يكون بينهم وبين زعيم الدولة الإسلامية أو

نبي هذه الأمة عَلاقة نسب، فهذه قد ترقِّق قلوب اليهود وتفتح قلوبهم للإسلام. ثم إنه بذلك الزواج سيمنع الخلاف بين الصحابة؛ لأن أحد الصحابة جاءإليه وقال: "أعطيت دحية الكلبي صفية بنت حيي سيِّدة قريظة والنضير؟". فقد ينظر أحد الصحابة إلى أنه قد أعطى أحد الصحابة شيئًا قد يناسب النبي أو غيره من عموم الصحابة، وبذلك قطع الخلاف بين الصحابة أجمعين، وهذه كانت بداية خير كبير للسيدة صفية، وأصبحت أم المؤمنين رضي الله عنها ، وروت الكثير والكثير عن رسولنا الكريم .

اليهود يدبرون مؤامرة لقتل الرسول:

هل امتنع كيد اليهود بعد هذه الغزوة، وبعد هذا القتال المرير الذي دار في عدة أيام، والذي بلغ شهرًا أو أكثر من شهر؟ لم يكفّ اليهود عن ذلك، بل استمروا في المؤامرات والكيد والدس إلى درجة أنهم فكروا في قتل الرسول قبل أن يغادروا خيبر؛ فقد اجتمع اليهود ودبروا محاولة لقتل الرسول ، بجعل السم في شاة ليقتلوا الرسول ، ثم أعطوا هذه الشاة لامرأة سلام بن مشكم لتعطيها لرسول الله ، وهذا -دائمًا- دأبُ اليهود الخيانة والغدر، فهل نتعلم من تاريخهم مع المسلمين في العهد النبوي؟!

نتائج فتح المسلمين لخيبر:

عندما سمع اليهود الذين هم في أماكن أخرى بعيدة أو قريبة من خيبر بأنباء خيبر، بدءوا يفكرون تفكيرًا جديًّا في التسليم لرسول الله ، ومن هؤلاء اليهود يهود فَدَك الذين قبلوا أن ينزلوا على نفس الصلح الذي نزلت عليه يهود خيبر، على أن يكون لهم النصف من الثمار مثلما جرى مع يهود خيبر. وكذلك اليهود في وادي القرى قاوموا في البداية بعض المقاومة، ثم إنهم بعد ذلك قبلوا بنفس الصلح، وكذلك يهود تيماء؛ وبذلك حيَّد المسلمون جانب اليهود تمامًا في الجزيرة العربية، ورجع الرسول بعد هذه الغزوة إلى المدينة المنورة في أواخر صفر أو أوائل ربيع الأول سنة ٧هـ؛ أي أنه ظل أكثر من شهر في منطقة خيبر، كما توقع أن يقضي وقتًا طويلًا في خيبر، وبذلك تخلص المسلمون نهائيًّا من خطر اليهود. فإذا أضفنا إلى هذا التخلص ما حدث في صلح الحديبية من تحييد جانب قريش، نجد أن معظم القوى الموجودة في الجزيرة قد تعامل معها الرسول . ولم يبقَ من قوةٍ في الجزيرة إلا قوة غطفان، التي -وإن وجَّه إليها الرسول بعض السرايا- تحتاج هي الأخرى إلى وقفة جادة، وتصرف حكيم وسريع من رسول الله.

(١٠)
فتح مكة[1]

في رمضان في السنة الثامنة للهجرة تحقق أكبر فتح للمسلمين وهو فتح مكة المعقل الأكبر للشرك آنئذ. فقد نقضت قريش الصلح الذي عقدته مع المسلمين في الحديبية؛ حيث ساعدت قبيلة بكر في حربها ضد خزاعة، وأحسّت قريش بخيانتها، فأرسلت أبا سفيان إلى المدينة؛ ليقوم بتجديد الصلح مع الرسول -ﷺ- ويزيد في مدّته، ولكنه فشل في ذلك، وعاد إلى مكة خائبًا. ثم خرج ثانية عندما اقترب الجيش من مكة، ولم يستطع أن يفعل شيئًا، فأسلم وعاد إلى مكة ليحذر قريشًا من مقاومة المسلمين. و أراد الله أن يتم نوره ويعلي كلمته فجاء فتح مكة، وكان الفتح أعظم انتصارات المسلمين وإيذانا بغروب شمس الكفر والشرك في شبه الجزيرة العربية فكيف تم الفتح، وكيف كان استعداد المسلمين لفتح مكة؟

الأحداث:

إن الفتح المبين الذين أعز الله به جند الإسلام ورد لهم اعتبارهم ورفع به كرامتهم ورءوسهم حتى بلغت عنان السماء فتوجتها، إنه الفتح الأعظم الذي قصم به الله دولة الكفر وأزال به شعائر الشرك ومعالم الطغيان، وأشرقت وجه الأرض مرة أخرى بالتوحيد والتحميد، إنه الفتح العظيم ليس للأرض فقط إنما هو فتح القلوب لدين الإسلام ودخول الناس في دين الله أفواجا..

ولم يكن أشد الناس تفاؤلًا واستبشارًا بأن هؤلاء النفر المستضعفين بقيادة الرسول الذين خرجوا مستخفين من عدوهم فارين بدينهم تاركين ديارهم وأهليهم والدنيا بأسرها وراء ظهورهم خائفين مترقبين، هم هم الذين يعودون بعد ثماني سنوات بجيش كبير

(١) جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة " ١٦ " – عرض / ربيع سكر – ٢٦ يوليو ٢٠١٣ ... نقلا عن موقع قصة الإسلام

وإيمان أكبر لفتح البلد التي أخرجوا منها بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، لم يكن أكثر الناس تفاؤلًا يظن أن الرسول سيعيد بناء الأمة ويكوّن دولة من مجموعة من الفارين المهاجرين بدينهم تستطيع أن تفتح معقل الكفر وعاصمة الشرك وبؤرة الإرهاب الوثني للمسلمين طيلة عشرين سنة، ولعل ما جرى يكون عبرة وعظة لأصحاب المناظير السوداء الذين لا يرون أبدًا وجه الشمس في أي عمل إسلامي ودعوي ويحكمون عليه بالفشل لا لشيء إلا لانتعاش الباطل في عيونهم، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

سبب الغزوة:

لم يكن يدور في خلد عمر بن الخطاب الفوائد الجمة التي سيجنيها المسلمون والدعوة الإسلامية من صلح الحديبية، لذلك فلقد حزن منها في بادئ الأمر واعترض وتسخط حتى نزل القرآن يصف الصلح بأنه فتح مبين وحقًا كان هو؛ لأنه كان السبب المباشر لفتح مكة! لأن من بنوده أن من أحب أن يدخل في حلف الرسول دخل ومن أراد أن يدخل في حلف مكة وقريش دخل فدخلت خزاعة في حلف الرسول، ودخلت بنو بكر في حلف قريش وكان بين خزاعة وبني بكر ثارات قديمة أيام الجاهلية، وفي شهر شعبان ٨هـ اعتدت بنو بكر على خزاعة وأعانت قريش بني بكر على ذلك بالسلاح والرجال، وعد ذلك خرقًا لبنود المعاهدة والصلح؛ لأن الاعتداء على الحليف بمثابة اعتداء على من يحالفه، وهذا الاعتداء يعتبر مباشرة على الرسول والمسلمين، خاصة أن الإسلام قد فشا وانتشر في خزاعة وقتل في هذا الاعتداء رجال من المسلمين، ولما وصلت الأخبار بذلك للرسول قرر رد العدوان وأخذ القرار الكبير بالسير لفتح مكة، وكان رسول الله قبل أن يأتيه الخبر قد تجهز للجهاد ولا أحد يعلم وجهته حتى أزواجه أمهات المؤمنين.

سفير قريش:

كان أبو سفيان بن حرب من أعقل أهل قريش وأشدهم ذكاء أدرك أن ما فعلته بنو بكر والمتهورون من شباب قريش يعد بمثابة نقض للميثاق وبنود الصلح فخاف من غائلة ذلك وعاقبته فخرج مسرعًا للرسول يطلب منه تجديد الصلح وقد أخبرهم الرسول بمجيئه، فدخل أبو سفيان المدينة ونزل على ابنته أم المؤمنين أم حبيبة فأراد أن يجلس على

فراش الرسول فأبت أم حبيبة وقالت له: «أنت رجل مشرك نجس»، وحاول أبو سفيان تجديد الصلح، ولكن الرسول لم يرد عليه شيئًا فحاول الاستشفاع بأصحاب النبي فلم يستطع أحد منهم أن يجير على رسول الله فقام أبو سفيان فآجر نفسه بين الناس عملًا بنصيحة علي بن أبي طالب، فلم يقم أحد لإجارته وتيقن العزم على فتح مكة.

الاستعداد للغزوة:

أمر الرسول الناس بالتجهيز للغزو وصرح لهم بما يريده، ولكنه وللمفاجأة دعا ربه جل وعلا أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش حتى يباغتوها في ديارهم، وزيادة في الإخفاء والتمويه بعث الرسول بسرية في ١ رمضان ٨هـ في اتجاه آخر ليظن الناس أنه متوجه لها.

حادثة حاطب بن أبي بلتعة:

أثناء الاستعداء للغزوة كتب حاطب بن أبي بلتعة وكان من المهاجرين الأولين ومن أهل بدر في لحظة من لحظات الضعف الإنساني التي تؤكد على بشرية الصحابة وعدم عصمتهم برسالة لأهل مكة يخبرهم بالأمر وذلك مع امرأة مستأجرة لذلك، فأطلع جبريل الرسول على ما حدث استجابة لدعوة الرسول بأخذ العيون عن قريش، فأرسل الرسول عليًا والمقداد فأحضرا المرأة واستخرجوا الكتاب منها، ثم دار هذا الحوار بين حاطب والرسول، فقال له الرسول : «ما هذا يا حاطب؟» فقال حاطب: «لا تعجل عليّ يا رسول الله، والله إني لمؤمن بالله ورسوله، وما ارتددت ولا بدلت، ولكني كنت امرأ ملصقًا في قريش لست من أنفسهم ولي فيهم أهل وعشيرة، وولد وليس فيهم قرابة يحمونهم، وكل من معك لهم قرابات يحمونهم فأحببت إذ فاتني ذلك أن أتخذ عندهم يدًا يحمون بها قرابتي»، فقال عمر بن الخطاب: «دعني يا رسول الله أضرب عنقه فإنه قد خان الله ورسوله، وقد نافق»، فقال الرسول: «إنه قد شهد بدرًا وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»؛ فبكى عمر، وقال: الله ورسوله أعلم.

خروج الجيش الفاتح:

بعد أن أتم الرسول إعداد الجيش وجاءته القبائل العربية المسلمة من كل حدب وصوب خرج الجيش الفاتح في ١٠ رمضان ٨هـ من المدينة إلى مكة واستخلف الرسول في المدينة

أبا رهم الغفاري الملقب بالمنحور، وفي الجحفة لقيه العباس بن عبد المطلب مهاجرًا بعياله وماله فكان بذلك آخر المهاجرين كما إن أبا سلمة هو أول المهاجرين.

كانت هذه المسيرة في رمضان؛ لذلك فإن الرسول قد أمر الجيش بالفطر ليكون أقوى لهم على القتال، ثم أمر كل جندي في الجيش أن يوقد نارًا ليلقوا الرعب في قلب قريش فأوقدوا عشرة آلاف نار، ووصلوا حتى منطقة مر الظهران وقريش لا تعلم شيئًا عنهم.

كان العباس أرحم الناس بأهل قريش فخرج ليلًا يلتمس بعض أهل قريش يخبرهم بالجيش حتى يخرجوا للرسول يستأمنون عنده، وبالفعل يقابل العباس أبا سفيان ويخبره بقدوم الجيش فدخل أبو سفيان مع العباس إلى معسكر المسلمين ليطلب الأمان من الرسول ويراه عمر بن الخطاب فيتربص وراءه ليقتله ولكن العباس يجيره عند رسول الله فيكف عمر عنه، ويقف أبو سفيان بين يدي رسول الله ويعرض عليه الرسول الإسلام فيتلكأ أبو سفيان ويتردد ثم يشهد شهادة الحق، فقال العباس: «يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئًا»، قال الرسول : «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن».

أثناء تحرك الجيش أمر الرسول بشن حرب نفسية على أبي سفيان ليحدث له هزيمة نفسية ورعب ينقله أبو سفيان لأهل قريش فتخور قوتهم وتسقط مقاومتهم للمسلمين، وهذه الهزيمة النفسية حدثت لأبي سفيان عندما حبسه العباس عند مضيق وادي مر الظهران ليرى مرور كتائب الجيش الإسلامي فأذهله ما رآه من كثافة الجيش وقوته، ودخله الرعب الشديد، فقال للعباس: «والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيمًا»، فقال العباس: «يا أبا سفيان إنها النبوة»، فقال أبو سفيان: «فنعم إذن». كانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة المشهور بحماسته وغيرته الشديدة، فلما رأى أبا سفيان قال له: «اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشًا»، فاشتكى أبو سفيان للنبي ما قال سعد، فنزع الرسول اللواء من سعد وأعطاه لولده قيس.

دخول مكة:

دخل أبو سفيان مكة مسرعًا وصرخ بأعلى صوته: «يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن»، فسبته زوجته هند، ولكن

الناس عرفوا الجد من كلام أبي سفيان فهرعوا مسرعين لبيوتهم والمسجد الحرام.

رفض بعض المتهورين من شباب قريش وسفهائها إلقاء السلاح وأصروا على مقاومة الجيش المسلم واجتمعوا عند منطقة الخندمة لقتال المسلمين وجعلوا عليهم عكرمة بن أبي جهل.

وزع الرسول جيشه على قسمين الميمنة وفيها قبائل أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة وغيرهم، وجعل عليهم خالد بن الوليد، وأمرهم أن يدخلوا مكة من أسفلها على أن يتولوا القضاء على أي جيب من جيوب المقاومة، والميسرة وعليها الزبير بن العوام ومعه راية الرسول ويدخل مكة من أعلاها، والمشاة وعليهم أبو عبيدة بن الجراح.

دخل الرسول مكة على راحلته وهو يضع رأسه تواضعًا لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح حتى إن شعر لحيته ليكاد يمس واسطة الرحل، ودخل المسجد الحرام، ومن حوله المهاجرون والأنصار فاستقبل الحجر الأسود، وطاف بالبيت وفي يده قوس يطغى به الأصنام الموجودة بالحرم ليحطمها وهو يقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا»، ودخل الكعبة وطهرها مما كان بها من الصور ثم صلى فيها ركعتين.

العفو النبوي:

بعد أن صلى الرسول داخل الكعبة فتح بابها ثم أخذ بعضادتي الباب وخطب فيهم ثم قال: «يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟» قالوا: «خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم»، قال: «فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء».

لم يمنع العفو العام الذي أصدره الرسول قراره بإهدار دماء رجال من أكابر المجرمين الذين كانت عداوتهم وشرورهم أكبر من غيرهم منهم عكرمة بن أبي جهل وعبد العزى بن خطل ومقيس بن صبابة وغيرهم، بلغ عددهم تسعة نفر ستة رجال وثلاثة نساء، ولكن الرسول عفا عن بعضهم.

أثناء طواف النبي بالكعبة جاء رجل من قريش اسمه فضالة بن عمير وكان جريئًا وأراد أن يغتال النبي وهو في الطواف، ولكن الله أطلع رسوله على الأمر، فنادى الرسول على فضالة وأخبره بما في نفسه فأسلم فضالة من فوره.

خاف الأنصار من بقاء الرسول بمكة وقالوا: «أترون رسول الله إذا فتح الله عليه أرضه وبلده أن يقيم بها»، فلما علم الرسول قال لهم: «معاذ الله المحيا محياكم والممات مماتكم».

كان هذا الفتح من أعظم انتصارات المسلمين وبشارة عظمى بقيام دولة الإسلام في أقوى صورها وإيذانًا بغروب شمس الكفر والشرك في شبه الجزيرة العربية والعالم من بعدها.

(11)

غزوة حنين[1]

وافقت أحداث غزوة حنين السابع من شهر شوال، من السنة الثامنة من هجرة النبي المصطفى ﷺ، ودارت رحاها في وادي حنين، وهو وادٍ إلى جنب ذي المجَاز، بينه وبين مكة سبعة وعشرون كيلو مترًا تقريبًا، من جهة عرفات. وكان عدد المسلمين الذين اجتمعوا في هذه المعركة اثني عشر ألفًا؛ عشرة آلاف من أهل المدينة، وألفين من أهل مكة.

سبب غزوة حنين:

لقد كان فتح مكة كما قال ابن القيم: «الفتح الأعظم الذي أعزَّ الله به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين، من أيدي الكفار والمشركين. وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء... ودخل الناس به في دين الله أفواجا، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجًا».

وكان لهذا الفتح الأعظم ردّ فعل معاكس لدى القبائل العربية الكبيرة القريبة من مكة، وفي مقدمتها قبيلتا (هوازن) و(ثقيف). فقد اجتمع رؤساء هذه القبائل، وسلموا قياد أمرهم إلى مالك بن عوف سيِّد (هوازن). وأجمعوا أمرهم على المسير لقتال المسلمين، قبل أن تتوطد دعائم نصرهم، وتنتشر طلائع فتحهم.

مجريات غزوة حنين ووقائعها:

وكان مالك بن عوف رجلًا شجاعًا ومقدامًا، إلا أنه كان سقيم الرأي، وسيئ المشورة؛ فقد خرج بقومه أجمعين، رجالًا ونساء وأطفالًا وأموالًا؛ ليُشعر كل رجل وهو يقاتل أن

---

(1) جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة " 17 " – عرض / ربيع سكر – 29 يوليو 2013 ... نقلا عن : موقع إسلام ويب وموقع قصة الإسلام.

ثروته وحرمته وراءه فلا يفرّ عنها. وقد اعترضه في موقفه هذا دريد بن الصمة -وكان فارسًا مجربًا محنكًا، قد صقلته السنون، وخبرته الأحداث- قائلًا له: «وهل يردّ المنهزم شيء؟ إن كانت الدائرة لك، لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك: فضُحْتَ في أهلك ومالك». فسفّه مالك رأيه، وركب رأسه، وأصر على المضيّ في خطته، لا يثنيه عن ذلك شيء.

وانتهى خبر مالك وما عزم عليه إلى رسول الله ﷺ، فأخذ يجهز جيشه، ويُعِدّ عدته لمواجهة هذا الموقف. وكان مالك بن عوف قد استبق زمام المبادرة وتوجه إلى حنين، وأدخل جيشه بالليل في مضائق من ذلك الوادي، وفرّق أتباعه في الطرق والمداخل، وأصدر إليهم أمره، بأن يرشقوا المسلمين عند أول ظهور لهم، ثم يشدوا عليهم شدة رجل واحد.

وكان رسول الله ﷺ قد عبّأ جيشه بالسَّحَر، وعقد الألوية والرايات، وفرّقها على الناس.. وقبْل أن يبزغ فجر ذلك اليوم، استقبل المسلمون وادي حنين، وشرعوا ينحدرون فيه، وهم لا يدرون بما كان قد دُبِّر لهم بليلٍ. وبينما هم ينحطون على ذلك الوادي، إذا بالنبال تمطر عليهم من كل حدب وصوب، وإذا بكتائب العدو قد شدت عليهم شدة رجل واحد، فانهزم المسلمون راجعين، لا يلوي أحد على أحد، وكانت هزيمة منكرة لذلك الجمع الكبير.

وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، وهو يقول: «إليّ يا عباد الله، أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»، ولم يبق معه في موقفه إلا عدد قليل من المهاجرين والأنصار.

وقد روى لنا العباس -رضي الله عنه- هذا الموقف العصيب، وصوّره لنا أدق تصوير، فقال: (شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله ﷺ، فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء، فلما التقى المسلمون والكفار، ولّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قِبَلَ الكفار، فقال رسول الله ﷺ: «أي عباس، نادِ أصحاب السَّمُرَة»؛ أي: أصحاب بيعة العقبة. فقال عباس: أين أصحاب السمرة؟ قال: فوالله لكأن عَطْفَتَهم حين سمعوا صوتي، عَطْفَة البقر على أولادها -أي: أجابوا مسرعين- فقالوا: يا لبيك، يا لبيك. قال: فاقتتلوا والكفار..

فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال: «حمي الوطيس». قال: ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات، فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال: «انهزموا ورب محمد». قال: فذهبت أنظر، فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته، فما زلت أرى حدهم كليلًا، وأمرهم مدبرًا -يعني قوتهم ضعيفة، وأمرهم في تراجع وهزيمة-). هذه رواية مسلم في صحيحه. وقد فرَّ مالك بن عوف ومن معه من رجالات قومه، والتجئوا إلى الطائف، وتحصنوا بها، وقد تركوا وراءهم مغانم كثيرة، فأرسل رسول الله ﷺ على أثرهم فريقًا من الصحابة، حاصروهم، وقاتلوهم حتى حسموا الأمر معهم.

وهذا الحدث وما رافقه من مجريات ووقائع، هو الذي أشار إليه سبحانه وتعالى، بقوله: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾[التوبة: ٢٥، ٢٦].

لقد كان موقف رسول الله ﷺ وثباته في هذه المعركة مع قلة من الصحابة - دليلًا ناصعًا، وبرهانًا ساطعًا على عمق إيمانه بالله، وثقته بنصره وتأييده، وتحققه بأن نتيجة المعركة سوف تكون إلى جانب الحق. وإنك لتبصر صورة نادرة، وجرأة غير معهودة في مثل هذه المواقف؛ فقد تفرقت عنه ﷺ الجموع، وولوا الأدبار، لا يلوي واحد منهم على أحد، ولم يبق إلا رسول الله ﷺ وسط ساحات الوغى، حيث تحفُّ به كمائن العدو من كل جانب، فثبت ثباتًا عجيبًا، امتد أثره إلى نفوس أولئك الفارّين، فعادت إليهم من ذلك المشهد رباطة الجأش، وقوّة العزيمة.

موقف أم سليم:

ومن المواقف المشرفة في هذه المعركة موقف الصحابية أم سُليم رضي الله عنها، وكانت مع زوجها أبي طلحة ﷺ. وقد روت كتب الحديث والسِّيَر بسند صحيح وقائع خبرها.. فعن أنس ﷺ، أن أم سليم - رضي الله عنها - اتخذت يوم حنين خنجرًا، فكان معها فرآها أبو طلحة، فقال: يا رسول الله، هذه أم سليم، معها خنجر. فقال لها رسول الله ﷺ: «ما هذا الخنجر؟» قالت: اتخذته، إن دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه. فجعل رسول

الله ﷺ يضحك، قالت: يا رسول الله، اقْتُلْ مَنْ بَعْدَنَا مِنَ الطُّلَقَاء، انهزموا بك. فقال رسول الله ﷺ: «يا أم سليم، إن الله قد كفى وأحسن».

تداعيات غزوة حنين:

ثم إن من تداعيات هذه المعركة، ما كان من مسألة تقسيم الغنائم -وقد غنم المسلمون مغانم كثيرة في هذه المعركة- وكانت هذه القسمة من رسول الله ﷺ مبنيَّة على سياسة حكيمة، لكنها لم تُفْهَم أول الأمر، فأُطْلِقَتْ ألسنة شتى بالاعتراض، والقيل والقال.

وحاصل خبر تداعيات تقسيم الغنائم، ما رواه ابن إسحاق عن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وَجَدَ هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت فيهم القَالَةُ -يعني كثرة الكلام بين الناس- حتى قال قائلهم: لقي -والله- رسول الله ﷺ قومه. فدخل عليه سعد بن عبادة، فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وَجَدُوا عليك في أنفسهم؛ لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظامًا في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء.

قال: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟» قال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي. قال: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة».

فخرج سعد، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، فجاء رجال من المهاجرين، فتركهم، فدخلوا. وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا له أتاه سعد، فقال: لقد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار. فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «يا معشر الأنصار، ما قَالَة بلغتني عنكم، وَجِدَةٌ وجدتموها عليَّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلاَّلًا فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟» قالوا: بلى، الله ورسوله أَمَنُّ وأفضل. ثم قال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المَنّ والفضل.

قال: «أما والله لو شئتم لقلتم، فصَدَقْتُمْ ولصُدِّقْتُمْ: أتيتنا مُكَذَّبًا فصدقناك، ومخذولًا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فآسَيْنَاك. أَوَجَدْتُمْ يا معشر الأنصار في أنفسكم فيَّ لَعَاعَةٍ من الدنيا -يعني شيئًا تافهًا- تَأَلَّفْتُ بها قومًا لِيُسْلِمُوا، ووَكَلْتُكم إلى إسلامكم؟ ألا

ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شِعْبًا، وسلكت الأنصار شعبًا لسلكتُ شِعب الأنصار. وإنكم ستلقون أثرة من بعدي، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض. اللّهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

فبكى القوم حتى اخضلت -تبللت- لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قَسْمًا وحظًّا. ثم انصرف رسول الله ﷺ، وتفرّق الجمع.

غزوة حنين .. دروس وعبر:

لقد كانت غزوة حنين هذه درسًا عظيمًا في العقيدة الإسلامية، وممارسة عمليّة لفهم قانون الأسباب والمسببات؛ فإذا كانت وقعة بدر قد علَّمت الجماعة المسلمة أن القلة إذا كانت مؤمنة بالله حق الإيمان، وآخذة بأسباب النصر، لا تضر شيئًا في جنب كثرة الأعداء؛ فإن غزوة حنين قد علّمت تلك الجماعة درسًا جديدًا، حاصله أن الكثرة الكاثرة لا تغني شيئًا، ولا تجدي نفعًا في ساحات المعركة، إذا لم تكن قد تسلحت بسلاح العقيدة والإيمان، وإذا لم تكن قد أخذت بأسباب النصر وقوانينه.

فالنصر والهزيمة ونتائج المعارك لا يحسمها الكثرة والقلة، وإنما ثمة أمور أخر وراءها، لا تقلّ شأنًا عنها، إن لم تكن تفوقها أهمية واعتبارًا، لتقرير نتيجة أي معركة.

فكانت حنين بهذا درسًا، استفاد منه المسلمون غاية الفائدة، وتعلموا منه قواعد النصر وقوانينه، قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[محمد: ٧].

ويدل موقف أم سليم في هذه المعركة على مدى حرص الصحابيات -رضي الله عنهن- على مشاركتهم رسول الله ﷺ في دعوته، وتبليغ رسالته، ومواجهة أعدائه.

ومن الدروس المستفادة من هذه المعركة، والعبر المستخلصة منها، حكمة سياسة النبي ﷺ في تقسيم الغنائم وتوزيعها، فقد اختص في هذه المعركة الذين أسلموا عام الفتح بمزيد من الغنائم عن غيرهم، ولم يراع في تلك القسمة قاعدة المساواة بين المقاتلين. وفي هذا دلالة على أن لأمام المسلمين أن يتصرف بما يراه الأنسب والأوفق لمصلحة الأمة دينًا ودُنيا.

ويستفاد من بعض تصرفاته ﷺ في غزوة حنين، أن الدافع الأول وراء مشروعية الجهاد، هو دعوة الناس إلى دين الإسلام، وهدايتهم إلى الطريق المستقيم، وإرشادهم إلى الدين القويم، وهو الهدف الأساس الذي جاءت شريعة الإسلام لأجله؛ ولم يكن الهدف من مشروعية تلك الغزوات تحقيق أهداف اقتصادية، ولا تحصيل مكاسب سياسية. يشهد لهذا المعنى موقفه ﷺ من مالك بن عوف -وكان المحرّك الأساس، والموجه الأول لمعركة حنين- فقد سأل ﷺ أصحابه عن مالكٍ، فقالوا: إنه بالطائف مع ثقيف.

فقال لهم: «أخبروه أنه إن أتى مسلمًا، رددت عليه أهله وماله، وأعطيته مائة من الإبل»، فأُخبر مالك بذلك، فجاء يلحق برسول الله ﷺ حتى أدركه، فردّ عليه أهله وماله، وأعطاه مائة من الإبل، وأسلم فحسن إسلامه. والخبر ذكره ابن إسحاق.

كل هذا -وغيره كثير- يدل دلالة واضحة على أن الجهاد في أصله ليس إلا ممارسة لوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن الوظيفة الأساس من الجهاد والهدف المرام من تشريعه - دعوة الناس إلى الدين الحق، وضمان حريتهم في اعتناق هذا الدين.

(١٢)
غزوة تبوك [1]

كانت غزوة تبوك بحق خاتمة الغزوات النبوية وأرست السمعة العالمية التي اكتسبها المسلمون بإفزاع الروم أقوى جيوش الأرض وقتها

كان فتح مكة فرقانًا بين عهد التكوين وعهد التمكين وبدون أي مبرر تعرضت للمسلمين أكبر قوة عسكرية ظهرت على وجه الأرض وقتها وهم الرومان لإضعاف شوكة المسلمين

نزل رسول الله والمسلمون تبوك فمكثوا فيها عشرين ليلة لم يأتهم فيها أحد من الروم الذين ألقى الله في قلوبهم الرعب الشديد فلم يجرؤ أحد منهم على الالتقاء مع المسلمين وتفرقت جيوشهم

بعد أن تم للرسول ما أراد من تثبيت أركان هيبة الدعوة الإسلامية قفل راجعًا إلى المدينة ونجاه الله من محاولة اغتيال دبرها ١٢ من أئمة النفاق

غزوة تبوك بالشام فضحت المنافقين وأظهرت كيدهم للإسلام، وجاءت لتميز الصف المسلم وتقوم بتمحيصه من أصحاب النفوس المريضة والمنافقين وطلاب الدنيا، وكانت الأجواء المحيطة بغزوة تبوك في غاية الصعوبة فما أسباب ذلك؟ وكيف تم تجهيز الجيش؟ وكيف كانت مسيرة الجيش إلى تبوك؟

الأحداث :

كان فتح مكة فرقانًا بين عهد التكوين وعهد التمكين فبعد فتح مكة لم يبق بعدها مجالًا للشك في الإسلام ودخل الناس في دين الله أفواجا وعظم شأن الإسلام جدًّا وهذا أوغر صدور أعداء الإسلام في شتى بقاع الأرض وعز على الشيطان أن يرى المسلمين يجنون

(١) جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة " ١٨ " – عرض / ربيع سكر – ٣٠ يوليو ٢٠١٣ ... نقلا عن : موقع قصة الإسلام

ثمار كفاحهم الطويل والشاق والتي رووْها بدمائهم ومهجهم فسول لكل عدو ومتربص بالإسلام أن يبادر بالعداوة ويجاهر بالسوء..

ويدون أي مبرر تعرضت للمسلمين أكبر قوة عسكرية ظهرت على وجه الأرض وقتها وهم الرومان، فبعد الصدام الدامي مع المسلمين في موقعة مؤتة سنة ٨هـ وما أسفرت عنه من انتصار مدوي للمسلمين، لم يغب عن ذهن هرقل ضرورة رد الهزيمة بعمل عسكري ضخم وقوي يخضد شوكة المسلمين المتنامية قبل أن يستفحل خطرها وتهدده في عقر داره فأعد هرقل جيشًا عرمرمًا ضخمًا من الرومان والعرب الغساسنة..

وترامت الأخبار للرسول والمسلمين في المدينة بحشود الرومان وأنها قد وصلت لأرض البلقاء بالشام وقيل: إن سبب الغزوة غير ذلك وهو نزول الأمر الإلهي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، وكان الروم في الشام أقرب الناس إليهم وأولى الناس بالدعوة؛ لأنهم أهل كتاب، فعزم رسول الله على جهادهم، وقيل أيضًا: إن سبب الغزوة هو قول اليهود للنبي: «يا أبا القاسم إن كنت صادقًا أنك نبي فالحق بالشام، فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء»، فنوى رسول الله غزو الشام، والأرجح والأشهر من هذه الأسباب الأول كما سيظهر من سياق الأحداث.

قام رسول الله في الناس خطيبًا ليحثهم على الإنفاق في سبيل الله وتجهيز جيش العسرة وقال: «من جهز جيش العسرة غفر الله له» فانبرى الناس وتسارعوا في الصدقة وكان هذا اليوم يوم عثمان الذي تصدق بمائتي بعير ومائة فرس وألف دينار ذهبي، فقال له الرسول: «ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم»، وجاء أبو بكر بماله كله، وجاء عمر بنصف ماله، وتصدق عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية فضة، وغيرهم كثير جاءوا بحسب طاقتهم وقدرتهم على النفقة، وأثناء ذلك بلغ رسول الله أن ناسًا من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي يثبطون الناس عن الغزو ويتعللون لهم بالحر وشدة العدو وجني الثمار، فأرسل إليهم الرسول طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه وأمره أن يحرق عليهم بيت اليهودي ففعل طلحة ذلك، فارتدع المنافقون عن كيدهم وغيهم.

ورغم تسارع الناس بالإنفاق لتجهيز جيش العسرة إلا أن النفقة قد قصرت عن هذا الجيش الكبير والذي لم يخرج المسلمون في مثله حيث بلغ تعداده ثلاثين ألفًا، هذا غير الذين تخلفوا عن هذه الغزوة والذين لم يجدوا ما ينفقونه ولم يكن عند رسول الله ما يعطيهم وهم البكاؤون الذين ورد ذكرهم في القرآن وهم من بني مزينة، وخرج النبي يقود هذا الجيش الكبير يوم الخميس غرة شهر رجب سنة ٩هـ طالبًا تبوك والتي تقع على بعد اثنا عشر مرحلة من المدينة وكان الثلاثة والأربعة والأكثر من ذلك يتعاقبون البعير الواحد مما جعل هذه المسافة تقطع في أكثر من المعتاد.

مسيرة الجيش إلى تبوك:

كانت مسيرة الجيش شاقة جدًّا فالعدو بعيد والحر شديد، حتى إن العطش كاد أن يقتلهم حتى إن الرجل لينحر بعيره، فيشرب ما في كرشه، فإن لم يجد فيعصر فركه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، فقال عمر: يا رسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيرًا فادع الله لنا، قال الرسول: «أتحب ذلك؟»، قال نعم، فرفع الرسول يده فلم يرجعها حتى نزل المطر عليهم فسقوا وارتووا، ثم أشار عليه عمر فقال: يا رسول الله لو جمعت ما بقي من أزواد القوم فدعوت الله عليها فجاء الناس بأزوادهم، فبارك عليها الرسول حتى ملأ الزاد والطعام كل المعسكر.

ضلت ناقة الرسول ببعض الطريق فخرج بعض أصحابه في طلبها فقال أحد المنافقين وهو زيد بن اللصيت: أليس محمد يزعم أنه نبي يخبركم خبر السماء وهو لا يدري أمر ناقته، فلما علم النبي ذلك عن طريق الوحي قال: «إني والله ما أعلم إلا ما علمني الله وقد دلني الله عليها وهي في الوادي قد حبستها الشجرة بزمامها فانطلقوا فجاءوا بها».

نزل رسول الله والمسلمون تبوك فمكثوا فيها عشرين ليلة تقريبًا لم يأتهم فيها أحد من الروم الذين ألقى الله في قلوبهم الرعب الشديد فلم يجرؤ أحد منهم على الالتقاء مع المسلمين وتفرقت جيوشهم داخل بلادهم، وعندها أدرك المتحالفون مع الروم أن أسيادهم القدامى قد ولت أيامهم فأقبلوا على مصالحة المسلمين، فجاء «يحنة بن رؤبة» صحاب مدينة إيلة فصالح الرسول وأعطاه الجزية وكذلك أهل حرباء وأذرح وتم أسر ملك دومة الجندل <أكيدر دومة> ودفع الجزية، وكانت الفترة التي قضاها المسلمون في

تبوك لتثبيت أقدامهم في المنطقة وإرساء السمعة العالمية التي اكتسبها المسلمون بإفزاع الروم أقوى جيوش الأرض وقتها وبعدها قرر الرسول الرجوع.

عودة الجيش:

بعد أن تم للرسول ما أراد من تثبيت أركان هيبة الدعوة الإسلامية في تلك البلاد قفل راجعًا إلى المدينة وأثناء رحلة الرجوع حدث أمر عظيم كاد أن يغير مسار الأمة الإسلامية بأسرها لولا فضل الله علينا وعلى الناس أجمعين، حيث حاولت مجموعة من المنافقين مكونة من اثنا عشر رجلًا من أئمة النفاق قتل النبي ، وذلك أن مناديًا من قبل الرسول نادى في الناس أثناء السير: «أن خذوا بطن الوادي فهو أوسع عليكم فإن رسول الله قد أخذ ثنية العقبة»، وكان مع النبي حذيفة وعمار يقودان ناقته، فهجمت مجموعة من المنافقين من الخلف وهي تريد طرح الرسول من على ناقته ثم الفتك به، فغضب الرسول وأمر حذيفة أن يردهم فاستدار حذيفة كالأسد الجسور وتصدى وحده للإثنى عشر وضرب وجه رواحل المنافقين ففروا جميعًا هاربين ودخلوا مع عامة الجيش وعرفهم النبي وصرح بأسمائهم لحذيفة الذي عرف بعد ذلك بصاحب السر، ولما علم الصحابة بما جرى قالوا للنبي: «يا رسول الله أولا تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ فقال: «لا أكره أن تحدث العرب بينها أن محمدًا قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم».

واصل رسول الله رحلة العودة وفي الطريق قال أحد المنافقين لرفقائه في السفر: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أكذبنا ألسنة وأرغبنا بطونا وأجبننا عند اللقاء، فوافقه منافق مثله وقال آخر وكان مؤمنًا: إني أخشى أني نزل فينا قرآنًا، وبالفعل أطلعه رسول الله على الأمر عن طريق الوحي ونزل فيهم القرآن من سورة التوبة، وجاء المنافق يعتذر للنبي وقد تعلق برحل ناقة النبي يرجوه المغفرة والعذر، ورسول الله لا يلتفت إليه، ويقول له: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦]، والمنافق يقول له: يا رسول الله، إنما لقطع الطريق وكنا نخوض ونلعب.

قبل أن يدخل النبي المدينة أرسل اثنين من الصحابة وهما مالك بن الدخشم ومعن بن

عدي ليحرقا المسجد الذي بناه المنافقون ليكون وكرًا للتآمر والكيد بالإسلام والمسلمين، وهو ما يعرف في السيرة باسم مسجد الضرار، وقصة هذا المسجد أن أبا عامر الفاسق كان راهبًا من أهل المدينة على دين النصرانية وكان يعلم أن هذا الزمان زمان نبي فترهب وتنسك أملًا أن يكون هو النبي، ولما خاب ظنه وظهر دين الإسلام وجاء النبي للمدينة ودعاه للإسلام فلم يقبل اللعين رغم علمه بصدق النبي ثم خرج اللعين ولحق بهرقل بعد غزوة أحد ومكث عنده فترة يراسل المناقين في المدينة يعدهم ويمنيهم وأمرهم بأن يبنوا مسجدًا على غرار مسجد قباء ليكون مقرًّا للعمليات ضد الإسلام ووكرًا للدسائس والإشاعات المغرضة وإثارة الشبهات على الإسلام والمسلمين..

وقد انتهوا من بنائه قبيل الخروج لتبوك ودعوا رسول الله للصلاة فيه حتى يعطوه الصبغة الشرعية والرسمية فلا يستطيع أحد أن ينكر عليهم بعدها ولكن الله عصم نبيه من الصلاة في هذا المسجد وأوحى لنبيه بحقيقة الأمر فأمر بإحراقه، واختيار مالك بن الدخشم من النبي في منتهى الفطنة؛ ذلك لأن الناس شكوا في مالك بن الدخشم وظنوه من المنافقين وهكذا أحبط الله كيد المنافقين.

بعد أن دخل النبي والمسلمون المدينة جاءه المنافقون ليعتذروا عن تخلفهم عن الغزوة وحلفوا له كذبًا فقبل رسول الله علانيتهم ووكل سريرتهم لله وجاءه الثلاثة الذين خلفوا وكان أمرهم ما كان ورأى النبي أبا لبابة وأصحابه وقد قيدوا أنفسهم في سواري المسجد وقد حلفوا ألا يفكوا أنفسهم حتى يتوب الله عليهم وكان من أمرهم ما هو معلوم أيضًا.

وأنزل الله في هذه الغزوة كلها سورة كاملة في القرآن هي سورة التوبة أو الفاضحة للمنافقين تقص علينا نفسية المنافقين وكيفية التعامل معهم وتفضح أساليبهم وكيدهم وأهدافهم الدنيئة، وكانت هذه الغزوة بحق خاتمة الغزوات النبوية.

الفصل الثاني

معارك إسلامية من عهد الخلفاء الراشدين

(١)

القادسية ... طريق المسلمين إلى فتح فارس [1]

نلتقي مع يوم من أيام الله تعالى يوم القادسية، هذا اليوم فرق الله به بين الحق والباطل؛ يوم القادسية يوم كيوم بدر، وكيوم خيبر، وكيوم اليرموك، إذا كانت هناك أيامٌ تغير من التاريخ، فيوم القادسية من هذه الأيام. فبعد موقعة القادسية اختلفت خريطة الأرض، وكان الجيش الإسلامي في القادسية يتضمن سبعين رجلًا أو أكثر من رجال بدر، وهذا أعطى للقادسية أهمية خاصة في التاريخ الإسلامي.

جاء في موسوعة وكيبيديا الحرة الالكترونية : معركة القادسية هي معركة وقعت في ١٣ شعبان ١٥ هـ/ ١٦-١٩ نوفمبر ٦٣٦م - بين المسلمين بقيادة سعد بن أبي وقاص والفرس بقيادة رستم فرّخزاد في القادسية، انتهت بانتصار المسلمين ومقتل رستم.

أسباب المعركة:

عام ١٤ هـ جمع يزدجرد طاقاته ضد المسلمين، فبلغ ذلك المثنى بن حارثة الشيباني فكتب إلى عمر بن الخطاب فأعلن النفير العام للمسلمين أن يدركوا المسلمين في العراق واجتمع الناس بالمدينة المنورة فخرج عمر معهم إلى مكان يبعد عن المدينة ثلاثة أميال على طريق العراق والناس لا يدرون ما يريد أن يصنع عمر الذي استشار الصحابة في قيادته للجيش بنفسه فقرروا أن يبعث على رأس الجيش رجلًا من أصحاب الرسول ويقيم هو ولا يخرج، واستشارهم في من يقود الجيش، فأشار عليه بسعد بن أبي وقاص.

---

(١) جريدة الوسط الكويتية - معارك إسلامية خالدة - الحلقة " ١٩ " - عرض / ربيع سكر - ٣١ يوليو ٢٠١٣ ... نقلا عن موسوعة وكيبيديا الحرة الالكترونية وموقع قصة الإسلام للدكتور راغب السرجاني

المسير إلى القادسية وتنظيم الجيوش:

استدعى عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص وكان على صدقات هوازن فولاه الجيش وأمره بالسير في أربعة آلاف. ثم أمده بألفي يماني، وألفي نجديّ، وكان مع المثنى بن حارثة الشيباني ثمانية آلاف. مات المثنى قبل وصول سعد وتتابعت الإمدادات حتى صار مع سعد ستة وثلاثون ألفًا. منهم تسعة وتسعون بدريًا وثلاثمائة وبضعة عشر ممن كان له صحبة فيما بين بيعة الرضوان إلى ما فوق ذلك، وثلاثمائة ممن شهد الفتح وسبعمائة من أبناء الصحابة. فنظم الجيش وجعل على الميمنة عبد الله بن المعتم وعلى الميسرة شرحبيل بن السمط الكندي وجعل خليفته إذا استشهد خالد بن عرفطة وجعل عاصم بن عمرو التميمي وسواد بن مالك على الطلائع وسلمان بن ربيعة الباهلي على المجردة وعلى الرجالة (المشاة) حمال بن مالك الأسدي وعلى الركبان عبد الله بن ذي السهمي وجعل داعيتهم سلمان الفارسي والكاتب زياد بن أبيه وعلى القضاء بينهم عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي.

أما الفرس فقد أجبر يزدجرد رستم على قيادة الجيش الفارسي بنفسه وأرسل سعد بن أبي وقاص وفدًا إلى رستم فيهم: النعمان بن مقرن المزني وحملة بن جوية الكناني وبسر بن أبي رهم والمغيرة بن شعبة والمغيرة بن زرارة.

وسار رستم وفي مقدمته الجالينوس، وجعل في ميمنته الهرمزان، وعلى الميسرة مهران بن بهرام، ثم سار رستم حتى وصل الحيرة ثم النجف حتى وصل القادسية ومعه سبعون فيلًا.

اليوم الأول وهو يوم أرماث:

عبر الفرس النهر في الصباح ونظموا جيشهم، ونظم سعد جيشه وحثهم على السمع والطاعة لنائبه خالد بن عرفطة لأن سعدًا أصابته دمامل في فخذيه وإليتيه فكان ينام على وجهه وفي صدره وسادة، ويقود المعركة من فوق قصره، وصلى المسلمون الظهر وكبر سعد التكبيرة الأولى فاستعدوا، وكبر الثانية فلبسوا عدتهم، وكبر الثالثة فنشط الفرسان، وكبر الرابعة فزحف الجميع، وبدأ القتال والتلاحم. ولما رأت خيل المسلمين الفيلة نفرت وركز الفرس بسبعة عشر فيلًا على قبيلة بجيلة فكادت تهلك، فأرسل سعد إلى بني أسد أن دافعوا عن بجيلة فأبلوا بلاء حسنًا وردوا عنهم هجمة الفيلة، ولكن الفيلة عادت

للفتك بقبيلة أسد، فنادى سعد عاصم بن عمرو التميمي ليصنع شيئًا بالفيلة، فأخذ رجالًا من قومه فقطعوا حبال التوابيت التي توضع على الفيلة فارتفع عواؤها فما بقي لهم فيل إلا أعري وقتل أصحابه ونفّس عن قبيلة أسد، واقتتل الفريقان حتى الغروب وأصيب من أسد تلك العشية خمسمائة كانوا ردءا للناس، وهذا هو اليوم الأول من المعركة ويسمى يوم أرماث وهو الرابع عشر من المحرم.

اليوم الثاني وهو يوم أغواث:

وفي اليوم الثاني أصبح القوم فوكل سعد بالقتلى والجرحى من ينقلهم، وسلم الجرحى إلى النساء ليقمن عليهم، وفي أثناء ذلك طلعت نواصي الخيل قادمة من الشام يتقدمهم هاشم بن عتبة القرشي والقعقاع بن عمرو التميمي، وقسم القعقاع جيشه إلى أعشار وهم ألف فارس وانطلق أول عشرة ومعهم القعقاع فلما وصلوا تبعتهم العشرة الثانية وهكذا حتى تكامل وصولهم في المساء، فألقى بذلك الرعب في قلوب الفرس، فقد ظنوا أن مائة ألف قد وصلوا من الشام فهبطت هممهم، ونازل القعقاع بهمن جاذويه أول وصوله فقتله، ولم ير أهل فارس في هذا اليوم شيئًا يفرحهم، فقد أكثر المسلمون فيهم القتل، ولم يقاتل الفرس بالفيلة هذا اليوم، لأن توابيتها قد تكسرت بالأمس فاشتغلوا هذا اليوم بإصلاحها، وألبس بعض المسلمين إبلهم فهي مجللة مبرقعة وأمرهم القعقاع أن يحملوا على خيل الفرس يتشبهون بها بالفيلة ففعلوا بهم هذا اليوم وهو يوم أغواث كما فعلت فارس يوم أرماث فجعلت خيل الفرس تفر منها وقاتلت الفرس حتى انتصف النهار، فلما اعتدل النهار تزاحفوا من جديد حتى انتصف الليل، فكانت ليلة أرماث تدعى الهدأة وليلة أغواث تدعى السواد.

اليوم الثالث وهو يوم عمواس:

أصبح القوم لليوم الثالث وبين الصفين من قتلى المسلمين ألفان ومن جريح وميت من الفرس عشرة آلاف، فنقل المسلمون قتلاهم إلى المقابر والجرحى إلى النساء، وأما قتلى الفرس فبين الصفين لم ينقلوا.

وبات القعقاع لا ينام فجعل يسرب أصحابه إلى المكان الذي فارقهم فيه بالأمس وأوصاهم: «إذا طلعت الشمس فأقبلوا مائة مائة»، ففعلوا ذلك في الصباح فزاد ذلك في هبوط معنويات الفرس.

وابتدأ القتال في صباح اليوم الثالث وسمي يوم عمواس، والفرس قد أصلحوا توابيتهم، فأقبلت الفيلة يحميها الرجالة فنفرت الخيل، ورأى سعد الفيلة عادت لفعلها يوم أرماث فقال لعاصم بن عمرو والقعقاع: «اكفياني الفيل الأبيض»، وقال لحمال والربيل: «اكفياني الفيل الأجرب»، فأخذ الأولان رمحين وتقدما نحو الفيل الأبيض فوضعا رمحيهما في عينيه، فنفض رأسه وطرح ساسته ودلى مشفره فضربه القعقاع فوقع لجنبه، وحمل الآخران على الفيل الأجرب فطعنه حمال في عينه فجلس ثم استوى وضربه الربيل فأبان مشفره فأفلت الأجرب جريحًا وولى وألقى نفسه في النهر واتبعته الفيلة وعدت حتى وصلت المدائن، ثم تزاحف الجيشان فاجتلدوا وسميت هذه الليلة ليلة الهرير، وفي هذه الليلة حمل القعقاع وأخوه عاصم بن عمرو التميمي والجيش على الفرس بعد صلاة العشاء فكان القتال حتى الصباح، وانقطعت الأخبار عن سعد ورستم فلم ينم الناس تلك الليلة.

فلما جاءت الظهيرة كان أول من زال عن مكانه الفيرزان والهرمزان فانفرج القلب، وأرسل الله ريحًا هوت بسرير رستم وعلاه الغبار ووصل القعقاع إلى السرير فلم يجد رستم الذي هرب واستظل تحت بغل فوقه حمله فضرب هلال بن علفة التيمي من بني الرباب الحمل الذي تحته رستم وهو لا يعرف بوجوده فهرب رستم إلى النهر فرمى نفسه ورآه هلال فتبعه وارتمى عليه فأخرجه من النهر ثم قتله، ثم صعد طرف السرير وقال: «قتلت رستم ورب الكعبة!! إلي إلي!!».

فانهارت حينئذ معنويات الفرس فانهزموا وعبروا النهر، فتبعهم المسلمون يخزونهم برماحهم فسقط من الفرس في النهر ألوفا.

وقتل من المسلمين ليلة الهرير ويوم القادسية ثمانية آلاف وخمسمائة، ومن الفرس في الليلة نفسها أكثر من ثلاثين ألفا ولحق زهرة بن الحوية التميمي الجالينوس فقتله.

دروس وعبر من القادسية :

يقول المؤرخ الإسلامي راغب السرجاني : الدرس الكبير المستفاد من القادسية أن النصر يأتي نتيجة عاملين أساسيين هما: الإيمان بالله، والأخذ بالأسباب.

١ -الإيمان بالله أساس النصر:

نجد أن تحركات الجيش الإسلامي منذ بداية خروجه من المدينة، حتى وصوله القادسية واشتراكه في القتال تدل على أن الجيش الإسلامي كله يتمتع بإيمان قوي بالله؛ فيرسل عمر بن الخطاب برسالة إلى سعد بن أبي وقاص، يأمره بتقوى الله وتجنب المعاصي، ويقول له: إن أخوف ما يخاف على الجيش هو المعاصي، ويخاف عليه من المعاصي أكثر من خوفه عليهم من جيش فارس.

٢ - الأخذ بالأسباب من عوامل النصر :

بدأ المسلمون التجهيز للمعركة في بدايات العام الخامس عشر الهجري، ووقعت الموقعة في شهر شعبان من العام نفسه، فاستغرق التجهيز للمعركة تسعة أشهر ونصف.

وقد أعدَّ سيدنا عمر بن الخطاب لهذه المعركة أكبر قوة للمسلمين، فلم يسمع ببطل من أبطال المسلمين في الجزيرة العربية إلا ألحقه بهذا الجيش، وأمدَّ الجيش بالأسلحة والأموال والخيول والعتاد، وألحق بالجيش الأطباء والشعراء والخطباء، ومن لهم كلمة عند الناس.

حكمة القائد:

ونذكر حكمة سيدنا سعد بن أبي وقاص القائد في التعامل مع معصية الجندي للقائد.

وأول هذه المواقف:استكثار عمرو بن معديكرب تولي قيس بن هبيرة إمرته، فرأى سيدنا سعد بن أبي وقاص أن عمرو بن معديكرب ما زال بنفسه بعض آثار الجاهلية، وكان ردُّ سيدنا سعد على هذا الأمر بأن لامه على فعلته، ثم أخرجه في جيش تحت إمرة سيدنا قيس بن هبيرة مرة أخرى كنوع من التربية.

الموقف الثاني: مخالفة سيدنا طليحة بن خويلد، ومحاربته للفرس رغم نهي سيدنا سعد بن أبي وقاص له عن الاشتراك في قتال مع الفرس إلا بعد أن يأذن له، فما كان من سيدنا سعد بن أبي وقاص إلا أن لامه على ذلك بشيء من الرِّقَّة؛ لأنه كان يعلم أن هذا الأمر يبغي به النصر للمسلمين ولم يكن فيه استكبار على رأي الأمير.

الموقف الثالث: وكان هذا الموقف في بداية المعركة فقد شغب أبو محجن الثقفي على سيدنا خالد بن عرفطة، وكان هذا الأمر شديدًا جدًّا على المسلمين، فقد عصى الأمير في

موقف القتال وأمام الفرس، فحبسه سيدنا سعد بن أبي وقاص في قصر قديس مع شدة حاجة المسلمين إليه.

الموقف الرابع: وكانت هذه المعصية من القعقاع بن عمرو التميمي لسيدنا سعد بن أبي وقاص في ليلة الهرير في اليوم الثالث من أيام القادسية، وكانت معصيته تتمثل في حملته على الفرس بعد التكبيرة الأولى ولم ينتظر التكبيرة الثالثة، وقد فعل ذلك اجتهادًا منه، فقد غلب على ظنه هجوم الفرس على المسلمين، وأن في ذلك هلكة للمسلمين، فما كان منه إلا أن سارع بالهجوم بفرقته على الفرس، فقال سيدنا سعد بن أبي وقاص: «اللهم اغفر له وانصره، قد أذنت له إذ لم يستأذني».

الحرب النفسية ضد الفرس:

لقد هُزِمَ الفرس هزيمة نفسية ساحقة كان لها أثر في هزيمتهم في المعركة، وتعددت عوامل هذه الهزيمة على الفرس، فمنها: دعوة رسل المسلمين للفرس إلى الإسلام؛ وكان هذا الأمر شديدًا على نفوس الفرس. ومن أساليب الحرب النفسية التي اتخذها المسلمون في المعركة أنهم كانوا يبارزون بأشد المقاتلين ضراوة وبأسًا مما فَتَّ في عَضُدِ الفرس؛ لما رأوا قتلاهم صرعى في بداية المعركة.

(٢)
اليرموك ... المعركة التي قلبت موازين القوى وغيرت خريطة التاريخ [1]

معركة اليرموك» ٥ رجب ١٣هـ - ٢ سبتمبر ٦٣٤م» إنها واحدة من أعظم معارك الإسلام وأقوى صدام بين الدولة الإسلامية والدولة الرومية أو البيزنطية النصرانية، والمعركة التي أنهت الوجود الروماني في أرض الشام الطاهرة، وغيرت موازين القوى في العالم القديم، وقد تجلت في هذه المعركة الكثير من الدروس والعبر والحقائق التي يجب على أهل الإسلام فهمها وتدبرها.

ويوم الجهاد يوم عظيم من أيام الله وكل أيام الجهاد أيام عظيمة وكل ساعات الجهاد ساعات عظيمة، ولكن الله يفضل أيامًا على أيام ويفضل أمكنة على أمكنة، و هذا اليوم يوم اليرموك من أعظم الأيام في تاريخ الإسلام على الإطلاق، فإن الله شاء في ذلك اليوم أن يغير من خريطة التاريخ، حيث من الممكن أن ينتصر المسلمون في موقعة والثانية والثالثة ولكن تأتي موقعة بعينها فتغير التاريخ وتغير معها معالم الدولة الإسلامية ومعالم الدولة الرومية أو الدولة الفارسية، وقد مرَّ المسلمون في فتح الشام بمعارك كثيرة منها: أجنادين ومنها موقعة بيسان وفتح دمشق وفتح بعلبك وحمص ومنها معركة مَرْج الصُّفَّر الأولى والثانية والآن يصل المسلمون إلى موقعة فصل الخطاب وهي من المواقع التاريخية الكبيرة.

تبدأ أحداث المعركة عندما قرر الخليفة الراشد أبو بكر الصديق فتح بلاد الشام وأرسل إليها أربعة جيوش دفعة واحدة لفتح علة جبهات بالشام وحتى ينشغل الروم بكل جيش على حدة ولا يتجمعون للقاء المسلمين بقوتهم الضاربة، ولكن أدرك هرقل زعيم الروم خطة المسلمين وكان حكيمًا عاقلًا كاد أن يسلم عندما وصلته رسالة النبي ﷺ ولكنه آثر سلطانه ومنصبه ، فأعد مجموعة جيوش ضخمة، بحيث يكون كل جيش منها منفردًا

(١) جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة " ٢٠ " –عرض / ربيع سكر - ١ اغسطس ٢٠١٣ ... نقلا عن موقع قصة الإسلام دراسة للدكتور راغب السرجاني

أضعاف الجيش المسلم الذي سيقابله، فعظم الخطب على المسلمين، إذ إن إجمالي الجيوش المسلمة الأربعة سبعة وعشرون ألفًا، في حين أن جيوش الرومان بلغت أربعين ومائتي ألف، فأشار عمرو بن العاص على قادة الجيوش الاجتماع تحت راية واحدة ثم طلب الإمدادات من الخليفة أبي بكر الصديق.

عندما وصلت الأخبار للخليفة الراشد قال كلمته الشهيرة: «والله لأشغلن النصارى عن وساوس الشيطان بخالد بن الوليد» وأرسل إليه وكان بالعراق وقتها يهد عرش الأكاسرة بحسامه البتار، وأمره بالانتقال بأقصى سرعة لنجدة المسلمين بالشام، فلبى القائد الفذ أوامر خليفته وأخذ معه نصف الجيش وتعداده تسعة آلاف، وقام بخطوة في غاية الجراءة والشجاعة حيث اخترق صحراء قاحلة محرقة لا يجسر أحد على اختراقها ليختصر المسافة الطويلة لأقل من نصف الوقت وهو يهتف قائلًا: «لابد أن أخرج من وراء جموع الروم فلا تحبسوني عن نصرة وغياث المسلمين» ووصل البطل بجيشه الخفيف في خمسة أيام، وفي الطريق فتح عدة مدن كانت خاضعة للروم مثل «تدمر» و«بهراء» و«قراقر» و«بصرى» فاستبشر المسلمون بذلك.

تكامل جمع المسلمين بوادي نهر اليرموك ستة وثلاثين ألفًا، واجتمع خالد مع باقي قادة الجيش ولاحظ أمرًا في غاية الخطورة يؤدي حتمًا للهزيمة، ألا وهو أن المسلمين منقسمون على أنفسهم وسوف يقاتلون الروم متساندين، ومعنى كلمة متساندين أي أن كل جيش سيكون تحت طاعة وإمرة قائده فقط، أي أن المسلمين سيكون لهم خمسة قواد في القيادة العامة وهذا عين الخذلان والفرقة، فوعظهم خالد بن الوليد وحذرهم من خطورة ذلك، وأن الخليفة لا يرضاه أبدًا، فاقتنع باقي القادة بفكرة خالد وهي أن يكون لكل يوم من أيام المعركة قائد واحد أي يتبادلون الإمارة فيما بينهم.

أصبح خالد بن الوليد القائد العام للجيوش الإسلامية، فعمل على تنظيمها على شكل كراديس [كتائب] لتبدو للناظر كثيفة، وجعل على رأس كل كردوس بطلًا من الأبطال المشهورين، وأعطى النساء في مؤخرة الجيش سيوفًا يضربن بها الفارين من أرض القتال، وجعل أبا سفيان واعظ الجيش والمقداد بن الأسود قارئ سور الجهاد والشهادة، وحميت النفوس واشتدت العزائم، وحاول القائد العام للرومان «ماهان» عرض أموال طائلة على المسلمين ليرجعوا عن القتال، ولكن خالد رفض هذا العرض الدنيوي الرخيص لأن

المسلمين ما خرجوا للدنيا، بل لله وللإسلام ونشر الدعوة.

وفي يوم ٥ رجب سنة ١٣هـ اندلعت أعظم معارك الإسلام على أرض الشام بين الحق والباطل ودارت رحى حرب لم يذق أو يخض الرومان مثلها، فقد كان القتال يوم اليرموك على أشده وثبت كل من المسلمين والرومان يومها ثباتًا عظيمًا، حتى صار القتال مثل الرحا، فلم يُرَ يومها إلا مخ ساقط، وكف نادر، ورأس طائر، وتصافح المسلمون والرومان بسيوفهم، وظل خالد يضرب بسيفه من طلوع الشمس لغروبها وصلى الناس إيماءً.

مشاهد رائعة في أرض المعركة:

ووقعت عدة مشاهد رائعة هائلة في أرض المعركة منها:

١ـ مشهد أول من استشهد من المسلمين، والرسالة التي حمّله إياها أبو عبيدة بن الجراح إلى الرسول ﷺ.

٢ـ مشهد مبايعة عكرمة بن أبي جهل وأربعمائة من سادة المسلمين الله عز وجل على القتال حتى الشهادة.

٣ـ مشهد كتيبة خالد التي تجاوز عددها مائة مقاتل، والتي ردت هجوم خمسين ألفًا من الرومان.

٤ـ قتال نساء المسلمين وبطلتهم الجسورة «أسماء بنت يزيد الأنصارية» التي قتلت تسعًا من الروم بعمود خيمتها.

٥ـ فطنة خالد في التعامل من الرسالة التي جاءت من المدينة بوفاة الصديق واستخلاف الفاروق وعزل خالد من القيادة العامة، حيث كتمها حتى لا يفت ذلك في عضد المجاهدين.

٦ـ الحوار العجيب الذي دار بين خالد بن الوليد و«جورج بن تيودور» الذي تسميه المراجع العربية «جرجة» والذي انتهى بإسلام جورج وانضمامه لجيش المسلمين ضد إخوانه الرومان ثم استشهاده في القتال، وهذا من أعجب المشاهد.

وعلى الرغم من ضخامة الجيوش الرومانية واستعدادها للقتال لفترة طويلة، إلا إن

الصحابة أطفئوا نارهم وقضوا على قوتهم وطحنوهم في يوم واحد فقط، ولم تكد شمس اليوم تغرب حتى كان نصر الله قد نزل على المسلمين وهزم الروم هزيمة مدوية كسرت عمودهم الفقري ببلاد الشام، وتساقطت بعدها المدن والحصون الشامية.

الجدير بالذكر أن هناك خلط في تاريخ هذه المعركة، فالبعض يجعلها سنة ١٥ هـ بدلًا من ١٣ هـ استنادًا على المراجع البيزنطية التي أرخت للمعركة، ووضع على أساس ذلك سير مخالف للفتوحات الشامية جعل فيها معركة اليرموك خاتمة المعارك بالشام، ولكننا أثبتنا ما ذكره المؤرخون المسلمون الأوائل مثل خليفة بن خياط والطبري وابن الأثير وابن كثير وغيرهم. فليتنبه لذلك .

الإستراتيجية العسكرية لخالد بن الوليد:

يقول المؤرخ الإسلامي الدكتور راغب السرجاني : وللأسف الشديد لم نقدر نحن سيدنا خالد قدره، فلم نقم حتى بتدريس هذه النظريات العسكرية الإسلامية المبتكرة في مدارسنا، أو كلياتنا العسكرية !!

ولنتوقف لنقرأ تحليل أحد المحللين العسكريين الألمان المعاصرين (كلاوس فيتز) في القرن التاسع عشر، الذي كان أقوى محلل عسكري في ذلك الوقت، ويذكر في كتابه (في الحرب): إن أروع لحظات الدفاع هي لحظة الانتقال السريع والقوي إلى الهجوم كضربة ثأر بسيف بتار، والطرف الذي لا يفكر في هذه اللحظة منذ البداية، ولا يدخلها عند نشوب العمليات في مفهوم دفاعه، لا يمكن أن يفهم أبدًا تفوق الدفاع.

-يرى أن الدفاع خير وسيلة للهجوم، فيظل الجيش في الدفاع، حتى يستهلك العدو قوته، ثم يبدأ الهجوم، وهذه أروع لحظات المعركة، وفيها تُشَلُّ قوة العدو.

وقد وضعها في القرن ١٩ الميلادي، ثم جاء محلل آخر يدعى (ليدل هاد) يسمونه: نبي الإستراتيجية العسكرية في القرن العشرين؛ فنقض نظرية الألماني في جزء منها، فقال:

-إن الهدف من المعركة هو أحداث صدمة تربك تفكير العدو، بتوجيه ضربة له في مكان لا يتوقعه، وأحداث خسارة مادية تؤثر على نفسية العدو.

وبذلك فهو يرى أن الأجدى ليس الدفاع، وإنما توجيه ضربة للعدو لا يتوقعها، تحدث

خسارة مادية، تكون نتيجتها انهيار معنويات العدو). ثم يقول: وحاول أن تخلق الفوضى في صفوف عدوك، إذا كنت تنوي ضربه الضربة الساحقة، ويؤيد (كلاوس فيتز) في جزئية أخرى، تخص ما نحن بصدد الحديث عنه هنا، فيقول: إذا كان عدد الجنود في معسكرك يقل عن عدد الجنود في معسكر العدو (كموقف المسلمين في موقعة اليرموك) فحاول مؤقتًا أن تعطيه فرصة للهجوم على معسكرك، ولا تهجم عليه.

وأكبر الظن أنك ستواجه ناحية ضعيفة في معسكر العدو، لتفاجئه أنت بالهجوم، عندئذٍ استجمع كل قوتك، واعزم على النصر، وسيكون النصر حليفك.

ولو نظرنا لخطة خالد بن الوليد ، ثم قارناها بما يقوله خبراء العسكرية بعده بقرون، لوجدنا خالدًا في الجزء الأول من المعركة في اليرموك كان عازمًا على الأخذ بخطة «كلاوس فيتز» الأولى، وهي أنه يدافع حتى تنهك قوى الجيش الرومي، ثم يقتحم بعد ذلك، ويهجم عليهم، وفي الجزء الثاني من المعركة، أراد أن يفاجئ جيش الروم بضربة تحدث خسارة مادية واضحة، وتؤثر على نفسيتهم، ومعنوياتهم.

وبذلك استعمل خالد النظريتين معًا في هذه المعركة، قبل خبراء العسكرية بنحو ١٣ قرنًا، وهاتان النظريتان يدرسان في الكليات العسكرية الآن، ولا يشار بأي كلمة إلى أن هناك قائدًا مسلمًا طبّق هذه النظريات في موقعة واحدة، هو سيف الله المسلول وأرضاه.

وللأسف الشديد لم نقدر نحن سيدنا خالد قدره، فلم نقم حتى بتدريس هذه النظريات العسكرية الإسلامية المبتكرة في مدارسنا، أو كلياتنا العسكرية!!

مشاهد من اليرموك:

جاء في موسوعة ويكيبيديا الحرة الالكترونية العالمية : دامت المعركة ستة أيام، كان المسلمون فيها يردون هجمات الروم في كل يوم، حيث كان خالد بن الوليد يستخدم «سرية الخيالة المتحركة السريعة» التي يقودها بنفسه ليتحرك بسرعة خاطفة من مكان إلى آخر حيث يكون جيش المسلمين في تراجع تحت ضغط الروم، ويعود كل من الجانبين في نهاية النهار إلى صفوفه الأولية قبل القتال أو إلى معسكراته.

وجرى الأمر كذلك خلال الأربعة أيام الأولى كانت فيها خسائر الروم بالأعداد أكبر

من خسائر جيش المسلمين، وفي اليوم الخامس لم يحدث الشيء الكثير بعد رفض خالد «هدنة ثلاثة أيام» التي عرضها الروم بقوله المشهور لرسول الروم «نحن مستعجلون لإنهاء عملنا هذا

وفي اليوم السادس تحولت إستراتيجية خالد من الدفاع إلى الهجوم، وتمكن بعبقريته الفذة من شن الهجوم المجازف على الروم واستخدام الأسلوب العسكري الفريد من نوعه آنذاك وهو الاستفادة الصحيحة من إمكانيات «سرية الفرسان سريعة التنقل» ليحول الهزيمة الموشكة للمسلمين إلى نصر مؤزر لهم.

وقاتلت نساء المسلمين من خلف الجيوش (في معسكرات المسلمين الخلفية) في هذه المعركة، وقتلن عددًا كبيرًا من الروم وقتلت خولة بنت الأزور على سبيل المثال، وكن يضربن من انهزم من المسلمين بالحجارة ويزجرنهم، وفق تعليمات خالد عند قدومه وتنظيمه لجيش المسلمين، ويصرخن قائلات: «أين تذهبون وتدعوننا للعلوج»، وعندئذ يرجع المنهزمون، وقد تكرر ذلك في كل يوم من أيام المعركة، حتى قيل أن بعض المقاتلين عندما كانوا يهمون بالفرار إلى الخلف كانوا يقولون »مواجهة الروم ولا مواجهة نسائنا» وبعدها يكر المسلمون لشن الهجوم المعاكس.

بعد المعركة:

كانت معركة اليرموك من أعظم المعارك الإسلامية، وأبعدها أثرا في حركة الفتح الإسلامي، فقد لقي جيش الروم (أقوى جيوش العالم يومئذ (هزيمة قاسية، وفقد زهرة جنده، وقد أدرك هرقل الذي كان في حمص حجم الكارثة التي حلت به وبدولته، فغادر سوريا نهائيا وقلبه ينفطر حزنا، وقد ترتب على هذا النصر العظيم أن استقر المسلمون في بلاد الشام، واستكملوا فتح مدنه جميعا، ثم واصلوا مسيرة الفتح إلى الشمال الإفريقي.

(٣)
ذات الصواري.. أول معركة بحرية في الإسلام [١]

لم يكن للمسلمين عهد بركوب البحر أو الحرب في أساطيله، لكنهم وجدوا من خلال فتوح بلاد الشام أن الأسطول البيزنطي مصدر تهديد خطير ومباشر لأمنهم وأمن المناطق المفتوحة واستقرار الإسلام فيها، فأدركوا أن بناء أسطول إسلامي ضرورة إستراتيجية حيوية، وأول من اقترح بناء أسطول بحري إسلامي كان معاوية بن أبي سفيان والي بلاد الشام على الخليفة عمر بن الخطاب، ولكن لم يتم بناء أسطول عسكري إسلامي إلا في عهد الخليفة عثمان بن عفان، فكانت نواة هذا الأسطول من السفن التي وجدوها في موانئ الشام ومصر، ثم انطلقوا إلى صناعة السفن في دور الصناعة، وهكذا دخل السلاح البحري في الإستراتيجية العسكرية الإسلامية لأول مرة في تاريخ المسلمين، وبدأ هذا السلاح الناشئ بسرعة مذهلة في ممارسة العمليات البحرية التي تستهدف غزو جزر البحر الأبيض ذات الأهمية الإستراتيجية في تأمين الشام ومصر. وعمليات القتال البحري ضد أسطول بيزنطة مثل معركة ذات الصواري موضوع هذا البحث.

وكان من الطبيعي ألا تقف بيزنطة مكتوفة الأيدي أمام تلك القوة البحرية التي قامت في البحر الأبيض المتوسط، وأصبح تحت يدها أغلى ما كانت تملك من دور للصناعة وقواعد بحرية في عكا والإسكندرية، مما يشكل تهديدًا خطيرًا لسيادتها التي امتدت زمنًا بلا منافس. فقد أصيب الروم بضربة حاسمة في إفريقية، وتعرضت سواحلهم للخطر بعد سيطرة الأسطول الإسلامي على سواحل المتوسط من ردوس حتى برقة، فجمع قسطنطين بن هرقل أسطولا بناه الروم من قبل، فخرج بألف سفينة لضرب المسلمين ضربة يثأر لها لخسارته المتوالية في البر، فأذن عثمان ﷺ لصد العدوان، فأرسل معاوية مراكب الشام بقيادة بسر بن أرطأة، واجتمع مع عبد الله بن سعد بن أبي السرح في

(١)ا كتاب: تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان رضي الله عنه، جا/ ٢٠٤-٢٠٩. تأليف: عَلي محمد محمد الصلابي وانظر جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة " ٢١ " –عرض / ربيع سكر – ٢ اغسطكس ٢٠١٣ ، وراجع موسوعة ويكيبيديا الحرة الالكترونية العالمية .

مراكب مصر، وكانت كلها تحت أمرته، ومجموعها مائتا سفينة فقط، وسار هذا الجيش الإسلامي وفيه أشجع المجاهدين المسلمين ممن أبلوا في المعارك السابقة؛ فقد انتصر هؤلاء على الروم من قبل في معارك عديدة، فشوكة عدوهم في أنفسهم محطمة، لا يخشونه ولا يهابونه، على الرغم من قلة عدد سفنهم إذا قيست بعدد سفن عدوهم وخرج المسلمون إلى البحر وفي أذهانهم وقلوبهم إعزاز دين الله وكسر شوكة الروم.

أسباب معركة ذات الصواري:

ولقد كان لهذه المعركة التاريخية أسباب، منها:

١ - الضربات القوية التي وجهها المسلمون إلى الروم في إفريقية.

٢ - أصيب الروم في سواحلهم الشرقية والجنوبية بعد أن سيطر المسلمون بأسطولهم عليها.

٣ - خشية الروم من أن يقوى أسطول المسلمين فيفكروا في غزو القسطنطينية.

٤ - أراد قسطنطين بن هرقل استرداد هيبة ملكه بعد الخسائر المتتالية برًّا، وعلى شواطئه في بلاد الشام ومصر وساحل برقة.

٥ - كما أراد الروم خوض معركة ظنوا أنها مضمونة النتائج، كي تبقى لهم السيطرة في المتوسط، فيحافظوا على جزره، فينطلقوا منها للإغارة على شواطئ بلاد العرب.

٦ - محاولة استرجاع الإسكندرية بسبب مكانتها عند الروم، وقد ثبت تاريخيا مكاتبة سكانها لقسطنطين بن هرقل ملك الروم.

أين وقعت هذه معركة ذات الصواري؟

وهذا السؤال لم يجد المؤرخون له جوابا موحدا؛ فالمراجع العربية لم تحدد مكانها، باستثناء مرجع واحد على ما نعلم صرح بالمكان بدقة، وآخر قال اتجه الروم إليه.

المصادر والمراجع الإسلامية:

- في "فتح مصر وأخبارها" ذكر الكتاب خطبة عبد الله بن سعد بن أبي السرح وقال: قد بلغني أن هرقل قد أقبل إليكم في ألف مركب. ولم يحدد مكان المعركة.

- "الطبري" في أخبار سنة ٣١هـ ربط حدوث ذات الصواري بما أصاب المسلمون من الروم في إفريقية، وقال: فخرجوا في جمع لم يجتمع للروم مثله قط.

- ولم يذكر "الكامل في التاريخ" مكان الموقعة أيضا، ولكنه ربط سبب وقوعها بما أحرزه المسلمون من نصر في إفريقية بالذات.

- وفي "البداية والنهاية" : فلما أصاب عبد الله بن سعد بن أبي السرح من أصاب من الفرنج والبربر بلاد إفريقية، حميت الروم واجتمعت على قسطنطين بن هرقل، وساروا إلى المسلمين في جمع لهم لم ير مثله منذ كان الإسلام؛ خرجوا في خمسمائة مركب وقصدوا عبد الله بن سعد بن أبي السرح في أصحابه من المسلمين ببلاد المغرب.

- "تاريخ الأمم الإسلامية": لم يذكر مكان الموقعة أيضا.

ورجح الدكتور شوقي أبو خليل أن المعركة كانت على شواطئ الإسكندرية، وذلك للأسباب التالية:

- كتاب "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" يذكر صراحة: غزوة ذات الصواري في البحر من ناحية الإسكندرية .

- تاريخ ابن خلدون يذكر : ثم بعث ابن أبي السرح السرايا ودوخ البلاد فأطاعوا وعاد إلى مصر، ولما أصاب ابن أبي السرح إفريقية ما أصاب، ورجع إلى مصر خرج قسطنطين بن هرقل غازيا إلى الإسكندرية في ستمائة مركب.

- ربطت المراجع العربية التي لم تحدد موقع المعركة بين حدوث المعركة وبين ما خسره الروم في شمال إفريقية بالذات.

- الأسطول الرومي صاحب ماض عريق، فهو سيد المتوسط قبل ذات الصواري، فهو أجرأ على مهاجمة السواحل الإسلامية، ولذلك رجح الدكتور شوقي أبو خليل مجيء الأسطول الرومي إلى شواطئ الإسكندرية لاستعادتها بسبب مكانتها عند الروم، ومكاتبة أهلها لملكهم السابق، وهو بذلك يقضي أيضا على الأسطول الفتي في مهده، الذي شرع العرب في بنائه بمصر، فتبقى للروم السيطرة والسطوة في مياه المتوسط وجزره.

المراجع الأجنبية:

- المراجع الأجنبية تعرف ذات الصواري بموقعة فونيكة، وفونيكة هو ثغر يقع غرب مدينة الإسكندرية، بالقرب من مدينة مرسى مطروح، فهي تحدد الموقع تماما.

أحداث معركة ذات الصواري:

قال مالك بن أوس بن الحدثان: كنت معهم في ذات الصواري، فالتقينا في البحر، فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط، وكانت الريح علينا -أي لصالح مراكب الروم- فأرسينا ساعة، وأرسوا قريبا منا، وسكتت الريح عنا، قلنا للروم: الأمن بيننا وبينكم، قالوا: ذلك لكم، ولنا منكم. كما طلب المسلمون من الروم: إن أحببتم ننزل إلى الساحل فنقتتل حتى يكتب لأحدنا النصر، وإن شئتم فالبحر. قال مالك بن أوس: فنخروا نخرة واحدة، وقالوا: بل الماء الماء، وهذا يظهر لنا ثقة الروم بخبرتهم البحرية، وأملهم في النصر لممارستهم أحواله وفنونه، مرنوا عليه فأحكموا الدراية بثقافته وأنوائه فطمعوا بالنصر فيه، خصوصا أنهم يعلمون حداثة عهد المسلمين به.

بات الفريقان تلك الليلة في عرض البحر، وموقف المسلمين حرج، فقال القائد المسلم لصحبه: أشيروا عليَّ؟ فقالوا: انتظر الليلة بنا لنرتب أمرنا ونختبر عدونا، فبات المسلمون يصلون ويدعون الله -عز وجل- ويذكرونه ويتهجدون، فكان لهم دوي كدوي النحل على نغمات تلاطم الأمواج بالمراكب، أما الروم فباتوا يضربون النواقيس في سفنهم، وأصبح القوم، وأراد قسطنطين أن يسرع في القتال، ولكن عبد الله بن سعد بن أبي السرح لما فرغ من صلاته أماما بالمسلمين للصبح، استشار رجال الرأي والمشورة عنده، فاتفق معهم على خطة رائعة: فقد اتفقوا على أن يجعلوا المعركة برية على الرغم من أنهم في عرض البحر، فكيف تم للمسلمين ذلك؟ أمر عبد الله جنده أن يقتربوا من سفن أعدائهم فاقتربوا حتى لامست سفنهم سفن العدو، فنزل الفدائيون أو رجال الضفادع البشرية في عرفنا الحالي إلى الماء، وربطوا السفن الإسلامية بسفن الروم، ربطوها بحبال متينة، فصار ١٢٠٠ سفينة في عرض البحر، كل عشرة أو عشرين منها متصلة مع بعضها، فكأنها قطعة أرض ستجري عليها المعركة، وصفَّ عبد الله بن سعد المسلمين على نواحي السفن يعظهم ويأمرهم بتلاوة القرآن الكريم، خصوصا سورة الأنفال؛ لما فيها من معاني الوحدة والثبات والصبر.

وبدأ الروم القتال، فهم في رأيهم قد ضمنوا النصر عندما قالوا: بل الماء الماء، وانقضوا على سفن المسلمين بدافع الأمل بالنصر، مستهدفين توجيه ضربة أولى حاسمة يحطمون بها شوكة الأسطول الإسلامي، فنقض الروم صفوف المسلمين المحاذية لسفنهم، وصار القتال كيفما اتفق، وكان قاسيا على الطرفين، وسالت الدماء غزيرة اصطبغت بها صفحة الماء، فصار أحمر، وترامت الجثث في الماء، وتساقطت فيه، وضربت الأمواج السفن حتى ألجأتها إلى الساحل، وقتل من المسلمين الكثير، وقتل من الروم ما لا يحصى، حتى وصف المؤرخ البيزنطي "ثيوفانس" هذه المعركة بأنها كانت يرموكا ثانيا على الروم . ووصفها الطبري بقوله: إن الدم كان غالبا في الماء في هذه المعركة ، حاول الروم أن يغرقوا سفينة القائد المسلم عبد الله بن أبي السرح، كي يبقى جند المسلمين دون قائد، فتقدمت من سفينته سفينة رومية، ألقت إلى عبد الله السلاسل لتسحبها وتنفرد بها، ولكن علقمة بن يزيد الغطيفي أنقذ السفينة والقائد بأن ألقى بنفسه على السلاسل وقطعها بسيفه .

وصمد المسلمون رغم كل شيء، وصبروا كعادتهم في معاركهم، فكتب الله -عز وجل- لهم النصر بما صبروا، واندحر ما تبقى من الأسطول الرومي، وكاد الأمير قسطنطين أن يقع أسيرا في أيدي المسلمين -كما ذكر ابن عبد الحكم- لكنه تمكن من الفرار لما رأى قواه تنهار وجثث جنده على سطح الماء تلقى بها الأمواج إلى الساحل. لقد رأى أسطوله الذي تأمل فيه خيرا ونصرا وإعادة كرامة يغرق قطعة بعد قطعة، ففر مدبرا والجراحات في جسمه، والحسرة تأكل فؤاده، يجر خيبة وفشلا، فوصل جزيرة صقلية ، وألقت به الريح هناك، فسأله أهله عن أمره فأخبرهم، فقالوا: شمت النصرانية، وأفنيت رجالها، لو دخل المسلمون لم نجد من يردهم فقتلوه، وخلوا من كان معه من المراكب .

نتائج معركة ذات الصواري:

١ - كانت ذات الصواري أول معركة حاسمة في البحر خاضها المسلمون، أظهر فيها الأسطول الفتيُّ الصبر والإيمان، والجَلَد والفكر السليم بما تفتّق عنه الذهن الإسلامي من خطة جعلت المعركة صعبةً على أعدائهم، فاستحال عليهم اختراق صفوف المسلمين بسهولة، كما استخدم المسلمون خطاطيف طويلة يجرون بها صواري وشرع سفن الأعداء، الأمر الذي انتهى بكارثة بالنسبة للروم.

٢ - كانت ذات الصواري حدًا فاصلا في سياسة الروم إزاء المسلمين، فأدركوا فشل خططهم في استرداد هيبتهم، أو استرجاع مصر أو الشام، وانطلق المسلمون في عرض هذا البحر الذي كان بحيرة رومية، وانتهى اسم بحر الروم إلى الأبد، واستطاع المسلمون فتح قبرص وكريت وكورسيكا وسردينيا وصقلية وجزر البليار، ووصلوا إلى جنوة ومرسيليا.

٣ - قتل قسطنطين فتولى ابن قسطنطين الرابع من بعده، وكان حَدَثًا صغير السن، مما جعل الظروف مواتية لقيام حملة بحرية وبرية إسلامية تستهدف عاصمة روما "القسطنطينية" فيما بعد.

٤ - الإعداد الروحي قبل المعركة -أو ما يسمى بالتوجيه المعنوي في أيامنا هذه- له قيمته في تحقيق النصر؛ حيث تتجه القلوب إلى الله بصدق، فهذا المؤمن الذي بات ليله في تهجد وذكر، يستمد العون من الله، من عظمته وعزته، بعد أن هيأ الأسباب، يلقى الأعداء بروح عالية لا يهاب الموت، فالله أكبر من كل شيء، وهذه المعارك التي نصف أحداثها التاريخية هي وصفة طبية نعرضها للتطبيق والنهج، لنستفيد منها في حياتنا؛ فحياة الصحابة ما هي إلا للقدوة وسيرة للاتباع .

٥ - أصبح البحر المتوسط بحيرة إسلامية، وصار الأسطول الإسلامي سيد مياه البحر المتوسط، وهذا الأسطول ليس للتسلط والقرصنة بل للدعوة إلى الله وكسر شوكة المشركين، ونشر الحضارة المنبثقة عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

٦ - عكف المسلمون على دراسة علوم البحرية، وصناعة السفن، وكيفية تسليحها، وأسلوب القتال من فوقها، وعلوم الفلك المتصلة بتسييرها في البحار، ومعرفة مواقعهم على المصورات البحرية المختلفة، فيما بعد، فعرفوا الاصطرلاب "البوصلة الفلكية"، وطوروها إلى المدى الذي استفاد منه بعد ذلك البحارة الغربيون أمثال: كرستوف كولومبس، وأمريكوفيسبوشي في اكتشافاتهم .

٧ - لقد كانت هذه المعركة مظهرا من مظاهر تفوق العقيدة الصحيحة الصلبة على الخبرة العسكرية والتفوق في العدد والعُدَد، فلقد كان الروم هم أهل البحر منذ القدم، وقد مروا بتجارب طويلة في الحروب البحرية، بينما كان المسلمون حديثي عهد بركوب البحر

والقتال البحري، ولكن الله تعالى أدلى المسلمين عليهم برغم التفوق المذكور؛ لأنه سبحانه قد سخر أولئك المؤمنين لنشر دينه وإعلاء كلمته في الأرض. وإن مما يشاد به في هذه المعركة قوة قائدها عبد الله بن سعد بن أبي السرح ورباطة جأشه، ومقدرته الجيدة على إدارة الحروب، وهي بعد ذلك لون من ألوان بسالة المسلمين واستقالتهم في الحروب بأنفسهم في سبيل إعزاز دينهم ورفع شأن دولتهم .

سبب التسمية:

جاء في موسوعة ويكيبيديا الحرة الالكترونية العالمية : بعض المؤرخين يرجع سبب تسمية المعركة بذات الصواري إلى كثرة عدد صواري السفن التي اشتركت فيها من الجانبين؛ وبعضهم الآخر يذكر أن هذا الاسم نسبة إلى المكان الذي دارت قريبًا منه، وهو ما نميلإليه وما يستنتج مما يلي:

قول الطبري: "فركب من مركب وحده ما معه إلا القبط حتى بلغوا ذات الصواري، فلقوا جموع الروم في خمسمائة مركب أو ستمائة". وقوله أيضًا: "وأقام عبد الله بذات الصواري أيامًا بعد هزيمة القوم".

قول ابن الأثير: (وأقام عبدالله بن سعدبذات الصواري بعدالهزيمة أيامًا ورجع).

ويضاف إلى ذلك أن المكان الذي دارت المعركة قريبًا منه اشتهر بكثرة الأشجار التي تستخدم أخشابها في صناعة صواري السفن، وقد أشار إلى ذلك أرشيبالد لويس بقوله: (ومما يلفت للنظر أن المكان الذي دارت فيه هذه المعركة، وهو ساحل الأناضول، يزدحم بغابات السرو الكثيفة وهو الشجر المستخدم في صواري السفن).

الآثار الإستراتيجية لذات الصواري:

أهم آثار معركة ذات الصواري تتلخص في نقطتين رئيسيتين:

١-انتصار المسلمين على عدو متفوق في العدد والعتاد ويعود ذلك لعدة أسباب أهمها قوة الإيمان والعقيدة والإدارة السليمة والاستثمار الأمثل للقدرات.

٢-انتهاء عصر السيادة البيزنطية في البحر المتوسط.

الفصل الثالث

معارك إسلامية غيرت خريطة العالم

(١)
معركة ملاذكرد .. فتحت الطريق إلى القسطنطينية [1]

معركة غيّرت وجه التاريخ :

تعد معركة «ملاذكرد» من أيام المسلمين الخالدة، مثلها مثل بدر، واليرموك، والقادسية، وحطين، وعين جالوت، والزلاقة، وغيرها من المعارك الكبرى التي غيّرت وجه التاريخ، وأثّرت في مسيرته. وكان انتصار المسلمين في ملاذكرد نقطة فاصلة؛ حيث قضت على سيطرة دولة الروم على أكثر مناطق آسيا الصغرى وأضعفت قوتها، ولم تعد كما كانت من قبل شوكة في حلق المسلمين، حتى سقطت في النهاية على يد السلطان العثماني محمد الفاتح.

كما أنها مهدت للحروب الصليبية بعد ازدياد قوة السلاجقة المسلمين وعجز دولة الروم عن الوقوف في وجه الدولة الفتية، وترتب على ذلك أن الغرب الأوربي لم يعد يعتمد عليها في حراسة الباب الشرقي لأوربا ضد هجمات المسلمين، وبدأ يفكر هو في الغزو بنفسه، وأثمر ذلك عن الحملة الصليبية الأولى.

ألب أرسلان:

يقول الكاتب الإسلامي أحمد تمام في دراسة له بموقع إسلام اون لاين : تولى ألب أرسلان حكم دولة السلاجقة سنة (٤٥٥ هـ/ ١٠٦٣م) خلفًا لعمه طغرل بك الذي أسس الدولة ومدَّ سلطانها تحت بصره حتى غدت أكبر قوة في العالم الإسلامي، وقضى-

(١) الكاتب الإسلامي أحمد تمام في دراسة له بموقع إسلام اون لاين وانظر / جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة " ٢٢ " – عرض / ربيع سكر – ٤ اغسطس ٢٠١٣.

ألب أرسلان السنوات الأولى من حكمه في المحافظة على ممتلكات دولته وتوسيع رقعتها، وتأمين حدودها من غارات الروم.

ثم تطلع إلى ضم المناطق المسيحية المجاورة لدولته؛ فاتجه صوب الغرب لفتح بلاد الأرمن وجورجيا والأجزاء المجاورة لها من بلاد الروم، وكان أهل هذه البلاد يكثرون من الإغارة على إقليم أذربيجان حتى صاروا مصدر إزعاج وقلق لسكانه، وهو ما دفع بالسلطان السلجوقي إلى ضرورة كبح جماح هؤلاء الغزاة. وأزعج ذلك إمبراطور الروم رومانوس ديوجينس، وأدرك أن التوسع السلجوقي لا يقف عند هذا الحد، وأن خطره سيهدد بلاده، فعزم على تحويل أنظار السلاجقة عن بلاده بالإغارة على بلاد الشام الشمالية، فهاجم مدينة «منبج» ونهبها وقتل أهلها، غير أن ذلك لم يكن كافيًا لدفع خطر السلاجقة على بلاده، فأعد جيشًا كبيرًا لضرب السلاجقة، وتحجيم قوتها وإضعافها.

غرور القوة:

جهّز الإمبراطور البيزنطي رومانوس جيشًا ضخمًا يتكون من مائتي ألف مقاتل من الروم والفرنجة والروس والبلغاريين واليونانيين والفرنسيين وغيرهم، وتحرك بهم من القسطنطينية عاصمة دولته، مُمنّيًا نفسه بنصر حاسم يقضي على خطر السلاجقة، فقد أطمعته قواته الغفيرة وعتاده الكثيف بأن النصر آتٍ لا ريب فيه، واتجه إلى ملاذكرد حيث يعسكر الجيش السلجوقي.

أدرك ألب أرسلان حرج موقفه؛ فهو أمام جيش بالغ الضخامة كثير العتاد، في حين أن قواته لا تتجاوز أربعين ألفًا، فبادر بالهجوم على مقدمة جيش الروم، ونجح في تحقيق نصر خاطف يحقق له التفاوض العادل مع إمبراطور الروم؛ لأنه كان يدرك صعوبة أن يدخل معركة ضد جيش الروم؛ فقواته الصغيرة لا قبل لها بمواجهة غير مضمونة العواقب، فأرسل إلى الإمبراطور مبعوثًا من قبله ليعرض عليه الصلح والهدنة؛ فأساء الإمبراطور استقبال المبعوث ورفض عرض السلطان، وأشاح بوجهه في غطرسة وكبرياء مطمئنًا من الفوز والظفر، ولم ينتظر سماع كلام مبعوث السلطان، وطالبه أن يبلغه بأن الصلح لن يتم إلا في مدينة الري عاصمة السلاجقة.

الاستعداد للقاء:

أيقن السلطان ألا مفر من القتال بعد أن فشل الصلح والمهادنة في دفع شبح الحرب؛ فعمد إلى جنوده يشعل في نفوسهم روح الجهاد وحب الاستشهاد، وأوقد في قلوبهم جذوة الصبر والثبات، ووقف فقيه السلطان وأمامه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري يقول للسلطان مقويًا من عزمه: إنك تقاتل عن دينٍ وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله قد كتب باسمك هذا الفتح، فالقِهم يوم الجمعة بعد الزوال، في الساعة التي يكون الخطباء على المنابر، فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر، والدعاء مقرون بالإجابة.

وحين دانت ساعة اللقاء في (آخر ذي القعدة ٤٦٣ هـ /أغسطس ١٠٧١م) صلى بهم الأمام أبو نصر البخاري، وبكى السلطان، فبكى الناس لبكائه، ودعا ودعوا معه، ولبس البياض وتحنط، وقال: إن قتلت فهذا كفني.

ساعة اللقاء في ملاذكرد:

أحسن السلطان ألب أرسلان خطة المعركة، وأوقد الحماسة والحمية في نفوس جنوده، حتى إذا بدأت المعركة أقدموا كالأسود الضواري تفتك بما يقابلها، وهاجموا أعداءهم في جرأة وشجاعة، وأمعنوا فيهم قتلًا وتجريحًا، وما هي إلا ساعة من نهار حتى تحقق النصر، وانقشع غبار المعركة عن جثث الروم تملأ ساحة القتال.

ووقع الإمبراطور البيزنطي أسيرًا في أيدي السلاجقة، وسيق إلى معسكر السلطان ألب أرسلان الذي قال له: ما عزمت أن تفعل بي إن أسرتني؟ فقال: أفعل القبيح. فقال له السلطان: فما تظن أنني أفعل بك؟ قال: إما أن تقتلني وإما أن تشهر بي في بلاد الشام، والأخرى بعيدة وهي العفو وقبول الأموال واصطناعي نائبًا عنك. فقال السلطان: ما عزمت على غير هذا.

إطلاق سراح الإمبراطور البيزنطي:

أطلق السلطان ألب أرسلان سراح الإمبراطور البيزنطي بعد أن تعهد بدفع فدية كبيرة قدرها مليون ونصف دينار، وأن يطلق كل أسير مسلم في أرض الروم، وأن تعقد معاهدة صلح مدتها خمسون عامًا، يلتزم الروم خلالها بدفع الجزية السنوية، وأن يعترف الروم

بسيطرة السلاجقة على المناطق التي فتحوها من بلادهم، وأن يتعهدوا بعدم الاعتداء على ممتلكات السلاجقة.

ثم أعاد السلطان غريمه وأسيره الإمبراطور البيزنطي إلى بلاده، وخلع عليه خلعة جليلة، وخصص له سرادقًا كبيرًا، وأعطاه قدرًا كبيرًا من المال لينفق منه في سفره، ثم أفرج عن عدد من ضباطه ليقوموا بخدمته، وأمر عددًا من رجاله بصحبته حتى يصل إلى دياره سالمًا.

ولم تكد تصل أخبار الهزيمة إلى القسطنطينية حتى أزال رعاياه «اسمه من سجلات الملك»، وقالوا: إنه سقط من عداد الملوك، وعُيِّن ميخائيل السابع إمبراطورًا؛ فألقى القبض على رومانوس الرابع الإمبراطور السابق، وسمل عينيه.

نتائج معركة ملاذكرد:

بعد انتصار المسلمين في هذه المعركة تغيّرت صورة الحياة والحضارة في هذه المنطقة؛ فاصطبغت بالصبغة الإسلامية بعد انحسار النفوذ البيزنطي تدريجيًّا عن هذه المنطقة، ودخول سكانها في الإسلام، والتزامهم به في حياتهم وسلوكهم.

وواصل الأتراك السلاجقة غزوهم لمناطق أخرى بعد ملاذكرد، حتى توغلوا في قلب آسيا الصغرى، ففتحوا قونية وآق، ووصلوا إلى كوتاهية، وأسسوا فرعًا لدولة السلاجقة في هذه المنطقة عرف باسم سلاجقة الروم، ظل حكامه يتناوبون الحكم أكثر من قرنين من الزمان بعد انتصار السلاجقة في ملاذكرد، وأصبحت هذه المنطقة جزءًا من بلاد المسلمين إلى يومنا هذا.

وكان من ثمار دخول هذه المنطقة في حوزة السلاجقة انتشار اللغتين العربية والفارسية، وهو ما كان له أثره في مظاهر الحضارة منذ ذلك الوقت حتى يومنا هذا، غير أن هزيمة الروم في موقعة ملاذكرد جعلتهم ينصرفون عن هذا الجزء من آسيا الصغرى، ثم عجزوا عن الاحتفاظ ببقية الأجزاء الأخرى أمام غزوات المسلمين الأتراك من السلاجقة والعثمانيين، وقد توالت هذه الغزوات في القرون الثلاثة التالية لموقعة ملاذكرد، وانتهت بالإطاحة بدولة الروم، والاستيلاء على القسطنطينية عاصمتها، واتخاذها عاصمة للدولة العثمانية، وتسميتها بإسلامبول أو إستانبول. المصدر: موقع إسلام أون لاين.

ألب أرسلان.. القائد المسلم هازم الصليبيين :

كانت مملكة بيزنطة تتكون بشكل رئيسي من مدينة القسطنطينية، ومن إقليم أرمينيا، ومن مناطق وحصون أخرى داخل أوربا. وقد صمدت زمنًا طويلًا في وجه الفتح الإسلامي، وخاضت حروبًا صليبية ضد المسلمين، كانت في معظمها سجالًا. لكنَّ الله هيأ للمسلمين قائدًا صادق الإيمان، تمكن من توحيد الإمارات الإسلامية التي حول دولة بيزنطة، واحتل معظم أرمينيا، وأصبح كالشوكة في حلق الدولة البيزنطية.

كان ذلك القائد هو البطل التركي المسلم «ألب أرسلان» رحمه الله.

كان البطل ألب أرسلان من الأتراك السلاجقة، وكان يعاونه في القيادة ابنه «ملكشاه»، فأخذا ينقصان دولة بيزنطة من أطرافها، حتى سيطرا على أرمينية، وكشفا ظهر دولة الرها، وأخضعا عمورية، حتى أصبحا على مقربة من قونية الواقعة على بحر إيجة في آسيا الصغرى. وفي أثناء ذلك كانت دولة بيزنطة تتحفز لاستعادة أرمينيا وكل ما فقدته من أرجائها، وقد واتتها الفرصة حين توفي الإمبراطور البيزنطي قسطنطين العاشر، فتولت الملك بعده زوجته الإمبراطورة إيدوسيا وصية على ولدها الصغير ميخائيل السابع. ثم تزوجت الإمبراطورة البيزنطية القائد العام لقواتها رومانوس ديوجين، وكان فارسًا مغوارًا وبطلًا مقدامًا يفاخر الصليبيون بفتوته وبطولاته. فلما رأى نفسه المتصرف في ملك الدولة البيزنطية طفق يؤلف جيشًا من متعصبي الصليبيين، ولم يزل يجمع الجيش، وينفق عليه الأموال الطائلة حتى بلغ جيشه مائة ألف مقاتل، كلهم متعطش لدماء المسلمين! إضافة إلى الحرس الجمهوري القوي الذي كان تدريبهم أعظم من غيرهم.

هذا بالإضافة إلى مرتزقة صليبيين من النورمان والفرنج والصقالبة والترك، المقيمين في جنوب روسيا والبشناق. فلما أصبح الجيش الصليبي تام التجهيز، توجه صوب أرمينيا بقيادة رومانوس نفسه زوج الإمبراطورة التي رفعته إلى رتبة إمبراطور. وكانت خطته أن يباغت أرمينية قبل أن يصل إليها ألب أرسلان، الذي كان في الجنوب يخمد الفتن. ولما بلغ البطل ألب أرسلان هجوم رومانوس في اتجاه حصن ملاذ كرد وحصن خُلاط، أسرع إلى أرمينيا ليواجه بجيشه الصغير تلك الجموع البيزنطية الهائلة بقيادة رومانوس ذلك الفارس الصليبي المتوثب. وحاول ألب أرسلان دعوة جيشه وجمع أكبر عدد منهم، لكنه وجد الوقت قصيرًا، فلم يتمكن من جمع أكثر من خمسة عشر ألف جندي سار بهم -رحمه الله- ليواجه بهم مائة ألف مقاتل.

لكنه -رحمه الله- كان عظيم الأمل في الله، فجمع فرسانه وخطبهم خطبة قال فيها: «سأقاتل صابرًا محتسبًا، فإن انتصرنا فتلك نعمة من الله، وإن كتبت لي الشهادة فهذا كفني وحنوطي جاهزين، وأكملوا معركتكم تحت قيادة ابني ملكشاه». ثم توجه وجنوده إلى الميدان فوجد قطعة من جيش العدو تقدر بعشرة آلاف عند بلدة خُلاط يقودهم قائد روسي؛ فاصطدم جيش المسلمين بتلك الفئة، فنصر الله المسلمين، وأُسر القائد الروسي، وقُتل عدد كبير من عسكر الكفر وجمعت الغنائم، وأرسلت إلى الخليفة في بغداد، فكان فألًا مباركًا استبشر به المسلمون في مقدمة المعركة الحاسمة. فلما تقارب المعسكران أرسل السلطان ألب أرسلان إلى القائد رومانوس يطلب منه الصلح والمهادنة، فرد الصليبي ردًّا قبيحًا حين كان جوابه (لا هدنة إلا بالري)، يعني أنه لن يقبل هدنة إلا بعد أن يدمر عاصمة السلاجقة، ويحتل كل ديار الإسلام؛ فانزعج السلطان المسلم، وركبه همٌّ شديد لعدم تكافؤ العدد. وهنا قال الأمام الفقيه أبو نصر محمد بن عبد الملك الحنفي: «إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره، وأرجو أن يكون الله قد كتب لك بجيشك القليل شرف النصر، فسر إلى العدو الكافر يوم الجمعة بعد الزوال والأئمة على منابرهم يدعون لجيشك بالنصر، والله غالب على أمره.»

وتم ذلك عند ظهيرة يوم جمعة من صيف أربعمائة وثلاث وستين للهجرة (٤٦٣هـ)، وبينما كان رومانوس ينزل بجيشه واديًا، انقض عليهم القائد المؤمن كأنه قارعة أو صاعقة بعد أن صلى وبكى؛ فبكى الناس لبكائه، ودعا الله فدعا الناس بدعائه، ثم ركب وقال للناس: «ليس عليكم الآن أمير، وكلكم أمير نفسه، من شاء أن ينصرف فليعد إلى أهله». وألقى القوس والنشاب وحمل السيف والدبوس معلنًا أن الأمر التحام وليس رماية، فالتفَّ الروم حول المسلمين، وكان المسلمون في الوسط.

فكانت فرصة وسط الغبار أن يقتل المسلمون عدوهم كيف يشاءون، ودارت الدائرة على العدو الكافر، فتناثر من قتلاهم ما لا يحصى، وجيء بالأسرى وإذا مقاتل صغير الجثة يسوق أمامه قائد الأعداء رومانوس.

وتذكر ألب أرسلان أنه مزح مع ذلك العسكري الصغير يومًا، فقال له: «وما يدريك أن تُحضر إلينا ملك الروم؟ وحقق الله مزحته، ووقف رومانوس صاغرًا بين يدي ألب أرسلان فضربه القائد المسلم ثلاث مقارع، وقال له: دعوناك إلى الهدنة فأبيت، فأين الهدنة التي في الري؟ ثم قال له: ما تظن أني فاعل بك؟ فقال: كل سوء .

لكن القائد المسلم -رحمه الله- قبل فدية مقدارها مليون دينار، واشترط عليه أن يطلق أسرى المسلمين؛ فقبل رومانوس ووقع بذلك، وعندئذ ناوله القائد المسلم عشرة آلاف دينار وأطلق معه حاشيته فوصل إلى بيزنطة مهزومًا، وهناك وجد أن الملك الصغير قد بلغ السن فتربع على العرش، فأظهر رومانوس ابتهاجًا بابن زوجته وأخبره أنه وقع على فدية بمليون دينار، فجمع الملك الجديد ما عنده وإذا هو ثلاثمائة ألف دينار فأرسلها رومانوس إلى ألب أرسلان، وحلف له أنه لا يملك غيرها اقبلها -رحمه الله- وسامح بالباقي.

لقد حصلت هذه المعركة قبل الحرب الصليبية بحوالي عشرين عامًا، فقد مات ألب أرسلان بعد ذلك بعام، وتولى الأمر بعده ابنه ملكشاه.

ولكن ظل العرب على الرغم من معركة ملاذ كرد التي يسميها الأجانب «منازي كرت»، ظل العرب إمارات متفرقة يحكم كل واحدة منها أتابك أو أمير إلى أن أقبلت حشود الصليبيين، فدخلوا ديار الإسلام ودمروا البلاد وقتلوا العلماء، وظل الحال كذلك مدة خمسين عامًا، حين هتف بالمسلمين هاتف الإسلام؛ فأيقظهم لتكون الضحية الأولى إمارة الرها التي أسقطها عماد الدين زنكي رحمه الله.

إن تاريخ المسلمين ظل على الزمن عجيبًا؛ لأن الكثرة والقلة لم تكن في حسبان المسلمين، إنما كانت القلة دوامًا منتصرة على الكثرة الكافرة؛ لكن المسلمين كانوا يُهزمون بتفرقهم وشتات أمرهم وأهواء زعمائهم، فإذا سخّر الله لهم من يلمُّ شعثهم ويجمع شملهم، عاد النصر وتحقق فيهم قول الله جل جلاله: { ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وديار المسلمين في أيامنا هذه تتقاسمها فتن؛ تترك الحليم حيران، ولن يكون لها فرج إلا إذا أبرم الله لها أمر رشد يوحدها تحت راية التوحيد، وكلمة التوحيد، وتتم عندئذٍ كلمة ربك صدقًا وعدلًا، لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم . رحم الله الأمير المسلم ألب أرسلان، وجزاه عن جهاده المحتسب خير الجزاء.

(٢)

محمد الفاتح وفتح القسطنطينية [1]

بشارة الرسول ﷺ:

في ٢٠ من جمادى الأولى ٨٥٧هـ = ٢٩ من مايو ١٤٥٣م فتح العثمانيون بقيادة السلطان "محمد الفاتح" مدينة القسطنطينية بعد أن تعددت المحاولات لفتحها منذ عهد معاوية بن أبي سفيان ﷺ. وقد ظلت القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطينية ألفًا ومائة وخمسة وعشرين عامًا إلى أن سقطت في أيدي العثمانيين، وكان لسقوطها دويٌّ هائل في أوربا.

وكان فتح القسطنطينية تحقيقا لبشارة رسول الله ﷺ الذي قال في الحديث الشريف: "لتفتحن القسطنطينية، ولنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش". وقد نال شرف تلك البشارة السلطان العثماني محمد الثاني بن مراد الثاني العثماني، الملقب بمحمد الفاتح .. وفي هذه الحلقة نتعرف على شخصية الفاتح، والمحاولات التي سبقت فتحها في عصور الخلافة المختلفة وكيف انتصر السلطان الفاتح وفتح القسطنطينية.

السلطان الغازي محمد الفاتح (٨٥٥- ٨٨٦هـ):

يحتل السلطان محمد الفاتح (محمد الثاني) عند أغلب المسلمين الشهرة الأولى في الدولة العثمانية، وذلك لعكوف مؤرخي أوروبا على تشويه تاريخ الدولة العثمانية، وللأسف الشديد تأثر كثير من المسلمين بهم حتى باتوا لا يعرفون عن إيجابياتها شيئًا غير فتح القسطنطينية، ولا يعرفون من حكامها إلا محمد الفاتح.

ومن الجدير بالذكر أنه برغم إيجابياته الكبيرة فهناك حكام آخرون بلغت في عهدهم الدولة العثمانية أوجهًا أكثر بكثير من عهد محمد الفاتح، ولكن لا ينكر أحد أن عهد محمد الفاتح -الذي تولى الحكم وعمره ٢٢ عامًا- من ألمع صفحات تاريخ العثمانيين

(١) المصدر: جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة " ٢٣ " – عرض / ربيع سكر – ٥ اغسطس ٢٠١٣

بالكامل، ويكفيه شهادة رسول الله عنه أنه قال: "لتفتحن القسطنطينية، ولنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش."

فتح القسطنطينية:

حاول المسلمون فتح القسطنطينية قبل العهد العثماني عدة مرات يحدوهم في ذلك حديث الرسول:

عن أبي قبيل قال: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص، وسئل أي المدينتين تفتح أولًا: القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق، قال: فقال عبد الله: بينما نحن حول رسول الله ﷺ بكتب إذ سئل رسول الله ﷺ أي المدينتين تفتح أولًا: أقسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ" مدينة هرقل تفتح أولًا"، يعني قسطنطينية.

لذلك أعد السلطان محمد الفاتح العدة لفتحها فبدأ ببناء قلعة على البر الأوربي تشرف على مضيق البوسفور، وتقابلها على البر الآسيوي القلعة التي بناها السلطان بايزيد الأول وبذلك يتحكم في مضيق البوسفور ويمنع وصول الإمدادات إلى القسطنطينية.

وشعر إمبراطور القسطنطينية بعزم السلطان على فتحها فعرض عليه دفع الجزية فرفض السلطان، وقبل أن نتعرض لأحداث الفتح نلقي نظرة على تحصين مدينة القسطنطينية الذي جعل منها مدينة صعبة المنال.

أولًا: كما نرى المانع المائي المتمثل في بحر مرمرة، وحتى مدخل القرن الذهبي عليه سلسلة عظيمة لمنع أو السماح بدخول أي سفينة.

ثانيًا: الأسوار التي تحيط بالمدينة من جميع الجهات حتى من جهة البحر، ومن جهة البر توجد الأسوار العظمى التي يصعب اختراقها.

ثالثًا: الحصن الموجود عند مدخل القرن الذهبي لمقاومة أي عدو.

نعود مرة أخرى لسير الأحداث، فعندما رفض السلطان محمد الثاني أن يدفع له إمبراطور بيزنطة الجزية في مقابل عدم مهاجمة القسطنطينية، استنجد إمبراطور بيزنطة بنصارى أوربا، فأرسلت له جنوه (وهي إحدى الإمارات الأوربية في ذلك الوقت) ٣٠ سفينة حربية وجاءت في الوقت الذي يحاصر فيه العثمانيون القسطنطينية من جميع

الجهات، فاصطدمت السفن بالأسطول العثماني واستطاع الجنويون التسلل إلى القرن الذهبي، وحينما حاول العثمانيون اللحاق بهم أغلقت السلسلة في وجوههم بعد أن دخل الجنويون القرن الذهبي.

كان عدد الجنود العثمانيين الذين يحاصرون المدينة من الجهة البرية قرابة ٢٥٠.٠٠٠ جندي، أما من الناحية البحرية فكان هناك قرابة ١٨٠ سفينة بحرية.

وجمع محمد الفاتح قواده وقال لهم:

إذا تم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث رسول الله ﷺ ومعجزة من معجزاته، وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التقدير، فأبلغوا أبناءنا العساكر فردًا فردًا أن الظفر العظيم الذي سنحرزه سيزيد الإسلام قدرًا وشرفًا، ويجب على كل جندي أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه، فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافي هذه التعاليم، وليجتنبوا الكنائس والمعابد، ولا يمسوها بأذى، ويدعوا القساوسة والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون.

وأراد العثمانيون الدخول إلى القرن الذهبي حيث توجد بعض الأسوار الواهية فاتبعوا طريقة لم تخطر ببال أحد، وهي أنهم أعدوا ألواحًا خشبية تصل بين البحر في القرن الذهبي والبحر عند مدخل مضيق البوسفور، وألقوا على هذه الألواح الخشبية الدهون والشحوم، وأخذوا يزلقون السفن الحربية على الألواح الخشبية من مضيق البوسفور إلى القرن الذهبي، ثم أخذت المدافع العثمانية تدك أسوار القسطنطينية من جميع الجهات، فلم تستطع المدينة أن تصمد أمامهم، فدخلوها دخول الأبطال المنتصرين في فجر يوم ١٥ من جمادى الأولى عام ٨٥٧هـ، وقتل إمبراطورها في المعركة، وسيطر العثمانيون على المدينة سيطرة كاملة، وأمر السلطان محمد الفاتح أن يؤذن في كنيسة آيا صوفيا إيذانًا بتحويلها إلى مسجد.

ومما هو جدير بالذكر أن كنيسة آيا صوفيا هذه هي مقر الأرثوذكس العالمي، التي تضاهي الفاتيكان مقر الكاثوليك العالمي، كما أمر السلطان بتغيير اسم المدينة إلى إسلام بول (إستانبول) أي مدينة الإسلام واتخذت عاصمة للدولة العثمانية وظلت العاصمة حتى إلغاء الخلافة، وبذلك سقطت تمامًا الدولة البيزنطية العدو الأول للمسلمين على مدى أكثر من ٨ قرون، وأمّن أهل المدينة النصارى على حرية دينهم وممارسة شعائرهم،

واشترى نصف كنائس المدينة وحولها إلى مساجد، وترك النصف الآخر من الكنائس للنصارى لممارسة شعائرهم.

وأثناء حصار المسلمين للقسطنطينية عثر على قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري، الذي استشهد أثناء محاصرة القسطنطينية في عهد يزيد بن معاوية، فبعد فتح القسطنطينية بنى مسجدًا في هذا الموقع، وغدا تسلم السلاطين مقاليد الحكم في هذا المسجد عُرفًا متبعًا حيث يتسلم السلطان الجديد سيف عثمان أرطغرل مؤسس الدولة.

الفتوحات في أوربا:

بعد أن تم فتح القسطنطينية وترميم أسوارها التي هدمت أثناء الفتح، تقدم السلطان محمد الفاتح ليستكمل فتوحاته.

تحويل ولاية الصرب إلى ولاية عثمانية:

كما نعلم أن السلاطين السابقين كانوا يعطون الاستقلال لإمارة الصرب في مقابل جزية تدفع كل عام، ولكن كثيرًا ما كان الصرب يستغلون أي ظروف سيئة تمر بها الدولة العثمانية، ويمتنعون عن دفع الجزية، فأراد السلطان محمد الفاتح أن يعزز سيطرة الدولة العثمانية على بلاد الصرب، فسار إليها ودخلها عام ٨٥٨هـ ولكنه لم يتمكن من فتح عاصمتها بلغراد، وذلك لأن ملك المجر هونياد استماتت في الدفاع عنها، ولكن بهذا الفتح فقدت الصرب استقلالها وتحولت إلى ولاية عثمانية، ولم يبق خارج سيطرة العثمانيين إلا بلغراد التي تركها العثمانيون، ونجحوا في إصابة ملك المجر الذي مات متأثرًا بجراحه بعد مغادرة العثمانيين بعشرين يومًا.

فتح بلاد مورة (جنوب اليونان):

تمكن السلطان محمد الفاتح من فتح بلاد مورة عام ٨٦٣هـ وتمكن أيضًا من فتح معظم الجزر في بحر إيجه.

فتح بلاد الأفلاق (جزء من رومانيا الحالية):

وصل للسلطان محمد الفاتح تعدى أمير الأفلاق على بعض التجار العثمانيين النازلين ببلاده، فجهز السلطان محمد الفاتح جيشًا لمحاربته، فطلب الأمير الصلح مقابل جزية

سنوية قدرها ١٠.٠٠٠ درهم ولكن اتضح أن أمير الأفلاق لم يطلب ذلك إلا ليتحد مع أمير المجر لمحاربة العثمانيين، فبعثإليه السلطان برسولين ليستفسرا عن ذلك، فقتل الرسولين.

ولم يكتف بذلك بل أغار على بلاد البلغار التابعة للدولة العثمانية، فأعمل فيها القتل والسلب وعاد إلى بلاده ومعه ٢٥.٠٠٠ أسير، فأرسل له السلطان يدعوه إلى إعادة الأسرى والطاعة للدولة العثمانية، فأمر الرسل برفع عمائمهم لتعظيمه، فأبى رسل السلطان فأمر الأمير بتثبيت العمائم على رءوسهم بمسامير من حديد، وعلم السلطان بما حدث فجمع ١٥٠.٠٠٠ مقاتل وسار قاصدًا بلاد الأفلاق، فهزم أميرها الذي فر إلى بلاد المجر بعد أن مثل بالأسرى المسلمين شر تمثيل، وامتلأت ضواحي بخارست عاصمة الأفلاق بجثثهم، وبذلك أصبحت الأفلاق ولاية عثمانية.

فتح بلاد البوسنة ودخول أهلها في دين الله أفواجا:

امتنع أمير البوسنة عن دفع الجزية، فجهز السلطان محمد الفاتح جيشًا لفتح البوسنة، فسار إليها وفتحها عام ٨٦٦هـ وحاول ملك المجر ماتياس نزع البوسنة من أيدي العثمانيين، ولكنه فشل وما إن تم فتح البوسنة وجعلها ولاية عثمانية إلا ودخل أهلها وأشرافها في دين الله أفواجا، وانضم للجيش من أهلها ٣٠.٠٠٠ شاب.

إسكندر بك يعود إلى الظهور:

دعا البابا لحرب صليبية على العثمانيين بعد أن تمكنوا من فتح الكثير من بلاد أوربا وسقوط القسطنطينية، غير أن البابا قد مات ولم تقم الحرب الصليبية، وكان إسكندر بك ممن شجعهم البابا على حرب العثمانيين، فلم ينتظر قيام حرب صليبية وقام بشن هجوم على العثمانيين، وكانت الحروب بين الطرفين سجالًا حتى توفي إسكندر بك سنة ٨٧١هـ، واستطاع بعدها السلطان محمد الفاتح أن يُخضِع الأرناءوط (ألبانيا) لسلطة الدولة العثمانية.

سيطرة العثمانيين على القرم والفشل في فتح بلاد البغدان::

عرض السلطان في عام ٨٧٨هـ على أمير البغدان أصطفان الرابع دفع الجزية، فرفض فسار إليه الجيش العثماني وانتصر عليه لكنه لم يستطع فتح الإقليم، ففكر السلطان في

دخول شبه جزيرة القرم والاستفادة من فرسانها في فتح البغدان، واستطاع السلطان أن يطرد الجنويين من مواقع كانوا يحتلونها في شبه جزيرة القرم، واتفق السلطان مع سكان شبه جزيرة القرم من التتر المسلمين على دفع خراج سنوي، ثم اتجه الأسطول العثماني من شبه جزيرة القرم إلى مصب نهر الدانوب، فدخل بلاد البغدان وفر من أمامه الجيش البغداني، ليستدرجوه إلى غابة كثيفة ثم انقضوا عليه وهزموه عام ٨٨١هـ؛ ولذلك اشتهر أصطفان الرابع بمحاربة العثمانيين وسماه البابا بشجاع النصرانية وحامي الديانة المسيحية.

محاربة البنادقة:

أغار السلطان على بلاد البنادقة عام ٨٨٢هـ واستطاع فتح بلاد كرواتيا ودلماسيا (الجبل الأسود وجزء من ألبانيا وجزء من كرواتيا)، ثم فتح مدينة اشقودرة فلجأ البنادقة إلى إبرام الصلح معه عام ٨٨٧هـ.

الفشل في فتح ترانسلفانيا (الجزء الغربي من رومانيا) :

وجهت الجيوش لفتح إقليم ترانسلفانيا الذي كان يتبع المجر في ذلك الوقت، فانهزم الجيش العثماني وقتل الكثير من العثمانيين، وارتكب ملك المجر فيهم جرائم وحشية، وقتل جميع الأسرى ونصبت موائد الجيش على جثث المسلمين.

محاولة فتح إيطاليا:

لم يغب عن ذهن السلطان محمد فتح إيطاليا ورفع لواء الإسلام على رومية بعد أن فتح القسطنطينية، يحركه في ذلك يقينه بالله وبشارة الرسول ﷺ بفتح رومية، حتى إنه أقسم بأن يربط حصانه في كنيسة القديس بطرس (الفاتيكان).

ورأى أن يمهد لذلك بأن يفتح جزيرة رودس التي يسيطر عليها فرسان القديس يوحنا، ولكن الأسطول العثماني فشل في فتحها وأبرم صلحًا معهم عام ٨٨٥هـ، ثم عاد فاتجه لفتح إيطاليا، فنزل الجيش العثماني بسواحل إيطاليا واستطاع فتح مدينة أوترانت عام ٨٨٥هـ، وفي العام الذي تلاه اشتغل بإعداد حمله عظيمة لإتمام فتح إيطاليا، ولكن وافته المنية وعندما توفي انصرف العثمانيون عن هذه الجهة، وأخلى خَلَفه بايزيد الذي اشتهر بميله إلى السلم مدينة أوترانت من الجيش العثماني.

الفتوحات والتوسع في الأناضول:

فتح السلطان إمارة طرابزون آخر إمارة صليبية في الأناضول، وبذلك طهر الأناضول تمامًا من الصليبيين، وضم إليه إمارة القرمان نهائيًا.

هاجم أوزون جيش من حلفاء تيمورلنك شرقي الأناضول، فأرسل السلطان إليهم جيشًا هزمهم عام ٨٧٤هـ.

وتوفي السلطان محمد في يوم ٤ من ربيع الأول عام ٨٨٦هـ، الذي استحق لقب الفاتح لجهاده الكبير في سبيل الله وفتحه الكثير من البلاد، وهو يُعِدُّ جيشًا كبيرًا لفتح إيطاليا، فجزاه الله خيرًا عن المسلمين جميعًا.

(٣)
معركة الزلاقة .. كسبها الإيمان وضيع ثمارها الخلاف [1]

درس لا ينسى :

التاريخ ذاكرة الشعوب، وحاستها المنبهة، ومن ثَمَّ فهو أهم عوامل تحريك هذه الشعوب نحو غاياتها، والإدراك الواعي بالتاريخ ليس عملية سهلة أو بسيطة، لكنه أقسى من آلام الميلاد نفسها إن لم يشكل هذا الإدراك وهذا الوعي جديدًا بكل ما يصاحبه من آلام ومن تمخضات. وربما كان هذا هو السبب في سعي القوى الاستعمارية والعدائية عامة إلى التعتيم على تاريخ الأمة العربية الإسلامية، وإلى العمل على طمس هذا التاريخ وتزييفه، وليست غريبة تلك الأصوات الناعقة بقطع صلتنا بالماضي، بل ووصول بعضها إلى القول بإلقاء تراثنا في البحر ثم تمضي بعد ذلك. أقول: إن هذه الأصوات -بنيّة أو بغير نية- إنما تخدم مصالح أعداء هذه الأمة حين توصي بإهمالها لتراثها، ومن ثَمَّ لتاريخها. وأهمية التاريخ الحقيقية تكمن في دراسته واستيعابه؛ لكي نتمكن -على ضوء الإفادة من تجاربه- من تصحيح الحاضر، والاستعداد للمستقبل.

ومعركة الزلاقة التي وقعت في شهر رجب من عام ٤٧٩هـ الموافق أكتوبر من عام ١٠٨٦م هي درس التاريخ الذي لا يُنسى، وإنما يدق بقوة على أفئدة وعقول أمتنا العربية الإسلامية لكي ينبهها إلى أن النصر والغلبة ليسا بحاجة إلى كثرة العدد والعدة فحسب، وإنما يجب أن يسبقهما الإيمانُ الكامل بالمبدأ، والاستعداد للتضحية من أجله. ومن ثَمَّ إذا ما توافر عنصر الإيمان واليقين والأخذ بالأسباب، فإن نصر الله قادم لا محالة.. بل هو رهن المؤمنين، فهو القائل عز وجل: {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} [الروم: ٤٧].

والزلاقة بطحاء قرب مدينة قرطبة وقعت عندها معركة طاحنة بين المسلمين والاسبان سنة ٤٧٩هـ انتهت بنصر بين المسلمين. وسبب تلك المعركة تطاول ملك قشتالة الاسباني على سلطان المسلمين في الأندلس "المعتمد بن عباد" وتهديده إياه وسخريته منه ، وقرر

(١) موقع قصة الإسلام نقلا عن مجلة القسطاط التاريخية. وراجع : جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة–الحلقة " ٢٤ "–عرض / ربيع سكر–٦ أغسطس ٢٠١٣

"ابن عباد" أن يستعين بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين سلطان المغرب،وفعلًا فقد عبر البحر ابنُ تاشفين منجدًا لابن عباد وتلاقى معه ، واستعدا بقواتهما خير استعداد لملاقاة ملك قشتالة. والتقى جيش المسلمين يقوده (ابن عباد وابن تاشفين) بجيش الإسبان، وكانت معركة طاحنة، صدق فيها المسلمون الحملة على أعداء الله حتى أخرجوهم من محلتهم ، فولوا ظهورهم وأعطوا أعناقهم والسيوف تصفعهم والرماح تطعنهم ، وهرب ملك الإسبان تاركًا جنوده وقواده يلاقون مصارعهم ، وأعز الله دينه، وأعلى كلمته، وعادت للمسلمين عزتهم ولو إلى حين بعد معركة الزلاقة هذه.

ولنستعرض معًا أيها القارئ الكريم قصةَ تلك المعركة، وظروفها وتطوراتها والنتائج المترتبة عليها..

أحوال المسلمين قبل الزلاقة:

شهد القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) قمة التقدم الحضاري والسياسي في بلاد الأندلس، وأضحت قرطبة عروس الغرب، وحكامها خلفاء بني أمية يتمتعون بمكانة عالية، سياسيًا وعسكريًّا وحضاريًّا، ولم يدر بخلد أحد أن هذا الصراع الذي تسامى عاليًا على عهد المنصور بن أبي عامر كان يحمل في طياته عوامل هدمه وفنائه، فما أن مات المنصور، ومن بعده ابنه عبد الملك، حتى ثار القرطبيون على عبد الرحمن بن المنصور، وبدأت سلسلة من الأحداث الدامية أدَّت في النهاية إلى تمزُّق هذه الدولة تمزقًا يؤلم الصدور..

وقامت في جوانبها خلافات وممالك وسلطنات لا حول لها ولا قوة، بل إن قواها قد وجهت ضد بعضها بعضًا حتى أنهكت القوى واضمحلت الأندلس كما يقول الأستاذ محمد عبد الله عنان: "الصرح الشامخ، الذي انهارت أسسه وتصدع بنيانه، وقد انتقضت أطرافها، وتناثرت أشلاؤها، وتعددت الرياسات في أنحائها، لا تربطها رابطة، ولا تجمع كلمتها مصلحة مشتركة، لكن تفرق بينها، بل على العكس منافسات وأطماع شخصية وضيعة، وحروب أهلية صغيرة تضطرم بينها".

وفي كل ناحيةٍ من نواحي الأندلس، قامت دويلة أو مملكة هشة، اتخذ أصحابها ألقاب الخلافة ورسوم الممالك، دون أن يكون لهم من ذلك حقيقته أو معناه، وقال الشاعر واصفًا

هذه الحالة المؤسفة:

أسمـــاء معتضـــد فيهـــا ومعتمـــدِ ... ممـــا يزهـــدني في أرض أنـــدلس

كـالهرِّ يحكـي انتفاخًـا صـورة الأسـدِ ... ألقـــابُ مملكـــة في غـــير موضـــعها

وكان تمزق الأندلس على هذا الشكل المأساوي ضرب لكيان الدولة الإسلامية لم تفق منها أبدًا، بل إنها كانت البداية الحقيقية لانحلال الدولة الإسلامية رغم ما انتابها في بعض الأحيان من صحوات ويقظة مدَّتْ في عمرها هنا مئات الأعوام.

واكب هذا الضعف الأندلسي تولي الملك ألفونسو السادس عرش قشتالة، الذي عمل جهده للاستفادة من هذا التدهور الذي أحاط بالدولة الإسلامية هناك، فبدأ باستغلال الصراع الدائر بين هذه الممالك، وأخذ يضرب بعضها ببعض، ويفرض عليها الإتاوات والغرامات حتى يستنفد طاقتها، ومن ثَمَّ تسقط في يده كالثمرة الناضجة.

سقوط طليطلة:

مدينة طليطلة، من أهم المدن الأندلسية، تتوسط شبه الجزيرة تقريبًا، وكانت عاصمة القوط قبل الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة، ومن هنا كانت أهميتها البالغة، وبالتالي أصبحت مطمعًا لآمال ألفونسو السادس، وخاصة أن حال المدينة كانت سيئة جدًّا على عهد ملوكها من الطوائف.. وهم أسرة ذي النون.

دبر ألفونسو خطته لغزو المدينة، وأرهب ملوك الطوائف الآخرين وتوعدهم إن قاموا بإنجادها، وحاصرها حتى اضطرها إلى التسليم. ومما يؤسف له وجود قوات ابن عباد ملك إشبيلية ضمن قوات الملك الإسباني، وضد المدينة التي حاولت الصمود أمام مصيرها المؤلم في خريف سنة ٤٧٧هـ/ ١٠٨٥م.

وسقطت طليطلة بأيدي ألفونسو السادس، ونقل إليها عاصمة ملكه، واستتبع سقوطها استيلاءُ الأسبان على سائر أراضي مملكة طليطلة، ولقد كان أسوأ ما في مأساة طليطلة أن ملوك الطوائف المسلمين لم يهبوا لنجدتها أو مساعدتها، بل على العكس، لقد وقفوا موقفًا مخزيًا، فاغرين أفواههم جبنًا وغفلة وتفاهةً. بل إن عددًا منهم كان يرتمي على أعتاب ألفونسو السادس، طالبًا عونه، أو عارضًا له الخضوع.

وأطمع ذلك الملك ألفونسو السادس بباقي ممالك الطوائف، وانتشت أحلامه بالقضاء عليها الواحدة بعد الأخرى، وتجبر عليهم، وعلا وطغى.. فقام بنقض عهوده التي كان قد قطعها لأهل طليطلة، وحول مسجد طليطلة إلى كنيسة بقوة السلاح، وحطم المحراب ليقام الهيكل مكانه، وبدأ ألفونسو في تنفيذ خططه بالإيغال في إذلال الطوائف، وخاصة المعتمد بن عباد أكبر ملوك الطوائف وأشدهم بأسًا، حيث أراد أن يمعن في إذلاله كأقوى أمراء الطوائف، فأرسل إليه رسالة يطلب فيها السماح لزوجته بالوضع في جامع قرطبة وفق تعليمات القسيسين، وقد أثارت هذه الرسالة ابن عباد حتى قيل: إنه قد قتل رسل الملك القشتالي وصلبهم على جدران قرطبة؛ مما أثار غضب ألفونسو السادس وصمم على الانتقام، وبدأت جيوشه في انتساف الأرض في بسائط إشبيلية وفي الأراضي الإسلامية.

الاستنجاد بالمرابطين:

تعالت الأصوات في الأندلس تطالب بالارتفاع فوق الخلافات الشخصية، وتناسي المصالح الذاتية، والاستنجاد بالمرابطين الذين نمت قوتهم في ذلك الوقت على الضفة الأخرى من البحر المتوسط. وقام أبو الوليد الباجي وغيره من فقهاء الأندلس بالدعوة إلى التوحُّد، وضرورة الاستعانة بإخوة الإسلام الأفارقة من المرابطين، ولقيت الدعوة صدى عند أمراء الأندلس بسبب ازدياد عنف ألفونسو، ورغم كل التحذيرات التي وجهت إلى المعتمد بن عباد، وتخويفه من طمع المرابطين في بلاد الأندلس، إلا أن النخوة الإسلامية قد استيقظت في نفسه، فأصر على الاستنجاد بالمرابطين، وقال قولته التي سارت مثلًا في التاريخ: "لأَنْ أكون راعي جمال في صحراء إفريقية خير من أن أكون راعي خنازير في بيداء قشتالة".

وتقول بعض الروايات إن ألفونسو قد وصل في بعض حملاته إلى الضفة الأخرى من الوادي الكبير لإشبيلية. وأرسل رسالة سخرية إلى المعتمد بن عباد يقول فيها: "لقد ألمّ بي ذبابكم بعد أن طال مقامي قبالتكم، واشتد الحر، فهلاّ أتحفتني من قصرك بمروحة أروح بها عن نفسي، وأبعد الذباب عن وجهي؟". وردّ ابن عباد على الرسالة بقوله: "قرأتُ كتابك، وأدركت خيلاءك وإعجابك، وسأبعث إليك بمراوح من الجلود المطلية، تريح منك لا تروح عليك". ويقال إنه كان يقصد بذلك الجيوش المرابطية، ودعوتها إلى الأندلس.

عبور المرابطين:

بدأت الجيوش المرابطية العبور من سبتة إلى الجزيرة الخضراء، ثم عبر أميرهم يوسف بن تاشفين في يوم الخميس منتصف ربيع الأول ٤٧٩هـ/ يونيو ١٠٨٦م، ثم تحركت العساكر إلى إشبيلية، وعلى رأسهم ابن تاشفين، ونزل بظاهرها، وخرج المعتمد وجماعته من الفرسان لتلقيه، وتعانقا، ودعوَا اللهَ أن يجعل جهادهما خالصًا لوجهه الكريم. واستقر الجيش أيامًا في إشبيلية للراحة، ثم اتجه إلى بطليوس في الوقت الذي تقاطرت فيه ملوك الطوائف بقواتهم وجيوشهم. وسار هذا الموكب من الجيش الإسلامي إلى موضع سهل من عمل بطليوس وأحوازها، ويسمى في المصادر الإسلامية بالزلاقة على مقربة من بطليوس.

معركة الزلاقة:

لم تكن أعين الملك القشتالي غافلة عن تحرك الجيوش الإسلامية؛ ولذلك رفع حصاره عن مدينة سرقسطة الإسلامية، وكاتبَ أمراء النصرانية في باقي أنحاء إسبانيا وجنوبي فرنسا يدعوهم لمساعدته، وقدم إلى أحواز بطليوس في جيش كثيف، يقال بأنه حين نظر إليه همس: بهؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء. واختلفت الآراء حول عدد الجيشين، لكنها اتفقت جميعها على تفوق ألفونسو السادس في عدد جيشه وعدته، وكانت كل الظروف في صالحه.

وجرت الاستعدادات في المعسكرين بكل أشكالها، وبالبحث على الحرب والصبر فيها، وقام الأساقفة والرهبان بدورهم، كما بذل الفقهاء والعباد كل جهودهم وحاول ألفونسو خديعة المسلمين، فكتب إليهم يوم الخميس يخبرهم أن تكون المعركة يوم الاثنين؛ لأن الجمعة هو يوم المسلمين، والسبت هو يوم اليهود، والأحد يوم النصارى.

وأدرك ابن عباد أن ذلك خدعة، وفعلًا جاءت الأخبار بالاستعداد الجاري في معسكر النصارى، فاتخذ المسلمون الحذر، وبات الناس ليلتهم على أهبة واحتراس بجميع المحلات، خائفين من كيد العدو. وبعد مضي جزء من الليل انتبه الفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي، وكان في محلة ابن عباد، فرحًا مسرورًا، يقول: إنه رأى النبيَّ ﷺ، فبشره بالفتح والشهادة له في صبيحة غد، وتأهب ودعا، ودهن رأسه وتطيَّب.

فلما كان صباح الجمعة الثاني عشر من رجب سنة ٤٧٩هـ زحف ألفونسو بجيشه على المسلمين، ودارت معركة حامية، ازداد وطيسُها، وتحمَّل جنودُ الأندلس من المسلمين الصدمة الأولى، وأظهر ابنُ عباد بطولة رائعة، وجرح في المعركة، واختل جيش المسلمين، واهتزّت صفوفه، وكادت تحيق به الهزيمة، وعندئذ دفع ابن تاشفين بجيوشه إلى أتون المعركة، ثم حمل بنفسه بالقوة الاحتياطية إلى المعسكر القشتالي، فهاجمه بشدة، ثم اتجه صوبَ مؤخرته فأثخن فيه وأشعل النار، وهو على فرسه يرغب في الاستشهاد، وقرْعُ الطبول يدوي في الآفاق، قاتل المرابطون في صفوف متراصة ثابتة، مثل بقية أجنحة المعركة. ما أن حل الغروب حتى اضطر الملك القشتالي -وقد أصيب في المعركة- إلى الانسحاب حفاظًا على حياته وحياة من بقي من جنده، وطُورِدَ الفارُّون في كل مكان حتى دخل الظلام، فأمر ابنُ تاشفين بالكفّ. استمرت المعركة يومًا واحدًا لا غير - وقد حطم اللهُ شوكة العدو الكافر، ونصر المسلمين، وأجزل لديهم نعمه، وأظهر بهم عنايته، وأجمل لديهم صنعه. وتُجمِع المصادر الإسبانية على أن الملك القشتالي ألفونسو السادس قد نجا بأعجوبة في حوالي خمسمائة فارس فحسب، من مجموع جيوشه الجرارة التي كان سيهزم بها الجن والإنس والملائكة.

سرتْ أنباء النصر المبين إلى جميع أنحاء الأندلس والمغرب، وسرى البشر بين الناس، وأصبح هذا اليوم مشهودًا من أيام الإسلام، لا على أرض شبه الجزيرة فحسب، وإنما على امتداد الأرض الإسلامية كلها، ونجح ذلك اليوم في أن يمدّ في عمر الإسلام والمسلمين على الأرض الإسبانية ما يقرب من أربعة قرون من الزمان.

نصر مبين.. ونتائج أقل:

يعلق يوسف أشباخ في كتابه "تاريخ الأندلس على عهد المرابطين والموحدين" على موقعة الزلاقة بقوله: إن يوسف بن تاشفين لو أراد استغلال انتصاره في موقعة الزلاقة، لربما كانت أوربا الآن تدين بالإسلام، ولَدُرِّس القرآن في جامعات موسكو، وبرلين، ولندن، وباريس. والحقيقة أن المؤرخين جميعًا يقفون حيارى أمام هذا الحدث التاريخي الهائل الذي وقع في سهل الزلاقة، ولم يتطور إلى أن تتقدم الجيوش الإسلامية لاسترداد طليطلة من أيدي النصارى، خاصة وأن الملك الإسباني كان قد فَقَد زهرة جيشه في هذه المعركة، ولا يختلف أحد في الرأي بأن الطريق كان مفتوحًا تمامًا وممهدًا؛ لكي يقوم

المرابطون والأندلسيون بهذه الخطوة.

إن ما حدث فعلًا هو عودة المرابطين إلى إفريقية، وعودة أمراء الأندلس إلى الصراع فيما بينهم، وكأن شيئًا لم يقع، وقد أعطى ذلك الفرصة مرة ثانية للملك ألفونسو السادس أن يستجمع قواه، ويضمد جراحه، ويعمل على الانتقام من الأندلسيين، وكان حقده شديدًا على المعتمد بن عباد، فعاد إلى مهاجمة بلاده، وركز غاراته على إشبيلية، وتمكن من الاستيلاء على حصن لبيط؛ مما اضطر ابن عباد إلى العودة مرة ثانية إلى الاستنجاد بالمرابطين.

وذهب المرابطون للمرة الثانية إلى الأندلس، لكنهم في هذه المرة لم يجدوا مساعدة من معظم أمراء الطوائف المسلمين، حيث تغلبت عليهم شهواتهم وأهواؤهم الشخصية، وخلافاتهم الضيقة؛ مما اضطر أمير المسلمين أن يستفتي الفقهاء في خلعهم، وضم بلاد الأندلس إلى طاعة المرابطين، والعودة مرة ثالثة إلى الجهاد ضد الأسبان.

دروس مستفادة من معركة الزلاقة :

- ليس من نافلة القول بأن الانقسام ضعف والوحدة قوة؛ فممالك الطوائف في الأندلس شربت المرارة والمذلة في تفرقها، وأحست بالعزة والنصر في اتحادها.

- ليس بالعدد والعُدَّة فقط تكتسب المعارك، وإنما بالإيمان بالهدف والإعداد له، والتنبه للخصم، والارتفاع إلى مستوى الأحداث.

- قد يكون إحراز النصر شاقًّا ومضنيًا، لكن الأكثر عسرا وإجهادًا هو استغلال هذا النصر، وتطويعه لصالح الإسلام والمسلمين. وهذا هو درس التاريخ.

(٤)
معركة حطين وفتح بيت المقدس
انتصاران عظيمان للناصر صلاح الدين على الصليبيين [١]

معركة فاصلة :

معركة حطين معركة فاصلة بين الصليبيين وقوات صلاح الدين المسلمة، وقعت في يوم السبت ٢٥ ربيع الثاني ٥٨٣ هـ الموافق ٤ يوليو ١١٨٧ م بالقرب من قرية المجاودة، بين الناصرة وطبرية انتصر فيها المسلمون، ووضع فيها الصليبيون أنفسهم في وضع غير مريح إستراتيجيا في داخل طوق من قوات صلاح الدين، أسفرت عن سقوط مملكة القدس وتحرير معظم الأراضي التي احتلها الصليبيون.

فبعد أن أقام صلاح الدين في الأقحوانة على الطرف الجنوبي لبحيرة طبرية مدة خمسة أيام، ارتحل عنها باتجاه الغرب للوصول إلى قرية الصنبرة الواقعة عند التلال المحيطة بالمنطقة القريبة من بحيرة طبرية .

وعلى الرغم من نيته الاشتباك مع العدو في معركة فاصلة، إلا أنه أراد بتحركه أن يثيرهم ليدفعهم إلى ترك مراكزهم عند صفورية، والزحف إليه وقد نجح في ذلك؛ فقد أصدر الملك جاي لوزينان الأوامر إلى الجند بالمسير؛ فاتخذ الجيش الصليبي -الذي بلغ تعداده زهاء خمسين ألفًا- في الصباح الباكر من يوم الجمعة (٢٣ من ربيع الآخر= ٢ من يوليو) طريقه شرقًا نحو طبرية، يتقدمه ريموند الثالث؛ لأن الجيش يجتاز إمارته.

-وقد واجه الجيش الصليبي المتقدم عدة مشكلاتٍ أثَّرتْ تأثيرًا سلبيًّا على قدراته القتالية، منها:

- انحطاط روح أفراده المعنوية، بعد الانقسام في الرأي بين القادة؛ فساروا مُكرَهين بين مؤيد للزحف ومعارض له

(١) المصدر : المؤرخ الإسلامي الدكتور علي الصلابي ، راجع : جريدة الوسط الكويتية - معارك إسلامية خالدة -الحلقة " ٢٥ " -عرض / ربيع سكر - ٧ اغسطس ٢٠١٣

- اشتداد حرارة الجو اللافحة في شهر تموز
- افتقارهم إلى الماء
- صعوبة الطريق الذي بلغ طوله ستة عشر ميلًا
- تعرضهم لهجمات المسلمين الخاطفة .

اكتشف الصليبيون في صباح يوم السبت (٢٤ من ربيع الآخر= ٣ من يوليو) أنهم محاصرون بعيدًا عن الماء؛ فنزلوا مسرعين إلى قرون حطين، وهناك دارت معركة رهيبة انتصر فيها الجيش الإسلامي انتصارًا عظيمًا، وهاجمت قوة صليبية بقيادة ريموند الثالث المسلمين في بداية القتال، في محاولة لاحتلال الممر المؤَدِّي إلى قرية حطين حيث بعض ينابيع الماء والآبار؛ فانفصلت عن باقي الجيش الذي كان يتبعها، وعندما وصل أفرادها إلى الممر وجدوا أنفسهم مُطوَّقين من جانب المسلمين، فحاولوا شَقَّ طريق لهم عبر صفوف المسلمين، ولكنَّ الرماة رموهم بالنبال؛ فلقي عدد كبير منهم مصرعهم على الفور، بينما وقع آخرون في الأَسر.

وفي الوقت الذي كان فيه ريموند الثالث مُطوَّقًا من قبل المسلمين، كان قلب الجيش بقيادة الملك يستعد للقتال، وعندما بدأ الالتحام هجم فرسان الداوية والإسبتارية بقوة؛ فقتلوا بعض المسلمين، وتسببوا في انسحاب البعض الآخر إلا أنهم لم يستثمروا انتصارهم الجزئي هذا؛ لأن المشاة قصروا في مجاراة الفرسان؛ لأنهم كانوا مرهقين، وانسحبوا إلى تلة هي إحدى قرون حطين، وذُعِرَ الملك عندما رأى ذلك؛ فحاول أن يعيد الثقة إلى المشاة، ويردهم إلى مواقعهم، ولكنه فشل، ومع انسحاب المشاة انكشف قلب الجيش الذي تعرض لضربات المسلمين.

ريموند يحاول الهرب :

في ظل هذه الفوضى التي ضربت الجيش الصليبي حاول الملك أن ينصب خيمة تكون مركزًا لإعادة التجمع، ولاحظ ريموند الثالث ما آلت إليه الأوضاع العسكرية من التدهور؛ فأيقن قبل أن تنتهي المعركة أن النصر سيكون في صالح صلاح الدين؛ ولذا بذل كل ما عنده من ذكاء لينجو بنفسه من الموقعة؛ فحاول أن يتراجع لكنه أخفق، ثم علت

الصيحات بين صفوف الصليبيين: "من كان منكم يستطيع الهرب فليهرب؛ لأن المعركة ليست في جانبنا"، لكنَّ الهرب -حتى الهرب- كان مستحيلًا.

وكرر ريموند الثالث محاولته فك الطوق عن قواته، والانسحاب من المعركة عن طريق القيام بصدمة الجناح الإسلامي المقابل له بقيادة تقي الدين عمر، وقد نجحت خطته عبر ثغرة فتحها له القائد المسلم، وبعد أن اخترق صفوف المسلمين، أغلق القائد المسلم الثغرة، فانسحب ريموند من ساحة القتال، واتخذ طريقه إلى صور، ومنها إلى طرابلس.

القبض على صليب الصلبوت :

وظل فرسان الداوية والإسبتارية يقاتلون، في الوقت الذي فقدوا فيه الأمل بأي انتصار؛ فأمر صلاحُ الدينِ ابن أخيه تقي الدين عمر أن يهجم مع خيَّالته على الصليبيين الذين تضعضعت صفوفهم، واختل نظام جيشهم، وأشعل المسلمون خلال ذلك النيران في الأعشاب الجافة والأشواك؛ فحملت الريح لهيبها ودخانها باتجاه الصليبيين؛ فزادت من معاناتهم، واجتمع عليهم العطش، وحر الزمان، والنار والدخان والسيوف، وأدى ذلك إلى فرار من بقي منهم من ساحة المعركة إلى إحدى قرون حطين حيث شاهدوا تقي الدين عمر يقبض على صليب الصلبوت؛ فأُسْقِطَ في أيديهم، وكانت تلك أكبر خسارة تكبدوها.

وتجمع بعض الفرسان حول خيمة الملك لشن هجوم مضاد، لكن صلاح الدين عاجلهم؛ فاندفع المسلمون الذين صعدوا إلى التلة التي نُصِبَتْ فيها الخيمة وأنهوا المعركة، وأسروا كل من كان حول الملك وفيهم الملك نفسه وأخوه، ورينولد شاتيون صاحب الكَرَك، وجماعة من الداوية والإسبتارية، وكَثُر القتلُ والأسر فيهم.

صلاح الدين يقتل شاتيون بيده :

سيق الأسرى إلى خيمة صلاح الدين التي أقامها في مكان المعركة؛ فاستقبل الملكَ والأمراءَ في لطف وبشاشة، وأجلس الأول إلى جانبه، وقد أهلكه العطش؛ فسقاه جلابًا مثلجًا، فشرب منه وأعطى ما تبقى إلى رينولد شاتيون الذي كان إلى جانبه، ووفقًا لتقاليد الضيافة العربية متى جرى بذلُ الطعام أو الشراب للأسير، فإن ذلك يعني الإبقاء على حياته؛ ولذا بادر صلاح الدين إلى القول: «إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فيناله أماني».

ثم ألتفت إلى رينولد شاتيون الذي لم يغفر له ما ارتكبه من أعمال السلب والنهب، وانتهاك الحرمات المنافية للدين، وأخذ يُذَكِّرُه بجرائمه وخيانته وغدره، ثم قام إليه وضرب عنقه بنفسه؛ فارتعد الملكُ وظَنَّ أنه سوف يحل دوره، غير أن صلاح الدين سَكَّن جأشه وأَمَّنَه، وقال له: "إن الملك لا يقتل ملكًا، وإنما هذا فإنه تجاوز الحد، فجرى ما جرى".

ثم أصدر أوامره بألا يتعرض الأمراء للأذى، غير أنه لم يود أن يُبقي على حياة الأسرى من الفرسان والرهبان الداوية والإسبتارية، فأجهز عليهم، وسيق الأسرى إلى دمشق، فتهيأت للأمراء أسباب الراحة، بينما تقرر بيع الأسرى الفقراء في سوق الرقيق.

الطريق إلى بيت المقدس :

وأضحى الموقف العسكري شديد الخطورة على مملكة بيت المقدس، وإمارتي طرابلس وأنطاكية؛ إذ لم يبقَ أمامه -بعد أن دمر أعداءه- إلا أن يفتح حصون الأرض المقدسة، وبخاصة أنه نتج عن خسارة الصليبيين، الذين ألقوا بكل ثقلهم في معركة حطين، أن وقع عدد كبير من أمرائهم وقوادهم وفرسانهم في الأسر، وعلى رأسهم الملك جاي لوزينان، حتى لم يبق لديهم من يصلح للقيادة.

يُضَافُ إلى ذلك أن الغرب الأوروبي لم يتنبه إلى الخطر قبل عام (٥٨٣هـ= ١١٨٧م)؛ ولذا فإن احتمال مجيء حملة صليبية سوف يستغرق زمنًا؛ لذلك شرع صلاح الدين يفتح المدن والحصون الصليبية واحدة بعد أخرى، فتحًا سريعًا ومتواصلًا، مُرَكِّزًا ضرباته المباشرة على الموانئ المهمة.

والواقع أن عملية الفتح لم تكن حربًا بالمعنى العسكري المفهوم للكلمة، بل أشبه بنزهة عسكرية؛ إذ كانت المقاومة ضعيفة، مما سَهَّل للمسلمين الانتشار والتقدم، فكانت المدينة أو القلعة تسارع إلى الاستسلام لمجرد وصول المسلمين إليها، وذلك لعدم وجود قوة تدافع عنها، وإذا قاومت فإن مقاومتها تبدو ضئيلة. وقد قام صلاح الدين في هذا الوقت بفتح قلعة طبرية، وفتح عكا، ومدن الجليل، والمدن الساحلية .

والواقع أنه لم ينقضِ شهر جُمَادَى الآخرة حتى لم يَبْقَ للنصارى جنوبي طرابلس سوى صور وعسقلان وغزة، وبضع قلاعٍ معزولة، بالإضافة إلى بيت المقدس.

ويبدو أن صلاح الدين تخلى عن حذره هذه المرة أيضًا، حين منح الصليبيين -بعد أن فتح المدن والحصون المشار إليها- حرية البقاء فيها أو الخروج منها، فذهب معظمهم إلى صور؛ ذلك أنه سرعان ما أدرك أن أمر هذه المدينة غدا صعبًا فتركها، وآثر الانصراف إلى غيرها؛ فقام بفتح عسقلان.

فتح بيت المقدس :

بعد أن فرغ صلاح الدين من فتح عسقلان والمدن المجاورة، تطلع إلى تحقيق هدفه الذي طالما جال بخاطره، وعمل له، وهو تحرير بيت المقدس تمهيدًا لطرد الصليبيين من المنطقة؛ فأخذ يستعد لتنفيذ هذه الخطوة، وحتى يقطع الطريق على احتمال هجوم صليبي بحري على الساحل الشامي أثناء حصاره لبيت المقدس؛ أرسل إلى قائد أسطوله في مصر حسام الدين لؤلؤ أن يخرج بأسطوله من مصر لحماية الشواطئ، وقطع الطريق على مراكب الصليبيين والاستيلاء عليها.

وبذلك يكون قد ضمن حماية مؤخرة جيشه البري، وأقفل حلقة الحصار على المدينة المقدسة؛ ومن ثَمَّ دعا أهلَها إلى إرسال وفد للتباحث في الشروط التي بمقتضاها تستسلم المدينة.

ويبدو أن سكان بيت المقدس قد أدركوا بعد تساقط المدن والمعاقل الداخلية والساحلية بيد صلاح الدين، أنهم أضحوا محاصرين فعلًا؛ فأرسلوا إليه وفدًا اجتمع به أمام عسقلان، فعرض عليهم تسليم المدينة بالشروط نفسها التي استسلمت بها بقية المدن والمعاقل الصليبية، أي يؤمنهم على أرواحهم ونسائهم وأولادهم وأموالهم، وأن يسمح لمن يشاء بالخروج من المدينة سالمًا، ولكن سكان بيت المقدس رفضوا أن يسلموا المدينة، عندئذٍ أقسم صلاح الدين أنه سوف ينالها بحد السيف.

ثم كرر صلاح الدين عرضه على سكان بيت المقدس؛ وذلك رغبة منه في عدم استخدام العنف مع مدينة لها حرمتها وقدسيتها عند المسلمين والنصارى على السواء، لكنهم أصروا على موقفهم الرافض؛ عندئذٍ قرر صلاح الدين اقتحام المدينة عنوة.

واجتمع داخل المدينة ما بلغ ستين ألفًا بين فارس وراجل سوى النساء والأطفال، بل إن الصليبيين قاوموا الجيش الأيوبي الزاحف، واستطاعوا قتل أحد الأمراء وجماعة ممن كانوا معه.

وقد وصل صلاح الدين إلى المدينة في (١٥ من رجب عام ٥٨٣هـ= ٢٠ من سبتمبر عام ١١٨٧م) وعسكر أمام أسوارها الشمالية، والشمالية الغربية، وشرع في مهاجمتها لكنه جُوبِه باستحكامات هذا الجانب المتينة المشحونة بالمقاتلين، بالإضافة إلى أشعة الشمس التي كانت تواجه عيون قواته فحجبت عنهم الرؤية الضرورية للقتال حتى بعد الظهر؛ لذلك طاف حول المدينة مدة خمسة أيام يبحث عن مكان يصلح للجيش أن يعسكر فيه إلى أن عثر على موضع في الجانب الشمالي نحو العمود وكنيسة صهيون، حيث الأسوار أقل متانة، فانتقل إلى هذه الناحية في (٢٠ من رجب = ٢٥ من أيلول)، وحين حَلَّ الليلُ بدأ بنصب المجانيق.

وتراشق الطرفان بقذائف المجانيق، وقاتل أهل بيت المقدس بحميَّة وكذلك المسلمون، حيث كان كل فريق يرى ذلك دِينًا عليه، وحتمًا واجبًا فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطاني.

ولما رأى الصليبيون شدة القتال، وشعروا بأنهم أشرفوا على الهلاك؛ عقدوا اجتماعًا للتشاور، فاتفقوا على طلب الأمان؛ فأرسلوا وفدًا إلى صلاح الدين من أجل هذه الغاية، واشترطوا احترام مَن في المدينة من الصليبيين، والسماح لمن يشاء بمغادرتها.

كانت هذه الشروط هي نفسها التي سبق لصلاح الدين أن عرضها عليهم من قَبْلُ، لكنه رفض قبولها الآن؛ لأنه أوشك أن يفتح المدينة عَنْوَةً، وقال: لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي، وجزاء السيئة بمثلها.

وازداد موقف الصليبيين في الداخل سوءًا، وراحوا ينظرون بقلق إلى المصير الذي ينتظرهم، ولم يسعهم إلا أن يحاولوا مرة أخرى إقناع صلاح الدين بالعفو عنهم، ولكن صلاح الدين سبق له أن أقسم بأنه سوف يفتح بيت المقدس بحد السيف، ولن يحله من قسمه سوى إذعان المدينة بدون قيد أو شرط.

في ذكرى الإسراء تم الفتح :

وتجاه هذا الإصرار، وبعد أن استشار مجلس حربه في الموقف، تقرر السماح للصليبيين بمغادرة المدينة مقابل عشرة دنانير عن الرجل يستوي فيها الغني والفقير، وخمسة دنانير عن المرأة، ودينارين عن الطفل، ومن يبقَ فيها يقعْ في الأسر، واشترط أن يُدْفَعَ الفداءُ

المفروضُ في مدى أربعين يومًا، ومن لم يُؤَدِّ فداءَه خلال تلك المدة يصبحْ مملوكًا، لكن تبين أن في المدينة نحو عشرين ألف فقير ليس بحوزتهم المبلغ المقرر للفداء؛ فوافق صلاحُ الدين أن يدفع باليان مبلغًا إجماليًّا قدره ثلاثون ألف دينارٍ عن ثمانيةَ عشر ألفًا منهم.

ودخل صلاح الدين المدينة يوم الجمعة (٢٧ من رجب= ٢ من تشرين الأول)، وشاءت الظروف أن يصادف ذلك اليوم في التاريخ الهجري، ذكرى ليلة الإسراء والمعراج.

سماحة القائد أم سماحة الإسلام :

ومن الأمور اللافتة ما حدث من طلب العادل من أخيه صلاح الدين إطلاق سراح ألف أسير من الفقراء على سبيل المكافأة عن خدماته له مظهرًا بذلك تسامحًا كبيرًا، فوهبهم له؛ وإذ ابتهج البطريرك لذلك، لم يسعه إلا أن يطلب من صلاح الدين أن يهبه بعض الفقراء ليطلق سراحهم، فاستجاب لطلبه، ثم أعلن أنه سوف يطلق سراح كل شيخ، وكل امرأة عجوز، كما ذهب بعيدًا حين وعد نساء الصليبيين بأن يطلق سراح كُلِّ مَن في الأسر من أزواجهن، ومنح الأرامل واليتامى العطايا من خزائنه كل واحد بحسب حالته.

نتائج معركة حطين:

وعن نتائج معركة حطين يقول المؤرخ الإسلامي الدكتور علي الصلابي:

١ – توصف معركة حطين، بأنها معركة فاصلة وحاسمة، لأننا نلاحظ أنها غيرت خريطة التوزيعات السياسية في المنطقة، ففي أعقابها اتجه ذلك السلطان المجاهد إلى فتح مدن الساحل الشامي، وتساقطت الواحدة تلو الأخرى باستثناء صور ذات المنعة والحصانة، وهكذا تم حل مشكلة الساحل الشامي الذي طرد منه المسلمون منذ أعوام طوال ولم يعد المسلمون أصحاب وجود بري حبيس، وهكذا تساقطت مدن عكا، ويافا وصيدا وبيروت، وجبيل وعسقلان وغيرها، ومن بعد ذلك جاء فتح المسلمين لبيت المقدس عاصمة الكيان الصليبي.

٢ – كانت معركة حطين أعظم من مجرد كارثة عسكرية، حلّت بالصليبيين، لقد كانت في حقيقة أمرها بشيرًا بنجاح المسلمين في القضاء على أكبر حركة استعمارية، شهدها العالم

في العصور الوسطى، كما شكّلت حدًا تراجع عنده المدُّ الصليبي باتجاه الشرق الأدنى الإسلامي وبداية النهاية للوجود الصليبي، وقد أنهت المعركة زهاء تسعة عقود من الاضمحلال والتدهور والتشرذم في المنطقة الإسلامية في الشرق الأدنى؛ لتؤكد أهمية الوحدة بين أقطار هذه المنطقة الجغرافية في جنوب غرب آسيا وفي مصر في مواجهة كل الأخطار.

٣ – ارتفاع قدر صلاح الدين: من أسماء الله عز وجل الرافع فقد كانت معركة حطين من الأسباب التي رفع الله بها صلاح الدين وأصبح في صفوف كبار المجاهدين والقادة والحكام المسلمين كما أعاد للمسلمين الثقة بالنفس، والكرامة التي كانوا قد فقدوها بعد وفاة نور الدين محمود.

٤ – معركة حطين مفتاح بيت المقدس: كانت معركة حطين معركة تحرير فلسطين لأنها هي التي فتحت طريق النصر إلى بيت المقدس، وباقي فلسطين.

٥ – أهمية الوعي الجغرافي: أبرزت هذه المعركة أهمية الوعي الكامل بضرورة توظيف معطيات الموقع الجغرافي للشرق الإسلامي، واستثمار ميِّزاته، بحيث يكون عاملًا فاعلًا من عوامل القوة الذاتية، ومن دلالات المعركة بروز أهمية مصر كقاعدة بشرية مادية بالغة الأهمية في الربط بين العالم الإسلامي في الشرق الأدنى، كما تجلَّت أهمية أرض فلسطين التي تُعَدُّ بمثابة الجسر أو المعبر الذي يوصل بين بلاد الشام ومصر.

(٥)
معركة عين جالوت ... ووحدة المصير بين مصر والشام [١]

الانتصار الساحق على المغول:

معركة عين جالوت وقعت في ٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ / ٣ سبتمبر ١٢٦٠ م، تعد من أهم المعارك الفاصلة في تاريخ العالم الإسلامي. انتصر فيها المسلمون انتصارا ساحقا على المغول وكانت هذه هي المرة الأولى التي يهزم فيها المغول في معركة حاسمة منذ عهد جنكيز خان. أدت المعركة لانحسار نفوذ المغول في بلاد الشام وخروجهم منها نهائيا وإيقاف المد المغولي المكتسح الذي أسقط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ// ١٢٥٨م. كما وأدت المعركة لتعزيز موقع دولة المماليك كأقوى دولة إسلامية في ذاك الوقت لمدة قرنين من الزمان أي إلى أن قامت الدولة العثمانية. وقعت المعركة في منطقة تسمى عين جالوت بين مدينة جنين والناصرة و بيسان، في شمال فلسطين.

يقول الكاتب و المؤرخ الإسلامي العراقي الدكتور عماد الدين خليل : في منتصف عام ٧٥٨ هـ (١٢٦٠ م) بعث هولاكو من الشام برسله يحملون رسالته المشهورة إلى سلطان مصر المملوكي: سيف الدين قطز.. كان هولاكو في قمة انتصاراته.. وكان المغول قد اكتسحوا القوى الإسلامية واحدة بعد الأخرى، وهدموا متاريسها وجدرانها، وسووا الطريق أمام جحافلهم المتقدمة غربًا.. ما من قيادة إسلامية، من أواسط آسيا وحتى أطراف سيناء، إلا وأذعنت لهم طوعًا أو كرهًا.. وكان السيف الوثني المغولي يعلو على السيوف، وكان الرأس الذي لا ينحني له يُطاح به في التوّ واللحظة.. وحتى أولئك الذين اختاروا السلامة ولووا رءوسهم عجزًا عن المجابهة وهروبًا من الموت.. وقعوا في مصيدة الموت التي كان المغول يتفننون في نصبها وفي تعذيب خصومهم وهم يتقلبون في شباكها.

والذي حدث في بغداد معروف.. ومعروف أيضًا المصير المفجع الذي آلتإليه أكبر قوتين

---

(١) الكاتب و المؤرخ الإسلامي العراقي الدكتور عماد الدين خليل ، راجع : جريدة الوسط الكويتية – معارك إسلامية خالدة – الحلقة "٢٦" – عرض / ربيع سكر – ٨ اغسطس ٢٠١٣

إسلاميتين في المشرق: الخوارزميون في بلاد فارس وما وراء النهر، والعباسيون في العراق..

سنوات عديدة والمطاردات الرهيبة لا تفتر بين المغول وبين السلطان الخوارزمي الأخير جلال الدين منكبرتي.. وصراع الحياة والموت يعرض مشاهده الدامية في مساحات واسعة من الأرض، شهدت جهات ما وراء النهر وشمالي الهند وبحر قزوين وشمالي العراق والجزيرة الفراتية والأناضول بعضًا منها..

وعبثًا حاول السلطان أن يتصل بالأمراء المحليين من إخوانه المسلمين في سبيل تشكيل جبهة إسلامية موحدة لمقاومة السيل الزاحف، لأنه -هو- عبر سنوات حكمه الطويلة قد مارس خطيئة التمزيق والتفتيت وإشعال نار الخصومة والعداء بين القيادات الإسلامية بعضها ضد بعض.. وأخيرًا استسلم لليأس وتخلف عنه كثير من أنصاره، ووجد نفسه في قلة من أصحابه وحيدًا غريبًا، مطارَدًا في جبال ديار بكر.. ويذكر معاصروه كيف أن البكاء كان يغلب عليه في الليل والنهار، وكيف أنه هرب إلى الخمر يختبئ وراء غيبوبتها من شبح النهاية القريب.. وما لبث أحد سكان المنطقة أن طعنه بسكين وقضى عليه.

وأما العباسيون فأمرهم معروف.. وما شهدته بغداد حاضرة المسلمين الكبرى، غدا مثلًا يضرب على مداولة الأيام بين الناس . ولكن ما شأن الإمارات المحلية ؟ لم يكن مصيرها -بطبيعة الحال- بأحسن من مصير دول الإسلام الكبرى.. بعضها هادن ونافق ودعا إلى السلم وهو في مواقع الضعف والهوان، فلم ينجه ذلك من سيوف المغول، وبعضها الآخر وقف الوقفة التي تقتضيها كرامة المسلم ولقي من صنوف الأذى ما يشير إلى بشاعة الطرائق التي اعتمدها المغول لإلقاء الرعب في قلوب الخصوم..

قُتِلَ الكاملُ الأيوبي أميرُ ميافارقين في ديار بكر شر قتلة، إذ كان المغول يقطعون لحمه قطعًا ويدفعون بها إلى فمه حتى مات، ثم قطعوا رأسه وحملوه على رمح وطافوا به في بلاد الشام. وكان يتقدم الموكب مغنون وطبّالون، وأخيرًا علّق في شبكة بسور أحد أبواب دمشق، ويقال إنه بقي هناك حتى تحرير المدينة من قبضة الغزاة.

ووضع الملك الصالح أمير الموصل في دهن ولباد وألقي في الشمس حتى تحول الدهن إلى ديدان بعد أسبوع، فشرعت الديدان تأكل جسده حتى مات على تلك الصورة البشعة

بعد شهر.. أما ابنه الذي كان طفلا في الثالثة من عمره فشقوه نصفين على ساحل نهر دجلة على مرأى من الناس.. وغير هؤلاء كثيرون لقوا مصارع لا تقل شناعة وبؤسًا.. وما جرى في مدن الجزيرة الفراتية وشمالي الشام يعد واحدًا مما شهدته الكثير من المدن والإمارات على مدى المشرق الإسلامي كله..

فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام؟

والمؤرخ ابن الأثير المتوفى عام ٦٣٠ هـ وهو يستعرض وقائع عام ٦١٧ هـ ويسطر بدايات خروج المغول على بلاد الإسلام، يتحدث عن الهول الذي ألمّ بمعالم الإسلام، وقد كان في مطالعه يومها.. فماذا لو طال العمر بالمؤرخ المذكور وشهد أحداث العقود التالية.. ومآسيها؟

يقول الرجل: «لقد بقيت عدة سنين معرضًا عن ذكر هذه الحادثة استعظامًا لها، كارهًا لذكرها، فأنا أقدّم إليه رجلًا وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فياليتَ أمي لم تلدني، وياليتني مت قبل حدوثها وكنتُ نسيًا منسيًا. إلا أني حدّثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعًا. فنقول: هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها، عمّت الخلائق وخصّت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم منذ خلق اللهُ سبحانه وتعالى آدم وإلى الآن، لم يبتلوا بمثلها، لكان صادقًا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها. ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بخت نصر ببني إسرائيل من القتل، وتخريب البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس.. وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قُتِلوا؟ فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا.. إنهم لم يبقوا على أحد، بل قتلوا الرجال والنساء والأطفال، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

الانكسار من الداخل:

كان الهجوم المغولي السريع الكاسح قد منح هؤلاء المغيرين سلاحًا نفسيًا خطيرًا:

الرعب الذي كان ينقض على خصومهم من الداخل فيهزمهم قبل أن تلتمع السيوف أمام عيونهم.. إنه السيف الأكثر حدة والذي كان يذبح فيه القدرة على الحركة.. لقد كان المسلمون يومها يعانون من شلل تام أو نصفي أفقدهم الأرجل التي يسيرون عليها والأيدي التي يضربون بها.. وهذه الوقائع التي يرويها ابن الأثير تكاد تكون تجسيدًا «كاريكاتوريًا» مضحكًا محزنًا للأمر الذي آلإليه الكثيرون من أبناء عالم الإسلام.

يقول الرجل: «لقد حُكي لي عن حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذي ألقى الله سبحانه وتعالى في قلوب الناس منهم، حتى قيل إن الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس، فلا يزال يقتلهم واحدًا بعد واحدٍ لا يتجاسر أحد أن يمد يده إلى ذلك الفارس. ولقد بلغني أن إنسانًا منهم أخذ رجلًا، ولم يكن مع التتري ما يقتله به، فقال له: ضع رأسك على الأرض ولا تبرح، فوضع رأسه على الأرض ومضى التتري فأحضر سيفًا وقتله به! وحكى لي رجل قال: كنت أنا ومعي سبعة عشر رجلًا في طريق، فجاءنا فارس من التتر وقال لنا حتى يكتف بعضنا بعضًا، فشرع أصحابي يفعلون ما أمرهم، فقلت لهم: هذا واحد فلم لا نقتله ونهرب؟ فقالوا: نخاف أمرهم. فقلت لهم: هذا يريد قتلكم الساعة فنحن نقتله فلعل الله يخلصنا، فوالله ما جسر أحد أن يفعل، فأخذت سكينًا وقتلته، وهربنا فنجونا»!!

التحدي:

في هذه الظروف السياسية والنفسية، ومن خلال وهج السيوف التي تقطر دمًا وأصداء المعارك التي أثار نقعها سيلا لا أول له ولا آخر من خيول الغزاة بعث هولاكو برسالته تلك إلى سلطان مصر المملوكي: سيف الدين قطز.. وكان الطاغية يعرف جيدًا خلفية الرعب والانهزام التي رسمتها العقود الأخيرة على مدى خارطة عالم الإسلام وفي أعماق نفوس أبنائه، فعرف كيف ينتقي كلماتها.. قال: «مِن ملك الملوك شرقًا وغربًا، الخان الأعظم، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء.. يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها ومن الأعمال، إنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه وسلّطنا على من حل به غضبه، فلكم بجميع البلاد معتَبَر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ.. وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم

العباد، فعليكم بالهرب وعلينا الطلب. فأي أرض تؤويكم؟ وأي طريق تنجيكم؟ وأي بلاد تحميكم؟ فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يُسمع.. فمن طلب حربنا ندم، ومن قصد أماننا سلم، فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم. فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم، فقد حذر من أنذر.. فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا برد الجواب قبل أن تضرب الحرب نارها، وترمي نحوكم شرارها، فلا تجدون منا جاهًا ولا عزًا ولا كافيًا ولا حرزًا، وتدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية، فقد أنصفناكم إذ راسلناكم، وأيقظناكم إذ حذّرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم».

فمن اختار الجهاد يصحبني!

كانت الرسالة بمثابة التحدي النهائي لآخر قيادة إسلامية، وعلى ضوء الموقف الذي ستقرر هذه القيادة اتخاذه سيتوقف مصير عالم الإسلام وحضارته التي صنعها كدح القرون الطوال.

كل المؤشرات كانت تقود إلى الاستسلام للتحدي والإذعان لضروراته..

ولكن الإيمان له منطق آخر.. إنه لا يمنح القدرة على الحركة في ظروف الشلل التام فحسب، ولكنه يهب بصيرة نافذة تخترق حجب العمى والظلام لكي تطل على الأفق الذي يشع ضياء..

وبالحركة القديرة والرؤية الصائبة تجابه القيادات الفذة تحديات التاريخ ومحنه وويلاته فتخرج منها ظافرة وتحقق بالاستجابة قفزة نوعية في مجرى الفعل والتحقق.

قرأ سيف الدين قطز الرسالة واستدعى أمراءه ليعرض الأمر عليهم.. وجرى هذا الحوار.

قطز: ماذا ترتئون؟

ناصر الدين قيمري: إن هولاكو، فضلًا عن أنه حفيد جنكيز خان، فإن شهرته وهيبته في غنى عن الشرح والبيان، وإن البلاد الممتدة من تخوم الصين إلى باب مصر كلها في قبضته

الآن، فلو ذهبنا إليه نطلب الأمان فليس في ذلك عيب وعار! ولكن تناول السم بخداع النفس واستقبال الموت أمران بعيدان عن حكم العقل! إنه ليس الإنسان الذي يطمأن إليه، فهو لا يتورع عن احتزاز الرءوس وهو لا يفي بعهده وميثاقه، فإنه قتل فجأة الخليفة وعددًا من الأمراء بعد أن أعطاهم العهد والميثاق، فإذا ما سرنا إليه فسيكون مصيرنا هذا السبيل!

قطز: والحالة هذه، فإن كافة بلاد ديار بكر وربيعة والشام ممتلئة بالمناحات والفجائع، وأضحت البلاد من بغداد حتى الروم خرابًا يبابًا، وقضي على جميع من فيها من حرث ونسل.. فلو أننا تقدمنا لقتالهم وقمنا بمقاومتهم فسوف تخرب مصر خرابًا تامًا كغيرها من البلاد، وينبغي أن نختار مع هذه الجماعة التي تريد بلادنا واحدًا من ثلاثة: الصلح أو القتال أو الجلاء عن الوطن. أما الجلاء عن الوطن فأمر متعذر، ذلك لأنه لا يمكن أن نجد لنا مفرًّا إلا المغرب، وبيننا وبينه مسافات بعيدة..

قيمري: وليس هناك مصلحة أيضًا في مصالحتهم إذ إنه لا يوثق بعهودهم!

عدد من الأمراء: ليس لنا طاقة ولا قدرة على مقاومتهم، فمر بما يقتضيه رأيك..

قطز: إن الرأي عندي هو أن نتوجه جميعًا إلى القتال، فإذا ظفرنا فهو المراد، وإلا فلن نكون ملومين أمام الخلق.

الظاهر بيبرس: أرى أن نقتل الرسل ونقصد كتبغا – قائد المغول – متضامنين، فإن انتصرنا أو هُزِمنا فسنكون في كلتا الحالتين معذورين.

أيد الأمراء كافة هذا الرأي.. وكان على قطز أن يتخذ قراره.. وقد اتخذه فعلًا.. قتل الرسل وعلق رءوسهم على باب زويلة أيامًا.. ورفع رأسه متحديًا بمواجهة الطاغية، وأصدر أوامر بالتجهز للقتال «جهادًا في سبيل الله ونصرة لدين رسول الله ﷺ».

وإذ رأى ترددًا وجبنًا ونكوصًا من عدد من الأمراء ألقى كلمته المؤثرة: «يا أمراء المسلمين! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين».

وما كان للأمراء جميعًا، إزاء قيادة مؤمنة كهذه، إلا أن يخلعوا رداء العجز والوهن ومحبة الدنيا.. ويقفوا متحدين بمواجهة الفتنة التي إن لم تدفع بالدم فإنها لن تكتفي لضرب الذين ظلموا منهم خاصة!

اليوم الفصل:

انطلقت القوات الإسلامية بقيادة سيف الدين قطز واجتازت سيناء باتجاه غزة سالكةً الطريق المحاذي للبحر، وتولى الظاهر بيبرس قيادة المقدمة. ولم يكن في غزة سوى قوة صغيرة من المغول بقيادة بايدر الذي أرسل إلى القائد المغولي كتبغا الذي أنابه هولاكو لإتمام الغزو غربًا، يخطره بحركة الجيش الإسلامي، غير أن المسلمين اكتسحوا عساكره قبل أن تصلإ ليه النجدة.

كان كتبغا في بعلبك، فتجهز على الفور للمسير إلى وادي نهر الأردن بعد أن يتجاوز بحر الجليل، غير أن منعه اشتعال ثورة المسلمين في دمشق ضد السلطة المغولية وأنصارها من النصارى المحليين حيث حطمت دورهم وكنائسهم، واشتدت الحاجة إلى العساكر المغولية لإعادة الأمن إلى نصابه. وفي تلك الأثناء كان قطز يواصل السير على الساحل الفلسطيني ثم انعطف إلى الداخل ومضى شمالا لتهديد مواصلات كتبغا إذا حدث وتقدم إلى فلسطين.

عبر كتبغا نهر الأردن وتوجه صوب الجليل الشرقي، فبادر قطز على الفور بالانعطاف بقواته باتجاه الجنوب الشرقي مجتازًا الناصرة حيث وصل في الرابع عشر من رمضان (المصادف الثاني من سبتمبر/ أيلول عام ١٢٦٠م) إلى عين جالوت. وفي صبيحة اليوم التالي قدم الجيش المغولي تعززه كتائب كرجية وأرمنية، دون أن يعلم أن جيش المماليك أضحى قريبًا منه. وكان قطز يعرف جيدًا تفوق جيشه في العدد على العدو ولذا أخفى قواته الرئيسية في التلال القريبة ولم يعرض للعدو إلا المقدمة التي قادها بيبرس. وما لبث كتبغا أن وقع في الفخ إذ حمل بكل رجاله على القوات الإسلامية التي شهدها أمامه، فأسرع بيبرس في تقهقره إلى التلال بعد أن اشتدت مطاردة كتبغا له، فلم يلبث الجيش المغولي بأسره أن جرى تطويقه فجأة، وجرت بين الطرفين معركة طاحنة، واضطربت قوات المماليك بعض الوقت، فدخل قطز المعركة لجمعهم، ولم تنقضِ سوى بضع ساعات

حتى بدأ تفوق المسلمين في الميدان، وسحقت زهرة القوات المغولية ووقع قائدهم نفسه أسيرًا. وبأسره انتهت المعركة، إذ جرى حمله مقيدًا بالأغلال إلى السلطان حيث احتزّ رأسه!

توجه السلطان قطز إلى دمشق بعد أيام قلائل من المعركة حيث استقبل استقبال الأبطال وهرب نواب المغول منها بعد أكثر من سبعة أشهر من خضوعها لسيطرتهم، وقام قائده الظاهر بيبرس بملاحقة فلول العدو شمالًا وتطهير البلاد منهم، حيث قتل وأسر عددًا كبيرًا، وتمكن خلال شهر واحد من دخول حلب، المعقل الشمالي، وتخليصها من قبضة الغزاة. وهكذا تم تحرير بلاد الشام وفلسطين من أقصاها إلى أقصاها. ومع أن هولاكو أرسل العساكر لاسترداد حلب فإنهم اضطروا للانسحاب بعد أربعين يومًا أجروا أثناءها المذابح في عدد كبير من المسلمين انتقامًا لمصرع كتبغا، غير أن ذلك كان كل ما استطاع هولاكو أن يفعله للانتقام لقائده الشهير.

الفصل الرابع

١٠ رمضان ١٣٩٣هـ/ ٦ أكتوبر ١٩٧٣م

انتصار الجيش المصري وإسقاطه لأسطورة الجيش الإسرائيلي الذي لا يقهر[1]

***

حرب العاشر من رمضان السادس من أكتوبر ١٩٧٣ هي الحرب التي دارت بين مصر وسوريا من جهة والكيان الصهيوني من جهة أخرى في عام ١٩٧٣م. وتلقى الجيش الصهيوني ضربة قاسية في هذه الحرب حيث تم اختراق خط عسكري أساسي في شبه جزيرة سيناء وهو خط بارليف. وكان النجاح المصري ساحقا حتى ٢٠ كم شرق القناة، لكن المساعدات الأمريكية لإسرائيل وأحداث الثغرة اعاقت الجيش المصري من التقدم أكثر في عمق سيناء، وكان الرئيس المصري أنور السادات يعمل بشكل شخصي مع قيادة الجيش المصري على التخطيط لهذه الحرب التي أتت مباغتة للجيش الإسرائيلي.

***

وعن ذلك يقول المفكر و العالم الإسلامي الدكتور يوسف القرضاوي : من أهم ما حدث في شهر رمضان المبارك، ما فاجأنا وفاجأ العالم كله من حدث، اهتزت له القلوب طربًا، وابتسمت له الثغور فرحًا، ولهجت به الألسنة ثناء، وسجدت الجباه من أجله لله شكرًا.

إنه الحدث الذي عوضنا عما فُوجئنا به من قبل في الخامس من (يونيو) ١٩٦٧م، والذي خسرت به الأمة ما خسرت، وكسبت إسرائيل ما كسبت، وضاعت به -إلى اليوم- القدس والضفة والقطاع والجولان، إضافة إلى سيناء التي استردتها مصر فيما بعد.

وهذا الحدث الذي أحيا الأمة العربية من المحيط إلى الخليج، بل الأمة الإسلامية من المحيط إلى المحيط، هو حرب العاشر من رمضان (١٠ رمضان ١٣٩٣هـ/ ٦ أكتوبر ١٩٧٣م).

---

(١) المصدر: موقع قصة الإسلام

في أول الأمر خفت أن نكون مخدوعين، كما خدع كثيرون أيام نكبة ٥ يونيو ١٩٦٧م، فقد كانت القاهرة تذيع الأكاذيب على الناس، وتخدرهم بأخبار لا أساس لها: طائرات إسرائيلية تسقط بالعشرات، والحقيقة أن طائراتنا هي التي ضربت في مدرجاتها، ولم تطر حتى تسقط، ولكن كانت الشواهد كلها تؤكد أن هذه حقيقة وليس حلمًا، وأنه واقع وليس من نسج الخيال.

ألا ما أحلى مذاق النصر، وخصوصًا بعد تجرع مرارة الهزيمة المذلة من قبل! وللأسف طالت هزائم الأمة في معارك شتى، وذرفت الدموع كثيرًا على هزائمها، حيث لم تغنِ الدموع، وآن لها أن تجد مناسبة تفرح بها بعد حزن، وأن تضحك بعد طول بكاء.

لقد عبر الجيش المصري القناة، صنع قناطر أو جسورًا للعبور عليها، مكونة من أجزاء، تُركب في الحال، ويوصل بعضها ببعض، فتكون جسرا فوق الماء تعبر فوقه المصفحات والمجنزرات والدبابات إلى البر الآخر، وقد بدأ بالعمل فيها منذ سنوات، ثم بدأت تجربتها، والتدريب عليها منذ شهور، في تكتم وسرية بالغة، وهذا عمل مصري خالص، لم يشترك فيه خبراء أجانب؛ ولهذا حُفظ السر، ولم يبح به أحد.

بعد عبور القناة بسلام وأمان ونجاح، اقتحمت القوات المصرية ما عُرف باسم خط بارليف، الذي أقامته إسرائيل؛ ليكون حاجزًا ترابيًا بعد الحاجز المائي، وكانت العدة قد أعدت لتخطيه بإحكام ومهارة.

وكان كل شيء مُعدًّا بجدارة وأناة وحكمة، ولم يكن هناك شيء مرتجل، وقام كلُّ سلاح بدوره: سلاح المهندسين، وسلاح الفرسان والمدرعات، وسلاح الطيران، كلٌّ قام بما هيئ له، وما كلف به.

وقد اختير التوقيت المناسب لبدء المعركة، وكان رمضان هو الوقت الملائم نفسيًّا وروحيًّا؛ لما يمد به الجنود من نفحات، وما يعطيهم من شحنة روحية، وكان أكتوبر مناسبًا، من حيث المناخ، وليس فيه حرارة الصيف، ولا برد الشتاء.

وكان الوقت مناسبًا من ناحية أخرى أنه يوم الغفران، أو عيد الغفران عند اليهود، فلننتهز غفلتهم وانهماكهم في الاحتفال بالعيد؛ لنفاجئهم بضربتنا، كما فاجئونا بضربتهم في يونيو ٦٧.

ولا يقال: كيف نباغتهم ولا ننذرهم؟ فمثل هـذه الحرب لا تحتاج إلى إنـذار ولا إبلاغ؛ لأنها حرب دفاع للمحتل، وهي مستمرة معه لم تتوقف.

وأهم من هذا كله: الروح المعنوية التي كان يحملها المقاتل المصـري.. إنهـا روح الإيـمان؛ الإيمان بالله تعالى، وأنه ينصر من نصـره، والإيمان بأننا أصحاب الحق، والحق لا بـد أن ينتصـر، والباطـل لا بـد أن يزهـق ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ .[الإسراء: ٨١].

فرق بين حربين!

وفرق كبير بين هذه الحرب وحرب يونيو ٦٧، فقد كان العنصر الإيماني والروحي مغيبًا عنها تمامًا؛ لذلك لم يحالفها النصر.

كانت كلمة السر في حرب ٦٧: "بر بحر جو"، ولكن الواقع يقول: إنهم لم ينتصـروا في بر ولا بحر ولا جو، ولم يكـن الـذنب ذنـب الجيش وجنـوده، ولكـن ذنـب القادة الـذين جروهم إلى حرب لم يخططوا لها، ولم يعدوا لها العُدَّة، ولم يأخذوا لها الحذر، كما أمر الله.

لقد ترك الجنود أسلحتهم، وتركوا دباباتهم ومصفحاتهم، لم يحاولوا أن يشعلوا فيها النار بعد أن تركوها، حتى لا يغنمها العدو ويستفيد منها؛ لأن هـمَّ كل واحـد منهم كـان هـو النجاة بنفسه، واللياذ بالفرار.

لقد اعتمدوا على الآلات، فلم تغنِ عنهم الآلات، واتكلـوا عـلى السـلاح فلـم ينجـدهم السلاح؛ لأن السلاح لا يقاتل بنفسه، إنما يقاتل بيد حامله، ويـد حامله إنـما يحرِّكهـا إيـمان بهدف، وإيمان برسالة، وهذا لم يعبأ به الجنود.

يقول أبو الطيب:

إذا لم يكـن فـوق الكـرام كـرام ... ومـا تنفـع الخيـل الكـرام ولا القنـا

ويقول الطغرائي في لاميته:

ولـيس يعمـل إلا في يـدي بطـل ... وعـادة السيف أن يُزهَـى بجـوهره

ماذا تجدي خيل بغير خيال، وفرس بغير فارس، وسيف صارم بغير بطل؟!

فلا عجب أن كانت الهزيمة الثقيلة المذلة في ٦٧؛ فهذه نتيجة منطقية لمقدمتها، كما قال العرب: إنك لا تجني من الشوك العنب. وصدق الله إذ يقول: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ الأعراف: ٥٨

سُئل حسني مبارك عندما كان نائبًا للرئيس السادات في ٢٧-٩-١٩٧٥م، سأله بعض الصحفيين: ماذا أخذنا من دروس ٦٧ في الإعداد لقتال ٦ أكتوبر؟ قال: "باختصار.. في ٦٧ لا تخطيط.. لا إعداد.. لا تدريب.. لا تنسيق بين العمل السياسي والعسكري". اهـ.

وأهم من ذلك: أننا لم نزود جنودنا بالإيمان، في حين تجتهد إسرائيل أن تزود جيشها بتعاليم التوراة، وتوجيهات التلمود، ونصائح الحاخامات.

وكان من ثمرات محنة ٦٧: أنها أيقظت في الناس المعنى الديني، والضمير الديني، والرجعة إلى الله، وبدأت حركة إيمانية قوية في القوات المسلحة، وكان الحرص على إقامة الصلاة، وقام وعَّاظ الأزهر بدورهم في التنبيه والإحياء، وكان هناك شعور عام بالحاجة إلى الله، والدعاء بنصر الله، فلا غرو أن كان شعار المعركة "الله أكبر."

إن الجندي المصري في ٧٣ هو نفسه في ٦٧ من حيث الشكل والمظهر، ولكنه غيره من حيث الباطن والجوهر، إن الإنسان إنما يُقاد من داخله لا من خارجه، ولا يقود الناسَ في بلادنا شيءٌ مثل الإيمان، ولا يحركهم محرك مثل الإيمان.

وهذا ما لم تفهمه قيادة ٦٧، فقد عزفوا على منظومة القومية، ومنظومة الاشتراكية، ومنظومة الثورية، فلم تحرك ساكنًا، أو تنبه غافلًا في الجندي المصري، أو الجندي العربي عمومًا.

ولكنك إذا حركته بـ"لا إله إلا الله والله أكبر".. إذا رفعت أمامه المصحف، إذا قلت: يا ريح الجنة هبي، إذا ذكرته بالله ورسوله، وذكرته بالأبطال العظام: خالد وأبي عبيدة وسعد وطارق وصلاح الدين وقطز وعبد القادر الجزائري، وعمر المختار - فقد خاطبت جوَّانيته، ودخلت في أعماقه، وأوقدت جذوته، وحركت حوافزه، وبعثت عزيمته.

وهنا لا يقف أمامه شيء، إنه يصنع البطولات، ويتخطى المستحيلات؛ لأنه باسم الله يتحرك، وباسم الله يمضي، وعلى الله يتوكل، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١.]

الباب الثالث

أسلحة عربية .. لها تاريخ

الأسلحة العربية الإسلامية القديمة [1]

رأيت انه من المفيد ان أخصص بالكتاب بابا مستقلا عن الأسلحة العربية الإسلامية القديمة التي استخدمها العرب والمسلمون في حروبهم قديما .ومن أفضل من كتب عن هذا الموضوع المؤرخ العسكري العراقي المرحوم بإذن الله اللواء محمود شيت خطاب وننقل هنا ما كتبه في كتابه القيم العسكرية العربية الإسلامية:

١] الأهمية:

استعمل العرب المسلمون الأسلحة العربية الإسلامية في غزوات النبي ﷺ وسراياه، وفي معارك حروب الرِدَّة، وفي معارك الفتح الإسلامي العظيم، وفي معارك استعادة الفتح، وفي المعارك الدفاعية عن البلاد الإسلامية، وفي معركة (عين جالوت) بقيادة قطز على التتار، وفي معارك صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين.

وكان من نتائج غزوات النبي ﷺ وسراياه، التي استمرت سبع سنوات فقط (الرسول القائد ٤٢٣) توحيدشبه الجزيرة العربية تحت لواء الإسلام، لأول مرة في التاريخ، ولربما لآخر مرة أيضًا، إذ لم يوحّدها غيره حتى اليوم.

وكان من نتائج معارك حروب الردَّة التي استمرت سنة أو بعض السنة: إعادة الوحدة إلى شبه الجزيرة العربية تحت لواء الإسلام، وإعادة الوحدة إلى صفوف المجاهدين التي لو لا إعادتها لما كان الفتح الإسلامي ممكنًا، ولظل العرب في ديارهم يتخذون خطة الدِّفاع، والمدافع لا ينتصر أبدًا.

وكان من نتائج معارك الفتح: فتح بلاد شاسعة تمتد من الصين شرقًا إلى قلب فرنسا غربًا، ومن سيبيريا شمالًا إلى المحيط جنوبًا، وإحراز انتصارات حاسمة على أعظم إمبراطوريتين: الفرس والروم، وغيرهما من الأمم العريقة.

وكان من نتائج معارك استعادة الفتح: إعادة فتح البلاد التي انتقضت إلى حظيرة الدولة

(١) كتاب العسكرية العربية الإسلامية – سلسلة كتاب الامة رقم ٣ صفر ١٤٠٣ هجرية بقلم اللواء محمود شيت خطاب – من صفحة ١٤١ إلى صفحة ١٧٢.

الإسلامية من جديد بعد انتقاضها.

وكان من نتائج المعارك الدفاعية عن البلاد الإسلامية: بسط الحماية القادرة على تلك البلاد، وصد غارات المعتدين والطامعين عنها.

وكان من نتائج معركة (عين جالوت): كسر شوكة تعرض التتار الكبير لأول مرة على بلاد المسلمين، وصدهم عن تنفيذ خطتهم المتعرضة للسيطرة على سائر بلاد المسلمين.

وكان من نتائج جهاد صلاح الدين الأيوبي: تحرير كثير من البلاد العربية من سيطرة الصليبيين، وكان على رأس البلاد المحررة مدينة القدس، والمسجد الأقصى- أولى القبلتين وثالث الحرمين الطاهرين.

وكان استعمال العرب المسلمين للأسلحة العربية الإسلامية القديمة، سببًا من أسباب انتصارهم في تلك المعارك على أعدائهم، فمن المفيد معرفة هذه الأسلحة وأساليب استعمالها، لمعرفة سبب من أسباب انتصار المسلمين في مسيرتهم الطويلة المظفرة، ولتفصيل المعارك القتالية التي استعملت فيها هذه الأسلحة من أجل تقريبها إلى الأفهام، وهذا التفصيل مفيد للغاية في إعادة كتابة تاريخ المعارك العربية الإسلامية من جديد بأسلوب واضح خالٍ من التعقيد.

[٢] المنهــــاج:

والأسلحة العربية الإسلامية كثيرة العدد، وازداد عددها كمًّا ونوعًا بالتدريج، ولم تبق على ما هي عليه من أيام غزوات النبي ﷺ وسراياه إلى المعارك الدفاعية، بل تطورت وتكاثرت يومًا بعد يوم.

لقد كان العرب المسلمون يتحلون بمزية (المرونة) في القضايا العسكرية عامة: في التسليح والقضايا التعبوية والتنظيمية وأساليب القتال.

وكمثال على ذلك، فإن خالد بن الوليد ﷺ اقتبس أسلوب الكراديس، قبل معركة اليرموك، نتيجة لاستطلاعه الشخصي لقوات الرُّوم قبل أن ينشب القتال، وخرج في تعبية لم تُعبِّها العرب من قبلُ في ستة وثلاثين كُردوسًا إلى الأربعين (الطبري ٣/ ٣٩٦)، وباشر القتال بهذا الأسلوب القتالي، فأحرز النصر على الروم في تلك المعركة الحاسمة.

وما كان خالد لينتصر على الروم، لو جمد على أسلوب العرب القتالي القديم: الكرّ والفرّ، وأسلوب الصفوف، ولكنه اقتبس من الرُّوم ما وجده صالحًا لجيش المسلمين في القتال، وطبَّقه فورًا، ولم يبق جامدًا على الأساليب القتالية القديمة.

كذلك كان العرب المسلمون يقتبسون صنوف الأسلحة من أعدائهم، كما كان أعدائهم يقتبسون منهم صنوف الأسلحة ـ نتيجة للمعارك التي يخوضونها ـ فكانت هجرة الأسلحة من جانب إلى جانب من جملة الدروس المستفادة من تلك المعارك.

لقد كانت أسلحة المسلمين عند ظهور الإسلام في غاية البساطة: رماحهم من مُرَّان (شجر تتخذ من فروعه رماح فيها صلابة ولدونة)، وأسنتهم من قرون البقر، يركبون الخيل في الحرب أعراء، فإن كان الفرس ذا سرجٍ فسرجه رِحاله (سرج من جلدٍ بلا خشب)، من أدَم (الجلد غير المدبوغ، ويطلق على المدبوغ أيضاً)، ولم يكن ذا ركاب، والرِّكاب من أجود آلات الطَّاعن برمحه، والضارب بسيفه، وكان فارسهم يطعن بالقناة الصمَّاء، بينما الجوفاء أخف حملًا وأشد طعنةً، وكانوا يفخرون بطول القناة، ولا يعرفون الطعن بالمطارد (جمع مطرد، وهو الرمح القصير)، وإنما القنا الطوال للرجالة والقصار للفرسان، وكانوا في ابتداء الفتح الإسلامي لا يعرفون الرُّتيلة (آلة تقذف الحصيات على العدو)، ولا العرَّادة (آلة تشبه المنجنيق)، ولا المجانيق، ولا الدبابات، والخنادق ولا الحَسَك (خناجر تصنع من الحديد الصلب، لها شعب تغرز أنصبتها في الأرض حول المعسكر، أو حول الموضع الدفاعي، حتى إذا دبَّ العدو إلى المعسكر أو الموضع، أنشبت في أرجل الخيل أو الرجالة، فتمنعهم من الدنو)، ولا يعرفون الأقْبِيَة (جمع قباء: ضرب من الثياب، أخذتها العرب من الفرس)، ولا السراويلات، ولا تعليق السيوف، والطبول ولا البنود (جمع بند، والبند: العلم الكبير)، ولا التجافيف (جمع التجفاف، بكسر التاء، آلة يُغَطَّى بها الفارس والفرس في الحرب للوقاية)، ولا الجواشن (الجواشن: صدور الدروع، وقد تطلق على الدرع كله)، ولا الرمي بالمنجنيقات ولا الزرق بالنفط والنيران.

* تلك بعض مطاعن الشعوبية على العرب بشأن آلات الحرب، كما نقلها الجاحظ في كتابه: (البيان والتبيين: ٣/ ١٣ -١٦)، ورد عليها (٣/ ١٧-٢٤)، ولا أرى في هذا المطاعن شيئًا يستحق الرد، فهي مفاخر لا مطاعن، كفى العرب فخرًا أنهم تغلبوا على أعدائهم بهذه الأسلحة البسيطة البدائية، بينما كانت أسلحة أعدائهم أفضل من أسلحتهم، فالأهم

من السلاح اليد التي تستخدمه، وقد انتصر العرب المسلمون بهذه الأسلحة البدائية بفضل الأيدي المتوضئة التي استخدمتها في القتال.

ومن المعروف في تاريخ السلاح في العالم، أن السلاح ينتقل من أمة إلى أخرى بعد انكشاف أمره وفضح أسراره، وبمجرد استعماله في المعركة لا يبقى سرًا من الأسرار العسكرية، بل يصبح معروفًا للصديق والعدو معًا.

والمنهاج الذي أعتمده في هذه الدراسة يهدف إلى التركيز على أهمية دراسة الأسلحة العربية القديمة، للدلالة على الطريق فحسب، تاركًا للباحثين سلوكه، لأن الدخول في تفصيلات سلاح واحد كالسيف مثلًا، يستغرق كتابًا مستقلًا ووقتًا طويلًا.

ولكن لابد من التطرق إلى أنواع الأسلحة، وخاصة المهمة منها، مع شيء من الوصف لها، لتعين الدارس على سلوك الطريق.

[٣] التدريب على السلاح:

لا قيمة لأي سلاح من الأسلحة إلا باستعماله، والتدريب على استعمال السلاح تدريبًا راقيًا دائبًا هو الذي يؤدي إلى استعماله بكفاية، والمقاتل المدرب على استعمال سلاحه هو وحده يستطيع استعماله بنجاح، أما المقاتل غير المدرب فلا يستفيد من سلاحه كما ينبغي، والمدرَّب يستطيع التغلب على غير المدرَّب بسهولة ويسر.

ومن الضروري أن يثق المقاتل بسلاحه، والثقة تتم بالتدريب على استعمال السلاح، فإذا كان المقاتل لا يثق بسلاحه لضعف تدريبه أو لضعف السلاح، فإن مصير هذا المقاتل مصير لا يُحسد عليه.

وقد كان العرب قبل الإسلام يتدربون على استعمال السلاح، ولكن لم يكن تدريبهم إلزاميًا، فكان منهم من يتدرب ومنهم من لا يتدرب بحسب رغبته وهواه.

فلما جاء الإسلام أمر بالتدريب وحث عليه، لأن الجهاد فرض على كل مسلم قادر على حمل السلاح، فالمسلمون كلهم جند في جيش المسلمين، يجاهدون في سبيل الله لتكون كلمته هي العليا.

وقد وردت أحاديث كثيرة في الحث على الرمي، والرمي كما هو معروف، هو الاختبار العلمي للتدريب على السلاح، فإذا كان الرامي (هدَّافا) كان ذلك دليل على تدريبه المتقن الراقي، وإذا كان الرامي (وَسَطا) كان تدريبه وسطًا أيضًا، أما إذا كان (ضعيفا)، فهو ضعيف في تدريبه.

فقد مر الرسول ﷺ على نَفر من (أَسْلَم) - إحدى القبائل العربية - يَنْتَضِلون بالسّوق، فقال: (ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان راميًا. ارموا وأنا مع بني فلان»، فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ: (ما لكم لا ترمون؟»، فقالوا: «كيف نرمي، وأنت معهم؟» فقال: «ارموا وأنا معكم كلكم» (رواه أحمد والبخاري).

وعن عُقْبَة بن عامر ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»» (رواه أحمد).

وقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ عَلِمَ الرمي، ثم تركه، فليس منا» (رواه أحمد)، وقد شوهد كثير من الأئمة وكبار العلماء يمارسون الرمي بعد أن بلغوا الشيخوخة المتقدمة، ومنهم: الأمام أحمد بن حنبل ﷺ، فإذا سُئلوا عن سبب هذه الممارسة أو لمحوا استغراب الناس مما يفعلون، أجابوا المتسائلين والمتغربين بهذا الحديث النبوي الشريف.

ومعنى هذا الحديث أن المسلم يجب أن يمضي في تدريبه على السلاح من المهد إلى اللحد دون توقف بسبب العمر أو العمل أو غيرهما من أسباب.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله يُدْخِل بالسَّهم الواحد ثلاثة نَفَرٍ الجنة: صانعه الذي يحتسب في صَنْعَته الخير، والذي يُجهِّز به في سبيل الله، والذي يرمي به في سبل الله»، وقال: «ارموا واركبوا، وأن ترموا خيرٌ لكم من أن تركبوا»، وقال: «كل شيء يلهو به ابن آدم فهو باطل، إلا ثلاثًا: رَمْيَه عن قَوْسه، وتأديبه فرسَه، وملاعبته أهله» (رواه الخمسة: أحمد والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجه).

وعن علي بن أبي طالب ﷺ قال: كانت بيد رسول الله ﷺ قَوْس عربية، فرأى رجلًا بيده قوس فارسية، فقال: «ما هذه؟ أَلْقِها، وعليك بهذه وأشباهها، ورِماح القَنَا، فإنهما يؤيد الله بهما في الدِّين، ويمكِّن لكم في البلاد» (رواه ابن ماجه).

وعن عمرو بن عنبَسَة، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «مَنْ رمى بسهمٍ في سبيل الله، فهو له عَدْلُ مُحَرَّر - مثل عتق رقبة حررها -»، (رواه الخمسة، وصححه الترمذي).

وبالإمكان اتخاذ أهداف التصويب عليها في التدريب على الرمي من الأحجار أو الأخشاب وسائر المواد التي لا روح فيها، فقد لعن النبي ﷺ مَن اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا، وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تتخذوا شيئًا فيه الروح غَرَضًا - هدفًا يرمي بالسهام -»، «رواه مسلم وأحمد والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجه».

ودخل أنس بن مالك ﷺ دار الحكم بن أيوب، فإذا قوم نصبوا دَجاجة يرمونها، فقال: «نهى رسول الله ﷺ، أن تُصْبَرَ البهائم» (رواه البخاري ومسلم وأحمد).

وكان الذي يجيد الرماية في عهد الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام يشار إليه بالبنان، ويرفع ذكره بين الناس.

فسَعْد بن أبي وقاص ﷺ كان يرمي بين يدي النبي ﷺ في غزوة (أُحُد)، وكان أرمى الناس، فكان يجمع له الرسول ﷺ أبويه ويقوله له: «ارم فداك أبي وأمي» (البخاري ومسلم).

قال سعد: «جمع لي النبي ﷺ أبويه يوم أُحُد» (فتح الباري شرح البخاري: ٧/ ٦٦).

وان من مهرة الرماة يوم (أُحُد) سَهْل بن حُنَيْف ﷺ الذي بايع النبي ﷺ على الموت، وجعل ينضح عنه بالنَّبل حتى كشف الناس فكان عليه الصلاة والسلام يقول لأصحابه: «نَبِّلُوا سَهْلاً» (أسد الغابة: ١/ ٣٦٥)، أي: اعطوه نبلكم.

وكان رماة المسلمين يوم (أُحُد) خمسين، ويومها رمى النبي ﷺ عن قوسه (الكَتُوم) حتى صار شظايا، فرمى بالحجر، (ابن سعد: ٢/ ٢٩)، وكسر أبو طلحة يومئذٍ قوسين أو ثلاثة (البخاري شرح القسطلاني: ٥/ ٩٥).

هؤلاء المدافون ذكرهم النبي ﷺ وذكرهم أصحابه، ولا يزال ذكرهم يضيء صفحات التاريخ وكتب الرجال بالتقدير والثناء، لأن أحدهم كان هدّافًا ماهرًا في الرمي.

ولا أعرف عقيدة عسكرية غير العقيدة العسكرية الإسلامية، أمرت بالتدريب على السلاح، ونهت عن التخلف عنه، وشجعت المتفوقين فيه، وكرَّمتهم في حياتهم وبعد

موتهم، مما أدى إلى تفوق المسلمين في التدريب على استخدام أسلحتهم، ومهارتهم في استعمالها في ميادين القتال.

ومن الواضح أن حرص المسلمين على التدريب، وتفوقهم فيه، كان سببًا من أسباب انتصارهم في المعارك التي خاضوها.

[٤] الأسلحة الفردية القديمة:

(أ) القوس والسَّهم :

أولًا - القوس:

القوس في الأصل، عود من شجر جبلي صلب، يُحنى طرفاه بقوة، ويُشد فيها وترٌ من الجلد أو العصب الذي يكون في عنق البعير، وهو يشبه إلى حدٍ ما قوس المنجِّدين في هذه الأيام.

وكان العرب يسمونها الذِّراع، لأنها في طولها، ولذا كانوا يتخذون منها وحدة للقياس، فيقيسون بها المذروع، ومن ذلك قوله تعالى: (فكان قاب قوسين أو أدنى)، (النجم:٩)، أي قدر قوسين عربيين أو قدر ذراعين.

وعلى الرامي إذا أراد الرمي، أن يمسك وسط القوس باليسرى، ثم يثبت السهم في وسط الوتر باليمنى، ثم يجذب إليه مساويًا مرفقه الأيمن بكتفه، مسددًا بنظره إلى الهدف، فإذا بلغ الوتر نهايته تركه من أصابعه، فاندفع إلى وضعه الأول، دافعًا أمامه السهم إلى هدفه.

ثانيًا – السَّهم :

القوس للرامي كالبندقية، والأسهم كطلقاتها، ولابد للرامي من أن يحتفظ في كِنانته بعدد من الأسهم عند القتال.

والسَّهم والنبل والنشاب ... أسماء لشيء واحد، وهو عود رفيع من شجر صلب في طول الذراع تقريبًا، يأخذه الرامي فينحته ويسويه، ثم يفرض فيه فِراضًا دائرية، ليركب فيها الريش، ويشهده عليها بالجلد المتين أو يلصقه بالغراء ويربطه ثم يركب في قمته نصلًا من حديدٍ مدبب، له سنتان في عكس اتجاهه، يجعلانه صعب الإخراج إذا نشب في الجسم.

وأجود الخشب للقوس والسهم ما اجتمع في الصلابة والخفة ورقة البشرة وصفاء الأديم، وكان طويل العرق غير رخوٍ ولا متنفش، وأجود الخشب بالمشرق عود الشوحط وبالأندلس الصنوبر الأحمر الخفيف.

والأصل في السهام أن يُرمى بها عن بُعد، سواء أكن ذلك في ميدان مكشوف أم من وراء الأسوار والحصون، وهو سلاح قتّال فتّاك، وخاصة إذا سقي نصله السم. في بعض الأحيان، كانت السهام تستعمل كأداة للتخاطب، يكتب عليها راميها ما يشاء، ثم يرميها لمن يشاء، حفظًا للسرية.

(ب) الرُمح:

كان العربي يتخذ رمحه من فروع أشجار صلبة، أشهرها النبع والشوحط، وأحيانًا كان يأخذه من القصب الهندي المجوَّف بعد تسوية عُقده بالسكين، وتركيب نصل من حديد في رأسه.

والرمح سلاح عريق في القدم، شاع استعماله عند الشعوب القديمة، وكان أكثر شيوعًا عند الأمم التي ترتاد الصحراء، ومنهم العرب.

وكان للرماح أطوال مختلفة، تتراوح بين الأربع أذرع والخمسة والعشرة وما فوقها، الرماح الطوال خاصة بالفرسان حيث تساعدهم الخيل على حملها، أما النيازك أو المطارد وهي الرماح القصيرة فقد يستعملها الراجل والفارس أيضًا.

وفي اللغة العربية الفصحى أن الحربة والنيزك والمزراق والمطرد والعَنَزة، كلها أسماء لشيء واحد، وهي القصار من الرماح التي لم تبلغ أربعة أذرع، وهي أشبه شيء بالعصا. وكان العرب يعنون بالرمح، ويفضّلون القناة الصماء على الجوفاء لصلابتها وغنائها في المعارك، فيوالون دهنها بالزيت لتحافظ على مرونتها ولدونتها.

وطريقة حمل الرمح، كانت في الغالب: الاعتقال، وهو خاص بالفرسان، وهو جعل الرمح بين الركاب والسّاق (نهاية الأرب:٦/ ٢١٨)، بحيث يكون النصل لأعلى والزج لأسفل، على أنه كان لقسم من القبائل العربية طرائق خاصة في حمله، فبنوا سُلَيْم كانوا إذا ركبوا يضعون رماحهم بين آذان خيلهم، والأوس والخزرج كانوا يحملونها عليها مستعرضة.

أما قريش فكانوا يحملون رماحهم على عواتقهم (ابن هشام: ٣/ ٢٥٢). وكان المسلمون يقضون وقتًا طويلًا في التدريب على استخدام الرماح: إما بمطاردة الوحوش وطعنها بها، وإما بإعداد حَلْقة من الحديد تسمى: (الوترة) يتمرنون على الطعن داخلها، حتى حذقوا الطعن بها.

(ج) السيف :

السيف أشرف الأسلحة عند العرب وأكثرها غناء في القتال، يحافظ العربي على سيفه ولا يكاد يفارقه، وقد امتلأت بتمجيده أشعارهم، وجاوزت أسماؤه المائة في لغتهم. وهو آخر الأسلحة استعمالًا في المعركة بعد القوس والرمح، وذلك أن القتال يكون أول أمره بالسِّهام عن بُعْد، ثم تطاعنًا بالرماح عند المبارزة واقتراب الصفوف، ثم تصافحًا بالسيوف عند الاختلاط، ثم تضاربًا بالأسلحة البيضاء، وخلسًا بالخناجر عند الالتحام والاختلاط ... (نهاية الأرب: ٦/ ٢٣٨) فهو الذي يحدد مصير المعركة، وعلى حسن بلائه تتوقف نهايتها.

ويكفي لبيان فضل السيف قول النبي ﷺ: «الجنة تحت ظلال السيوف» (رواه الحاكم، شرح الجامع الصغير للمناوي: ١/ ٢٤٩).

وسيوف العرب أنواع كثيرة تختلف باختلاف صنَّاعها وأماكن صنعها.. أشهرها: السيف اليماني نسبة إلى اليمن، والهندي أو الهندواني أو المهند، وهو المصنوع في الهند، وهو يلي اليماني بالجودة، والمشرفي المنسوب إلى مشارف الشام، والقَلَعي نسبة إلى القلعة حصن بالبادية، والبُصروي المنسوب إلى بُصرى بالشام. وطريقة حمل السيف، تكون بتعليقه في الأكتاف والعواتق، ولذا يقال: تقلَّد سيفه، أي جعله كالقلادة، وذلك بحمله على الكتف الأيمن وتركه متدليًا في جنبه الأيسر. أما إذا كان الفارس يحمل سيفين، فإنه يتقلد بأحدهما ويجعل الآخر في وسطه، وقد علق كل واحد منهما في حمالته محفوظًا في قرابه الجلدي.

(د) الخنجر:

وهو معروف، يحمله المحارب في منطقته، أو تحت ثيابه، فإذا اختلط بآخر طعنه به خلسة.

وقد كان قسم من نساء المسلمين يحملن الخناجر في الغزوات المختلفة تحت ثيابهن للدفاع الشخصي.

(هـ) الدبّـوس:

ويعضهم يسميها: المِطْرَقة، وهي عصا قصيرة من الحديد، لها رأس حديد مربع أو مستدير، وهي في العادة للفرسان يحملونها في سروجهم ويقاتلون بها عند الاقتراب.

(و) الفأس أو البلطة:

وهو سلاح له نصل من الحديد، مركب في قائم من الخشب، كالبلطة العادية بحيث يكون النصل مدببًا من ناحية، ومن الناحية الأخرى رقيقًا مشحوذًا كالسكين.

[٥] الأسلحة الجماعية القديمة:

(أ) المنجنيق والعَرّادة:

هذا السلاح شديد النكاية بالأعداء، بعيد الأثر في قتالهم، فبحجارته تُهدم الحصون والأبراج، ويقنابله تُحرق الدور والمعسكرات، وهو يشبه سلاح المدفعية الحديثة.

والعَرَّادة آلة من آلات الحرب القديمة، وهي منجنيق صغير.

وقد كان الإنسان أول مرة يحارب بالحجر يرميه بيده، ثم اتخذ المقلاع بعد ذلك لتكون رميته بعيدة قوية، ثم فكر في طريقة لرمي حجارة أكبر ولهدف أبعد، فهداه تفكيره إلى المنجنيق، واتخذه أولا على هيئة (الشَّادوف) الذي يسقي به قسم من الفلاحين زرعهم، وهو عبارة عن رافعة، محول الارتكاز فيها في الوسط، والقوة في ناحية والمقاومة في أخرى، على أن يكون ثقل الحجارة هو المحرك له، بحيث إذا هوى الثقل ارتفع الشيء المرمى في كفّته.

وقد جعل في أول أمره على شكل قاعدة من الخشب السميك، مربعة أو مستطيلة يرتفع في وسطها عمود خشبي قوي، ثـم يُركَّب في أعلاه ذراع المنجنيق قابلًا للحركة كذراع الشَّادوف، بحيث يكون ربعه تقريبًا للأسفل، يتدلى منه صندوق خشبي، مملوء بالرصاص والحجارة والحديد أو نحوها، ويختلف حجمه باختلاف المنجنيق، وتكون ثلاثة أرباع الذراع للأعلى، تتدلى من نهايتها شبكة مصنوعة من حبال قوية، يوضع فيها الحجر المراد

قذفه، وعند القذف به يُجذب أعلى الذراع إلى الأرض بقوة الرجال، فيرتفع الثقل المقابل من الحجارة والرصاص والحديد الذي بالصندوق، ثم تترك الذراع فجأة فيهوي الثقل، ويرتفع أعلى الذراع بالشبكة قاذفًا ما فيها من الحجارة إلى الهدف المعين .

وبمرور الزمن، شمل التحسين هذا السلاح، فصار يُصنع من القاعدة المتقدمة نفسها، وفوقها قاعدة أخرى على شكل مربع ناقص ضلع من أسفل، ثم تركب ذراع المنجنيق في وسط السَّطح العلوي لهذه القاعدة، بحيث تكون قابلة للحركة، وبحيث يكون ثقل الرصاص في الناحية القصيرة السُّفلى، ثم يسحب الذراع كما سبق ذكره وتترك فجأة فيهوي الثقل بشدة، وتصدم الذراع بالعارضة السفلى في المربع، فتقذف الشبكة ما فيها بشدة، لاصطدام الذِّراع بالحائط الخشبي .

وبعد أن شاع استعمال هذا السِّلاح، لحقه كثير من التطوير، فعُرف منه نوع قوي يعمل بقوة الأوتار، وهو عبارة عن قاعدة مصنوعة من كتل خشبية ضخمة، تجر بقوة الرجال على الزّحّافات أو العجلات الصغيرة، وقد ارتفعت القاعدة من ناحية على شكل جدار خشبي، وثُبِّت الذراع في أسفل القاعدة القابلة للحركة، وخلفها وَتَر قوي مُستعرَض يمنع سحبها للخلف، بينما ربطت بحبال مثبَّتة إلى مؤخرة القاعدة تجذبها إلى الخلف، وعند الرمي يلفّ الرجال العمود الخشبي المربوط به الذِّراع، فتجذب الذِّراع إلى الخلف، فيمتد الوتر الذي خلفها إلى نهايته، ثم يوضع الجسم المراد رميه في كفَّة الذِّراع، ثم تفك الحبال الخلفية مرة واحدة، فيجذبها الوتر بقوة عند انكماشه، فتصدم الذراع بالحائط الخشبي المثبت أمامها بقوة، فترمي رميتها كأبعد وأقوى ما يكون الرمي.

ولم يستجد العرب في الجاهلية المنجنيق، وأول من استعمله الرسول صلى الله عليه وصلى الله وسلم في حصار مدينة الطائف (ابن الأثير:٢/ ٢٦٦).

(ب) الدبَّابــة:

الدبابة آلة تتخذ للحرب وهدم الحصون (الوسيط:١/ ٢٦٨)، وسميت بذلك لأنها تدب حتى تصل إلى الحصون، ثم يعمل الرجال الذين بداخلها في ثقب أسوارها بالآلات التي تحفر.

والضَّبْرُ هي الدبابة تتخذ من خشبٍ يغشّى بالجلد، يحتمي بها الرجال ويتقدمون بها إلى

الحصون لدق جدرانها ونقبها (الوسيط:١/ ٥٣٣).

وكانت الدبابة أول الأمر عبارة عن هودج مصنوع من كتل خشبية صلبة، على هيئة برج مربع، له سقف من ذلك الخشب ولا أرض له، وبين كتل البرج مسافات قليلة يستطيع الرجال العمل من خلالها، وقد ثُبِّت هذا الهودج على قاعدة خشبية، لها عجلات أربع أو أكثر، أو بكرات صغيرة كالعَجَل، متخذين منها درعًا يقيهم سهام الأعداء من فوق الأسوار، أو دفعوها وهم بداخلها، فإذا ألصقوها بالسُّور عملوا من داخلها بمساعدة آلات الحفر الحديدية، على نقض حجارة السور، من الموضع الذي أوهنته حجارة المنجنيق، وكلما نقضوا منه قدرًا علَّقوه بدعائم خشبية، حتى لا ينهار السور عليهم. فإذا فرغوا من عمل فجوة متسعة فيه، دهنوا الأخشاب بالنفط، ثم أشعلوا فيها النار، وانسحبوا إلى الدبابة، فإذا احترقت الأخشاب انهار السور مرة واحدة، تاركًا ثغرة صالحة للاقتحام منها.

واستعمل النبي ﷺ الدبابة في غزوة حصار الطائف (الطبري: ٣/ ٨٤)، ثم أدخل المسلمون عليها كثيرًا من التحسينات، حتى صارت ضخمة كثيرة العجل، فجعلوها برجًا مرتفعًا بارتفاع السور، وبداخلها سلالم مستعرضة تنتهي إلى شرفات فيها، تقابل شرفات الحصن، فيصعد الرجال في أعلاها، ويستعلون على السور وينتقلون من شرفاتها إليه، ثم يطردون منه رماة الأعداء.

وبمرور الزمن زاد المسلمون من حجم الدبابة، فصاروا يصنعونها كبيرة بحيث تجر على ست عجلات أو ثماني عجلات، وتتسع الواحدة لعشرة رجال أو أكثر، يعملون بها على نقب السُّور، فهي سلاح يتعاون مع المنجنيق.

(ج) رأس الكَبْش وسُلَّم الحصار:

يُحمل رأس الكبش داخل برج خشبي، أو داخل دبابة، وهي عبارة عن كتلة خشبية ضخمة مستديرة، يبلغ طولها حوالي عشرة أمتار أو أكثر، قد رُكِّب في نهايتها مما يلي العدو، رأس من الحديد أو الفولاذ، تشبه رأس الكبش تمامًا بقرونها وجبهتها، كما يركب السنان الحديدي على الرمح الخشبي، وتتدلى هذه الكتلة من سطح البرج أو الدبابة، محمولة بسلاسل أو حبال قوية تربطها من موضعين، فإذا أراد الجُند هدم سور أو باب قرَّبوا البرج.

منه، ثم وقفوا داخله على العوارض الخشبية، ثم يأخذون في أرجحة رأس الكبش للخلف والأمام، وهو معلق بالسلاسل، ويصدمون به السور عدة مرات، حتى تنهار حجارته، فيعملون على نقبه وهدمه.

وفي كثير من الحالات، كان رأس الكبش يُحمل داخل الدبابة الكبيرة ذات البرج، في الجزء السفلي منها، لاستخدامه عند الحاجة إليه.

أما السُلَّم، فهو من آلات الحصار أيضًا، وهو يساعد المحاصر على اعتلاء الأسوار وفتح مغالين الحصون.

وبمرور الزمن صارت السلالم تصنع من الأخشاب والحديد، مرتفعة بارتفاع السور تقريبًا، يصعد فيها الرجال بعد أن يسندوها إلى السور من مكان أمين.

واهتم المسلمون بالسلالم لأهميتها في اعتلاء الأسوار واقتحام الحصون، فطوروها وأدخلوا التحسينات عليها، فصار السلم بعد ذلك يصنع على قاعدة خشبية كبيرة تساعد على إثباته. وأحيانًا كان يُقام عليها سُلَّمان يلتقيان في النهاية العلوية، ليدْعم كل منهما الآخر، وجعلوا لهذه القاعدة بكرات من خشب أو عجلات ثابتة، ليسهل بها نقله من مكان إلى آخر، ثم أكثروا من أعداد السلَّم في الجيوش، وصار من أهم آلات الحصار كالمنجنيق والدبابة وغيرهما.

[٦] أسلحة النصر:

لم يبق للأسلحة العربية الإسلامية القديمة من أثر في الحروب الحاضرة، فقد تخطاها الزمن إلى أسلحة تضاعف الخسائر وتطيل أمد الحرب وتلق الويلات بالغالب والمغلوب.

ولكن هذه الأسلحة القديمة تبقى بالنسبة للعرب والمسلمين أسلحة النصر التي تذكرهم بماضيهم المجيد.

ولا تزال قسم من الأمم الحديثة، تحتفظ في متاحف السلاح، بكامل أسلحتها القديمة على اختلاف أنواعها، تذكرها بتاريخها الحربي، وقد أحسنت قسم من الدول العربية صنعًا بإنشاء متاحف لأسلحتها القديمة، فأصبحت تلك المتاحف مصدرًا للدارسين وعبرة للمعتبرين.

إن معرفة الماضيَ هي وحدها تطوِّع لنا تصور المستقبل وتوجِّه جهودنا إلى الغاية الجديرة بتراثنا العظيم، فالماضي والحاضر والمستقبل وحدة لا سبيل إلى انفصامها، ومعرفة الماضي هي وسيلتنا لتشخيص الحاضر ولمعرفة المستقبل.

والسلاح العربي الإسلامي جزء لا يتجزأ من العسكرية الإسلامية عقيدة وتاريخًا، ولغة وسلاحًا، وهذه العسكرية هي (روح) انتصاراتنا وفخر تاريخنا، فلابد من دراسة تلك الأسلحة ومعرفة أنواعها وأساليب استخدامها وتأثيرها المباشر في الحرب، فذلك يوضِّح المعارك العربية والإسلامية ويقربها إلى الأفهام.

وقد دأب المؤرخون القدامى المعتمدون على السكوت عن وصف خواص الأسلحة وكيفية عملها في المعركة، وخاصة الأسلحة الجماعية كالمنجنيق والدبابة مثلًا، وسكوتهم قد يكون سببه معرفتهم الكاملة لخواصها وتشغيلها لأنها كانت معروفة يومئذٍ . . أما اليوم فقد اختلف الأمر، فأصبح ما كان معروفًا قبل قرون غير معروف اليوم، فلابد من السعي الحثيث لتعريف خواص الأسلحة وآليتها، بدراسة كتب الأسلحة القديمة ونشرها، وبدراسة الأسلحة المتيسرة في المعارض والمتاحف العربية والأجنبية، فنضيف دراسة عسكرية للأسلحة العربية الإسلامية القديمة تفيدنا كثيرًا في دراستنا التاريخية وفي دراسة المعارك العسكرية العربية الإسلامية.

الخاتمة

يتضح للقارئ من خلال ما سردناه من غزوات ومعارك إسلامية منذ عهد النبي محمد ﷺ وحتى العصر الحديث أنها لم تكن مجرد مواقع حربية، بل صفحات مضيئة من التاريخ الإسلامي، تستفيد الأجيال المتعاقبة من تجاربها، وتستخلص منها الدروس التي تبين عوامل النصر وأسباب الهزيمة، كما أنها تعتبر منبعًا خصبا لدروس العسكرية الإسلامية من خلال القيم والمبادئ الأخلاقية التي أقرها الإسلام في الحروب، ومنها: حسن معاملة الأسرى، وعدم التعرض لدور العبادة والنساء والأطفال وكبار السن والشجر، وتؤكد تلك الغزوات والمعارك أن المسلمين خاضوها ليس بدافع الاعتداء بل دفاعًا عن النفس، ولمواجهة الغزاة الذين جاؤوا من كل حدب وصوب إلى بلادهم في المشرق والمغرب طمعًا في ثرواتها الطبيعية الوفيرة، وسعيًا دؤوبًا منهم لبلوغ هدفهم القديم لاحتلال أراضي بلاد المسلمين والسيطرة على موقعها الفريد ذوي الأهمية البالغة على خريطة العالم.

فالحروب التي خاضها المسلمون كانوا مجبرين على خوضها كرهًا للدفاع عن أنفسهم ودينهم الحنيف وحريتهم، وحماية لأوطانهم وحضارتهم من أولئك الغزاة، مصداقًا لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٠).

والقراءة المتأنية لمقدمات وأحداث تلك المعارك الإسلامية وظروفها التاريخية تثبت لنا عدم صحة ما ذهب إليه المستشرقون الحاقدون على الإسلام عندما زعموا أن الإسلام انتشر بحد السيف، فالحقيقة التي تعمد المستشرقون تجاهها هي أن الإسلام انتشر في الشرق والغرب من دون إراقة دماء الأبرياء، ودخلت معظم شعوب العالم في الإسلام بسبب تسامح العقيدة الإسلامية، وعدل الإسلام، وحسن الأخلاق التي يدعو إليها، وأمام حرص المسلمين في عصور الإسلام الأولى على التخلق بأخلاق الإسلام، فقد حبب غير المسلمين في الدخول في الدين الإسلامي أفواجًا طواعية من دون كره أو حرب.

ثم لينظر المتشككون وأرباب الشبهات إلى الإحصائيات الرسمية الحالية لأعداد الذين

يعتنقون الإسلام، والتي تدل على أن عدد المسلمين في ازدياد مستمر، وعلى الرغم من كل ما ينالهم من اضطهاد وما يتعرضون له من عوامل الإغراء!! فهل أكرهنا الأوربيين والأمريكيين واليابانيين وغيرهم على دخول الإسلام؟! إن ما حدث معهم هو الذي حدث مع كل من أسلم في تاريخ الإسلام، إن القوة الحقيقية للإسلام داخلية ذاتة، إنه دين الفطرة الذي يُقنع أي باحث صادق، ويعجب أي قارئ محايد.

وأيسر من أن نستقصى الحروب وأسبابها في صدر الإسلام لنعي تلك الحقيقة، أن نلقي نظرة عامة على خريطة العالم في الوقت الحاضر، لنرى الشعوب التي دخلت في الإسلام دونما حرب أصلًا، إن السيوف لم تحمل بتاتًا في إندونيسيا وماليزيا والهند والصين، وسواحل القارة الإفريقية، وما يليها من سهول الصحاري الواسعة، ومع ذلك فأعداد المسلمين فيها هائلة! ولو كان هناك إكراه على الإسلام فكيف نفسر بقاء المسيحيين واليهود والوثنيين وأشباه الوثنيين إلى الآن داخل معظم بلاد العالم الإسلامي؟!

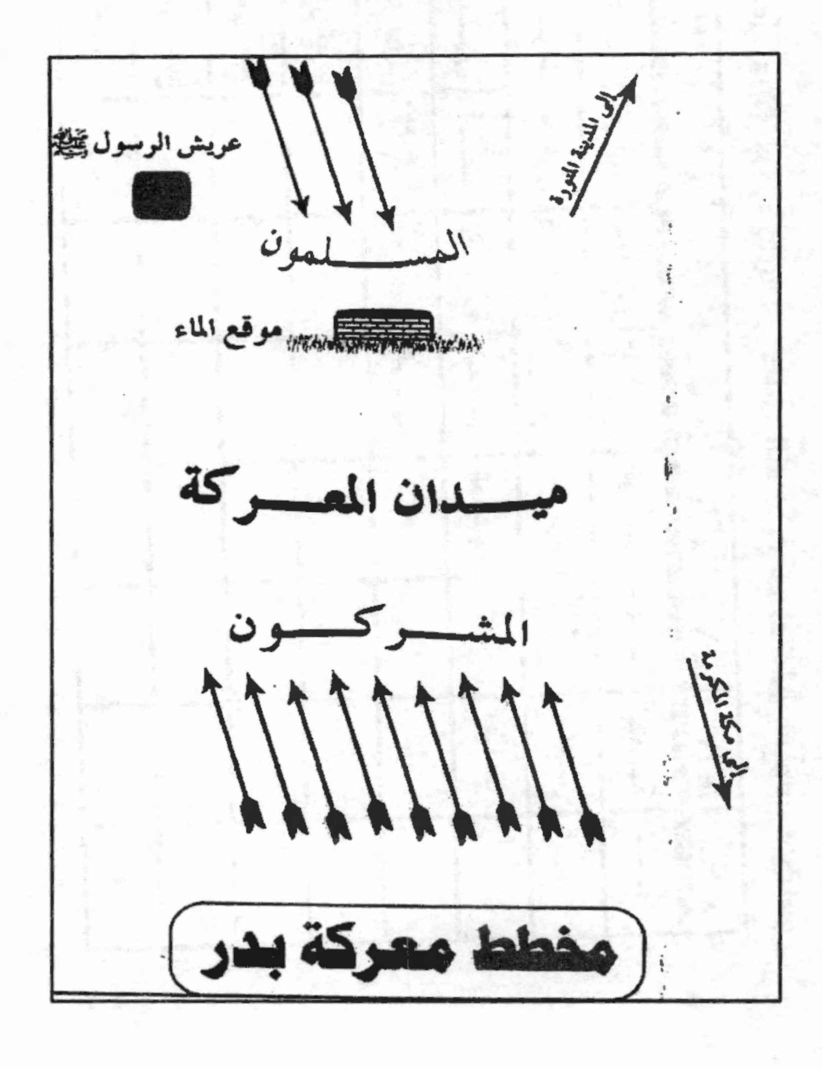
أما تشريع الجهاد في الإسلام فلم يكن لقهر الناس أو لإجبارهم على اعتناق الإسلام، وإنما كان لتحرير الإنسان وتحييد القوى الظالمة التي قد تحول بينه وبين الإسلام.

فالإسلام –إذن– إنما غزا القلوب، وأسر النفوس .. وإن كان بإمكان السيف أن يفتح أرضًا، فليس بإمكانه أبدًا أن يفتح قلبًا!!

ملحق الصور والخرائط

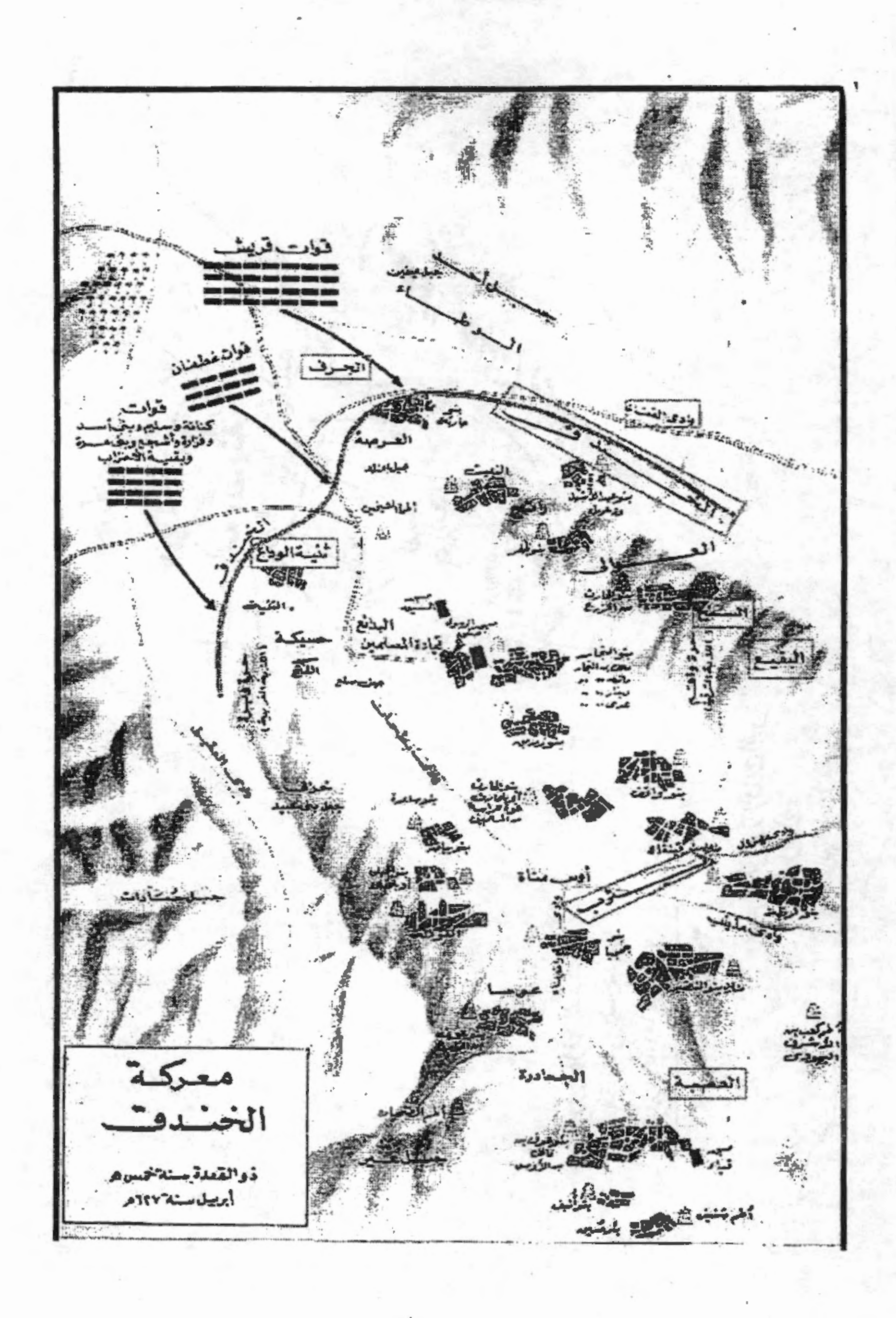
(أ)

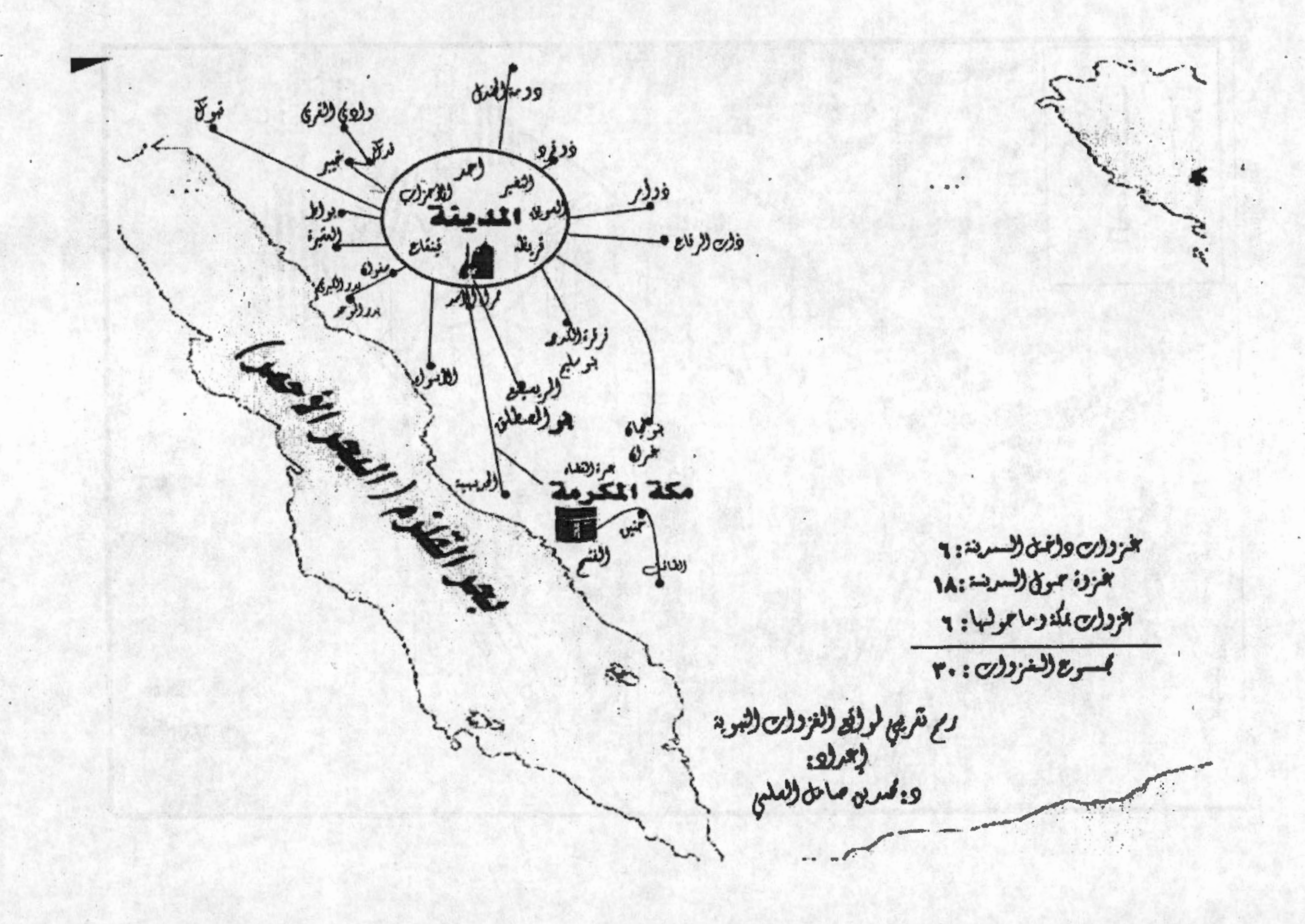
صور وخرائط المعارك الإسلامية



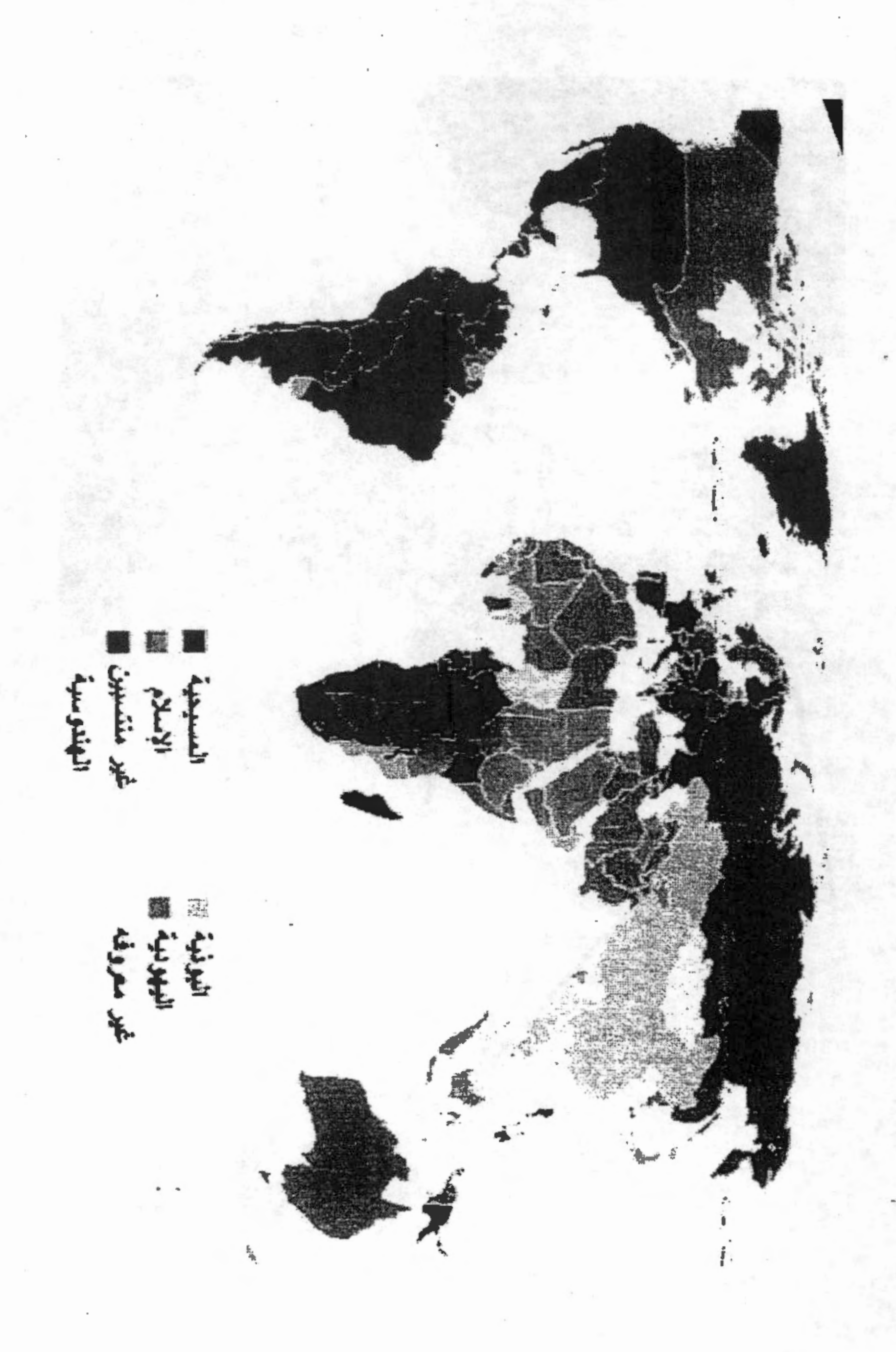
جدول توزيع غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم على سنوات جهاده

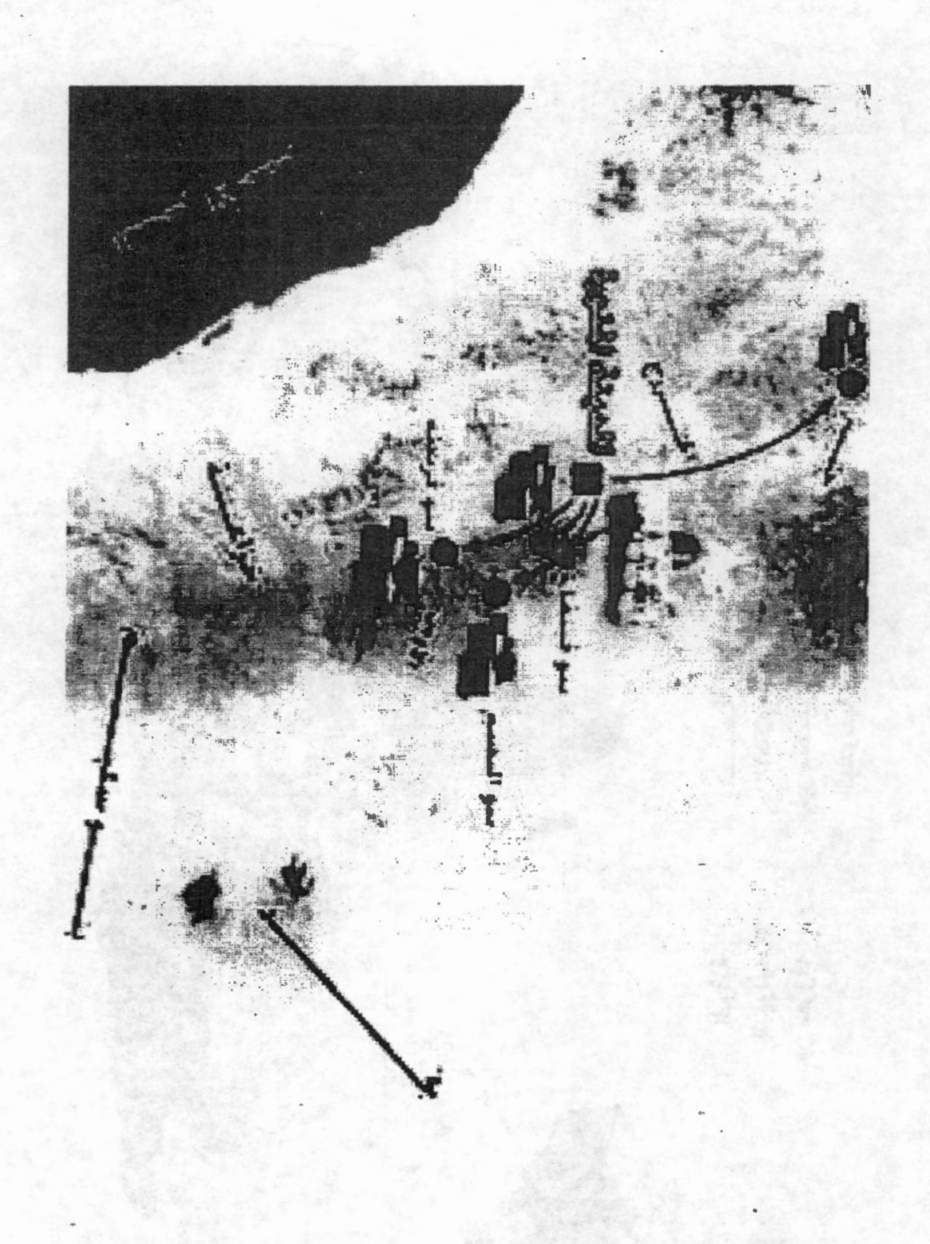
٢ هـ	٣ هـ	٤ هـ	٥ هـ	٦ هـ	٧ هـ	٨ هـ	٩ هـ
ودان	ذي أمر	بني النضير	دومة الجندل	بلي لحيان	خيبر	فتح مكة	تبوك
بواط	بحران	ذات الرقاع	بني المصطلق	ذي قرد	عمرة القضاء	حنين	
العشيرة	أحد	بدر الآخرة	الخندق	الحديبية		الطائف	
بدر الأولى	حمراء الأسد		بني قريظة				
بدر الكبرى							
بني سليم							
بني قينقاع							
السويق							

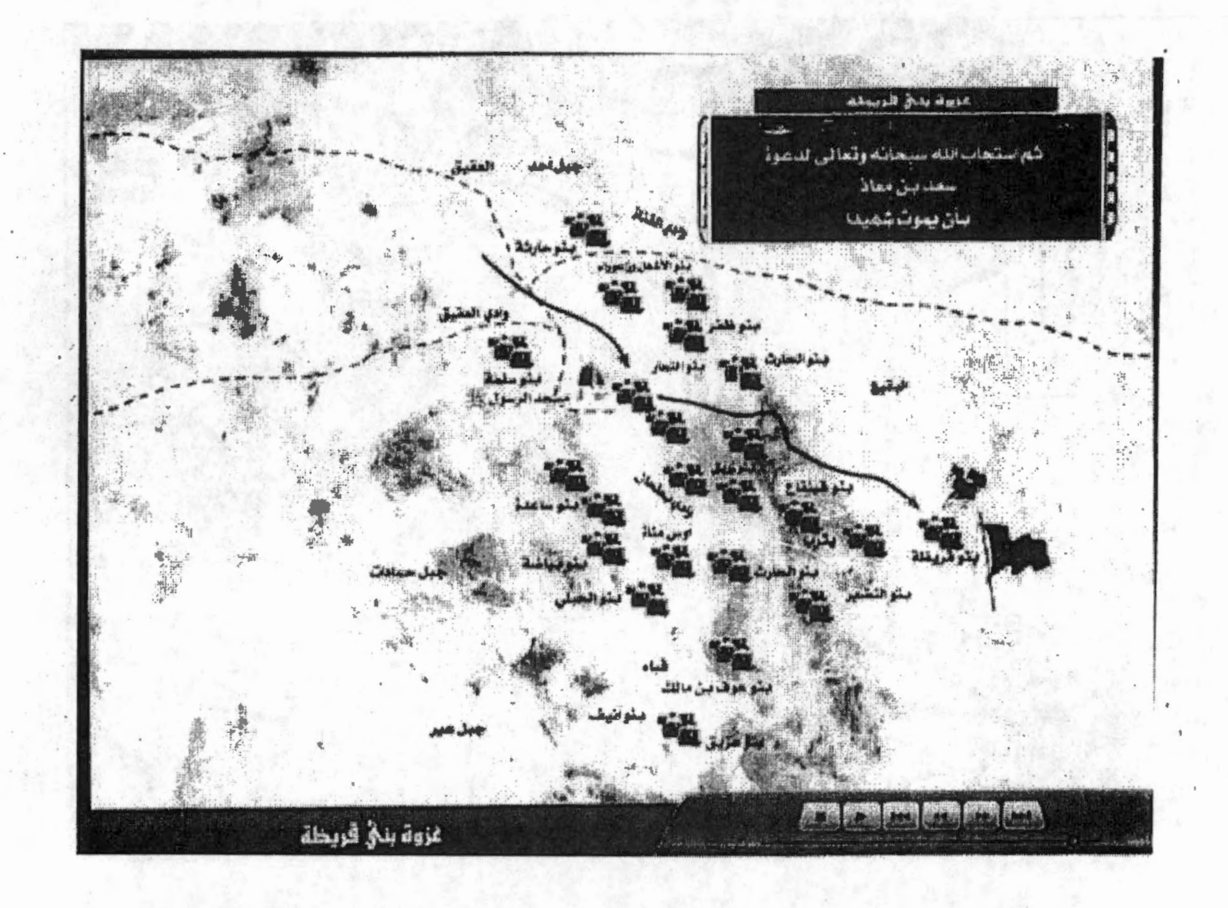

قوات قريش
قوات غطفان
قوات
كنانة وسليم وبني أسد
وفزارة وأشجع وبني مرة
وبقية الأحزاب
الجرف
ثنية الوداع
حسيكة
قيادة المسلمين
البقيع
أوس مناة
العصبة
معركة
الخندق
ذو القعدة سنة خمس هـ
أبريل سنة ٦٢٧م

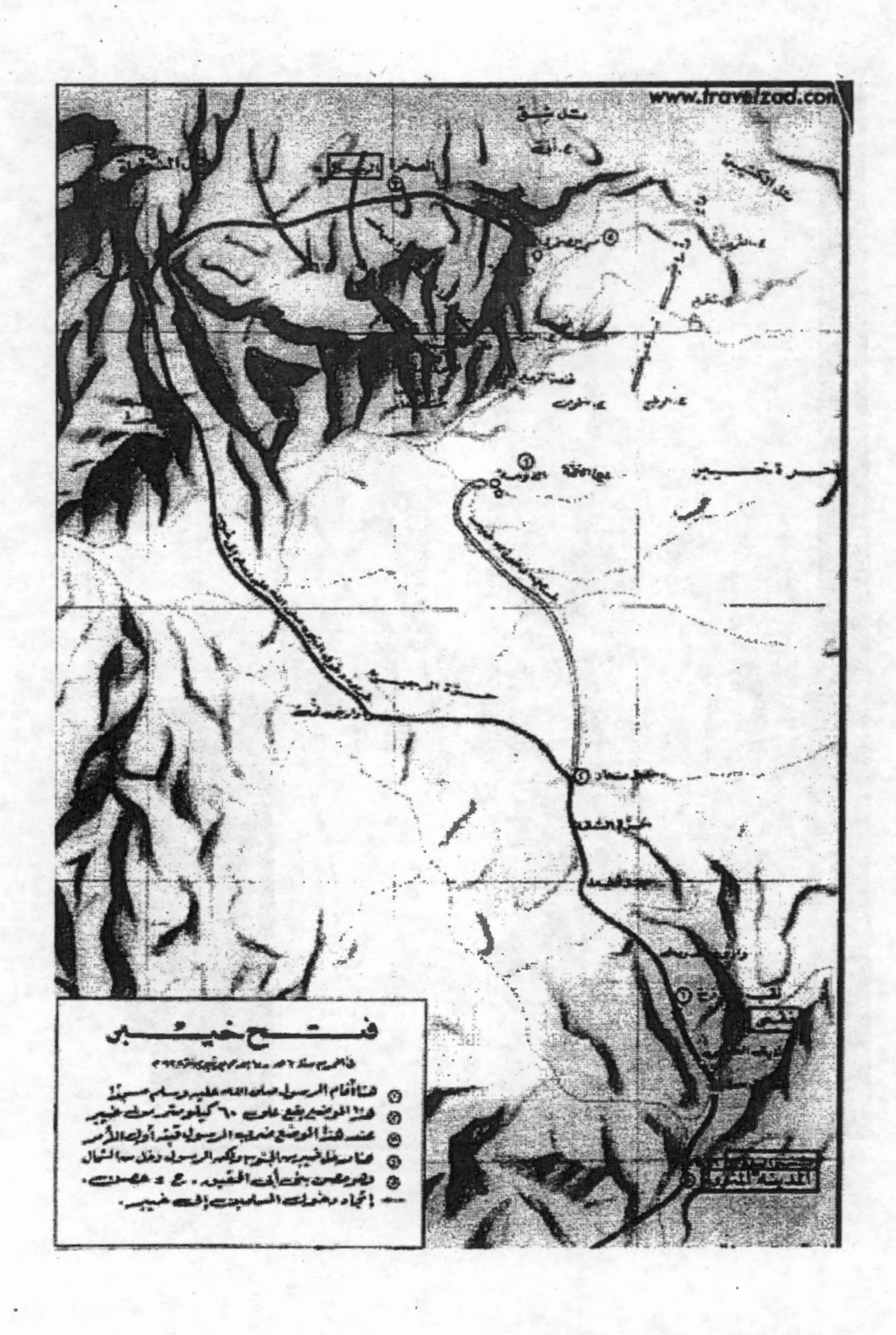


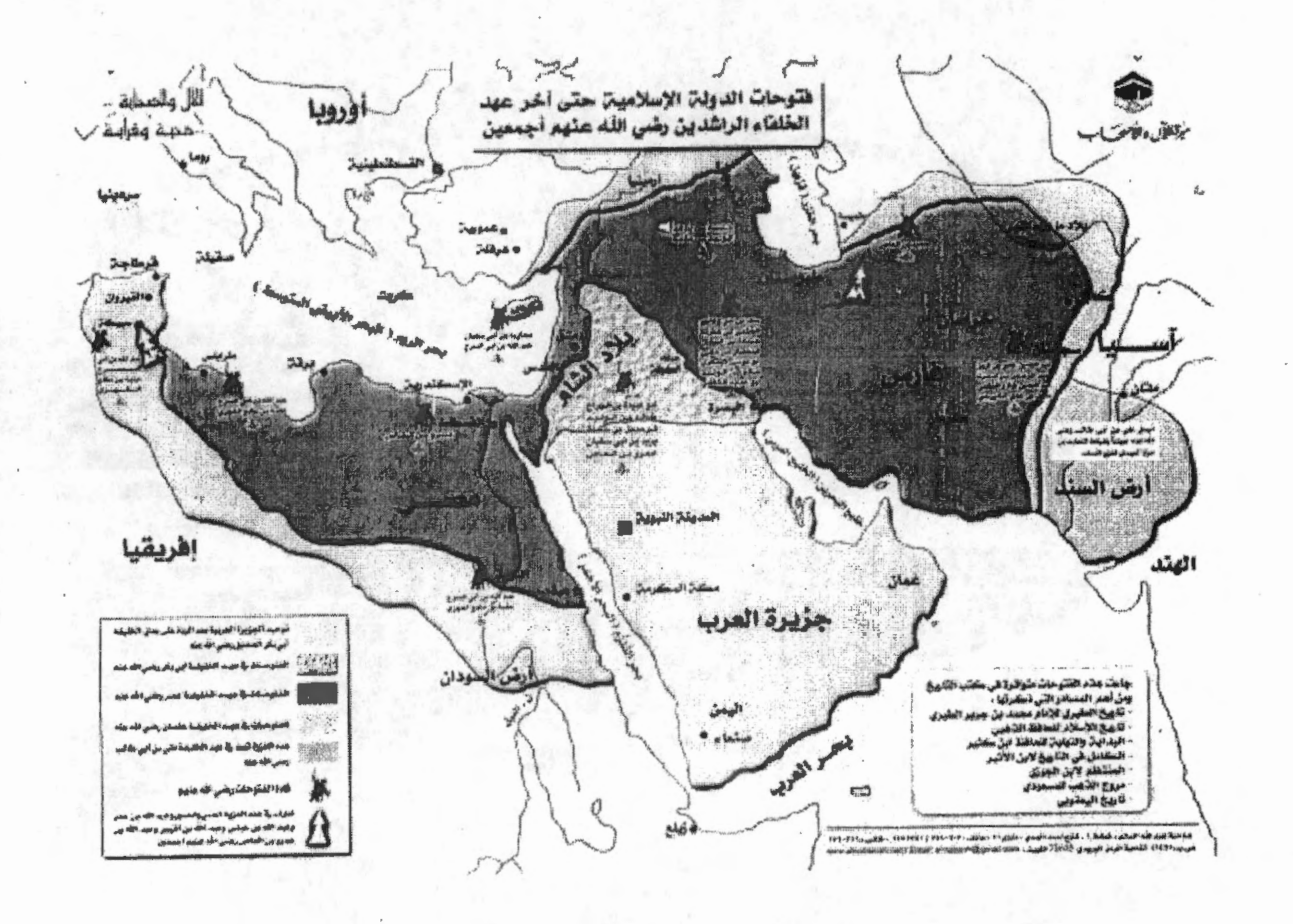
تبوك
وادي القرى
خيبر
دومة الجندل
ذو قرد
ذو أمر
ذات الرقاع
أحد
الأحزاب
النضير
المدينة
قريظة
قينقاع
بواط
العشيرة
سفوان
بدر الكبرى
بدر الموعد
حمراء الأسد
الأبواء
قرقرة الكدر
بنو سليم
المريسيع
بنو المصطلق
الحديبية
عمرة القضاء
مكة المكرمة
حنين
الفتح
الطائف
بحر القلزم (البحر الأحمر)
غزوات داخل المدينة : ٦
غزوة حول المدينة :١٨
غزوات مكة وما حولها : ٦
مجموع الغزوات : ٣٠
رسم تقريبي لمواقع الغزوات النبوية
إعداد:
د. محمد بن صامل السلمي

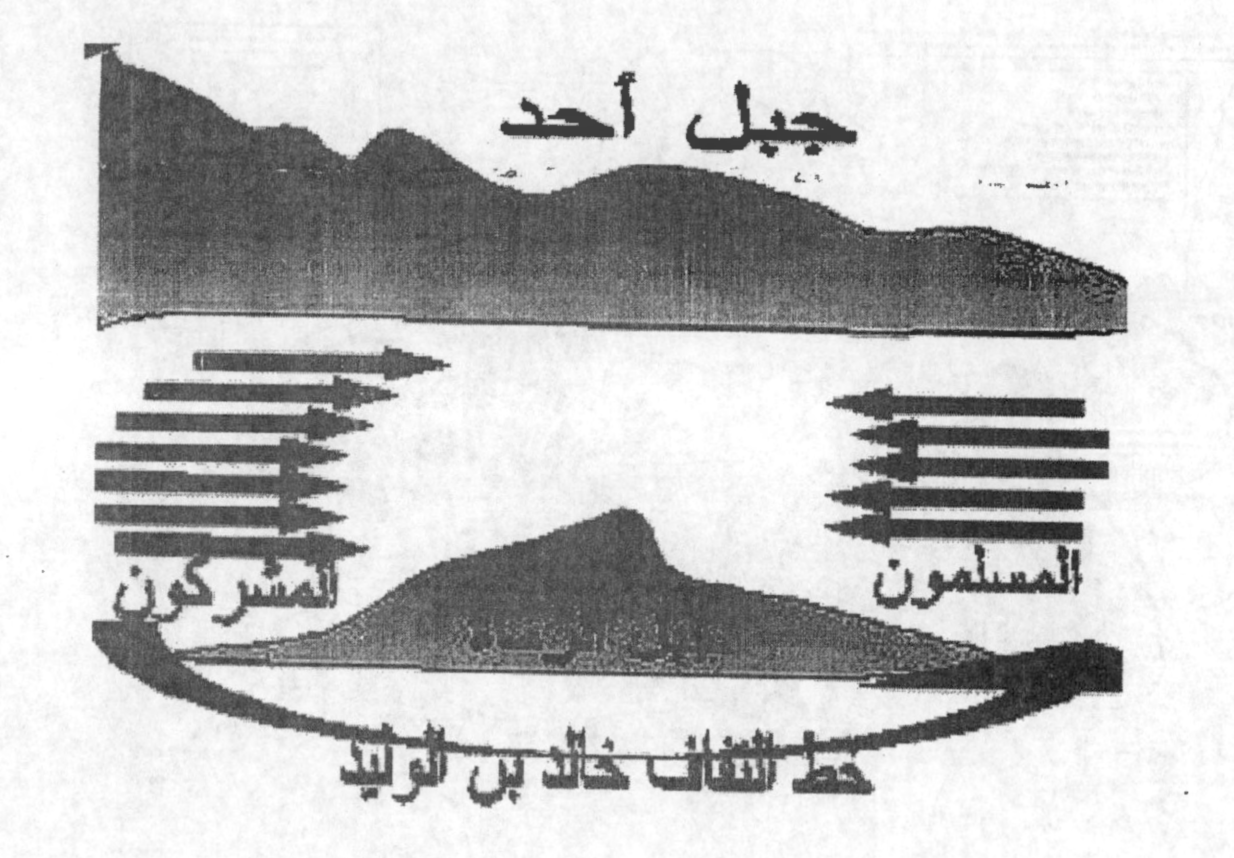

المسيحية
الإسلام
غير متدينين
الهندوسية
البوذية
اليهودية
غير معروف




غزوة بني قريظة
ثم استجاب الله سبحانه وتعالى لدعوة
سعد بن معاذ
بأن يموت شهيدا
جبل أحد
العقيق
وادي العقيق
بنو حارثة
بنو سلمة
مسجد الرسول
بنو النجار
بنو الحارث
بنو ساعدة
بنو قينقاع
بنو قريظة
بنو النضير
بنو الحبلى
قباء
بنو عوف بن مالك
جبل عير


www.travelzad.com
فتح خيبر
هنا أقام الرسول صلى الله عليه وسلم مسجدًا
هذا الموضع يقع على ٦٠ كيلومتر من خيبر
اتجاه دخول المسلمين إلى خيبر.
حرة خيبر
المدينة المنورة


فتوحات الدولة الإسلامية حتى آخر عهد
الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين
أوروبا
روما
القسطنطينية
إفريقيا
برقة
الإسكندرية
بلاد الشام
البصرة
فارس
آسيا
أرض السند
الهند
عمان
المدينة النبوية
مكة المكرمة
جزيرة العرب
اليمن
صنعاء
بحر العرب
أرض السودان


جبل أحد
المشركون
المسلمون
خط التفاف خالد بن الوليد

ب- بعض حلقات المعارك الإسلامة المنشورة في جريدة الوسط الكويتية



وقعت في 7 شوال عام 8 هجرية

غزوة حنين ... دروس وعبر



معارك إسلامية خالدة

وقعت في 25 رمضان 658 هـ الموافق 3 سبتمبر 1260 م

معركة عين جالوت... ووحدة المصير بين مصر والشام



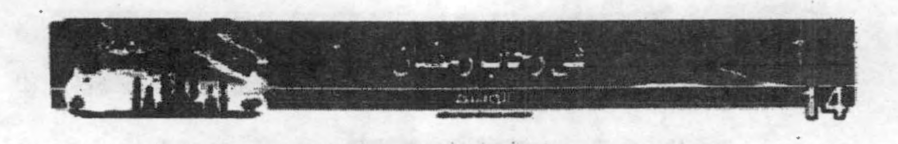




معارك إسلامية خالدة 25

في عام 583 هـ - الموافق 1187م

معركة حطين وفتح بيت المقدس .. انتصاران عظيمان للناصر صلاح الدين على الصليبيين



معارك إسلامية خالدة

وقعت بالأندلس في رجب 479 هـ الموافق أكتوبر 1086م

معركة الزلاقة .. كسبها الإيمان وضيع ثمارها الخلاف





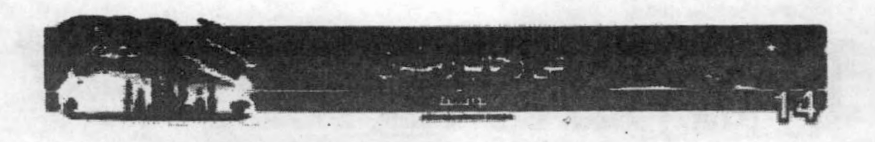


معارك إسلامية خالدة 23

وقعت في 20 من جمادى الأولى 857هـ - 29 مايو 1453م

محمد الفاتح وفتح القسطنطينية





معارك إسلامية خالدة

وقعت في آخر ذي القعدة 463 هـ أغسطس 1071 م بين السلاجقة والروم

معركة ملاذكرد .. الطريق إلى القسطنطينية





معارك إسلامية خالدة

وقعت في عام [illegible] هـ بعهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان وأنهت احتكار الروم البحر الأبيض المتوسط

ذات الصواري.. أول معركة بحرية في الإسلام

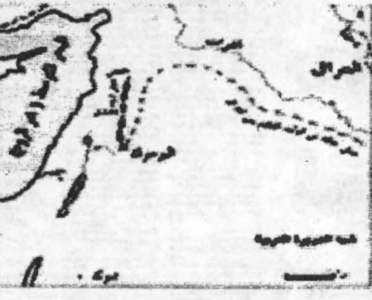




معارك إسلامية خالدة 20

وقعت في 5 رجب 13 هـ - 2 سبتمبر 634م

اليرموك ... المعركة التي قلبت موازين القوى وغيرت خريطة التاريخ



فتح بلاد الشام واليرموك

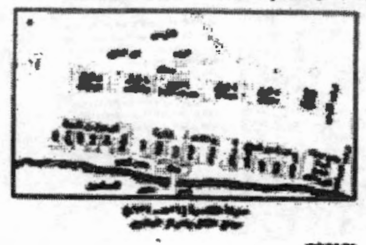




معارك إسلامية خالدة 19

وقعت في 13 شعبان سنة 15 هجريا

القادسية ... طريق المسلمين إلى فتح فارس





معارك إسلامية خالدة 18

وقعت في غرة شهر رجب عام 9 هجرية

غزوة تبوك ... وفضح المنافقين

غزوة تبوك

مراجع الكتاب

١- كتاب (العسكرية العربية الإسلامية) بقلم المؤرخ العسكري العراقي المرحوم اللواء محمود شيت خطاب – سلسلة كتاب الأمة رقم ٣ صفر ١٤٠٣ هجرية

٢- كتاب (أخلاق الحروب في السنة النبوية) للدكتور راغب السرجاني

٣- دراسة بعنوان « العسكرية الإسلامية .. فنون قتالية بأخلاقيات الإسلام » للباحث الإسلامي محمد شعبان أيوب.

٤- جريدة الوسط الكويتية اليومية خلال الفترة من ٩ يوليو ٢٠١٣ إلى ٨ أغسطس ٢٠١٣

٥- مواقع الكترونية :

أ- موقع " قصة الإسلام (www.islamstory.com)

ب- موقع مفكرة الإسلام

ت- موقع إسلام أون لاين

ث- موقع الألوكة

المؤلف في سطور

مؤلف الكتاب : ربيع إبراهيم سكر ، باحث وكاتب صحفي ، عضو نقابة الصحفيين المصرية، وعضو اتحاد الصحفيين العرب ، وعضو اتحاد الصحافيين الدولي ، وحاصل على ليسانس دار العلوم "ليسانس في اللغة العربية والعلوم الإسلامية" بجامعة القاهرة عام ١٩٩٧م بتقدير تراكمي "جيد" وحاصل على تقدير "جيد جدًا" في الفرقة الرابعة، وحاصل على تمهيدي ماجستير في قسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة عام ١٩٩٩م.

وشغل منصب مساعد رئيس تحرير جريدة الحقيقة المصرية في العام ٢٠٠٥م ، ويشغل منصب نائب مدير التحرير ورئيس القسم البرلماني بجريدة الوسط الكويتية، ويعمل كاتبًا صحفيًا بجريدة وموقع "المصريون" ، وتولى مسؤولية تحرير مجلة "الأوائل" للأطفال من إصدار الشركة المتحدة للبرمجيات في مصر في العالم ٢٠٠٤م.

وعمل بعدة صحف ومجلات ومواقع الكترونية مصرية وعربية منها: الأهرام المسائي والأهرام العربي وجريدة الراي الكويتية وجريدة المدينة السعودية بالقاهرة ومجلة "المجلة" السعودية بالقاهرة ، وبمجلة أكتوبر المصرية وجريدة الطريق المستقلة وجريدة الأحرار المصرية، وجريدة آفاق عربية وجريدة القرار ، ومحرر باب "شباب بلادي" بجريدة الشعب خلال عامي ١٩٩٦م و١٩٩٧م ، والعمل مراسلا صحافيا بالجريدة حتى ١٩٩٩م ، وعمل بالقسم الخارجي بمواقع "محيط" الالكتروني على الإنترنت في عامي ٢٠٠٣م و ٢٠٠٤م.

الفهرس